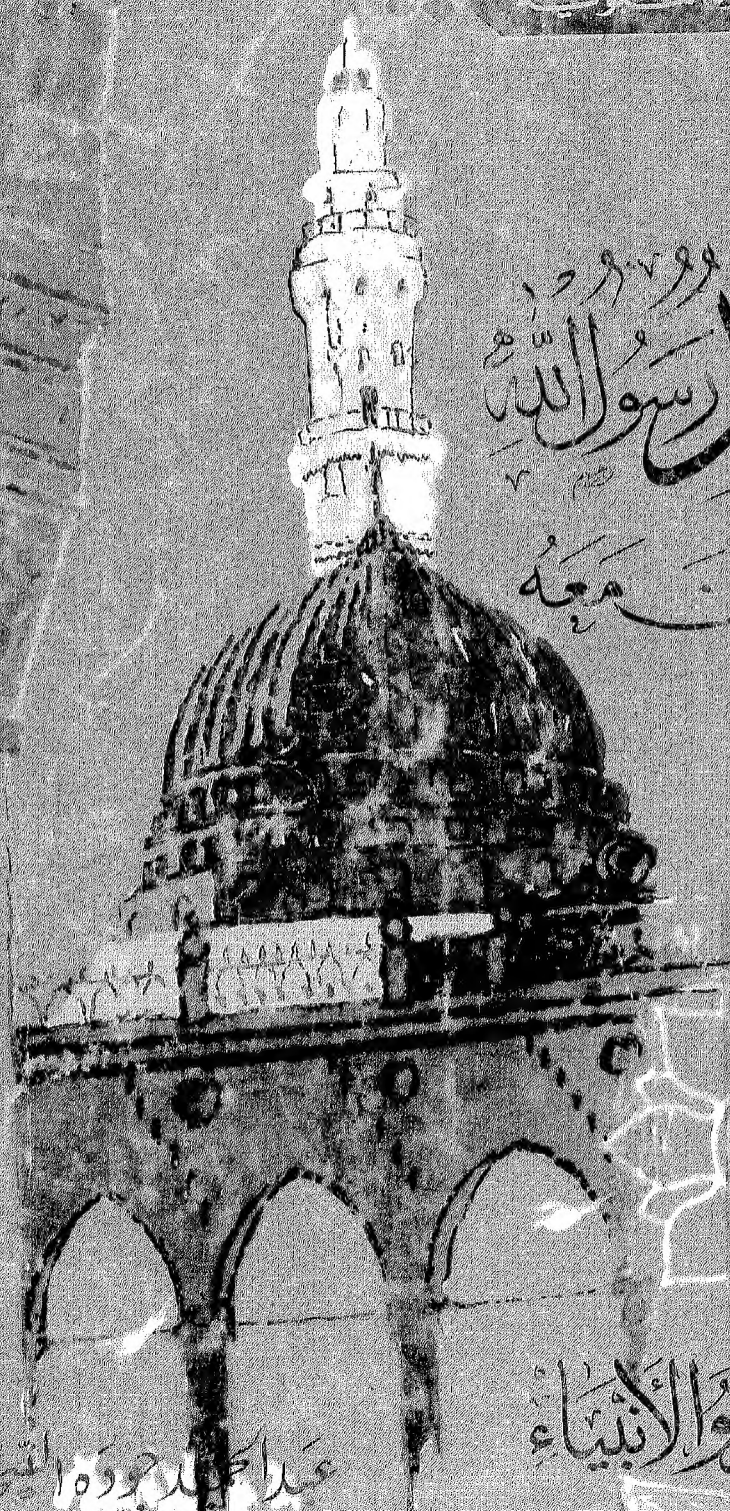


التسوية التكوينية



١٤٠٦ هـ
١٩٨٥ م
محلى رسول الله
والذين معه



Bibliotheca Alexandrina



0114757

ابراهيم بن النبي

عبدالله بن جوده

السيرة النبوية

محمد رسول الله
والذي معه

ابراهيم أبو الانبياء

عبد محمد جوده النجار

بسم الله الرحمن الرحيم

« وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » .
« قرآن كريم »

نهض آزر بعد أن تناول عشاءه ولبس عباءته ، فالتفت إليه
فوجته إيمتالي وكانت شابة وضيئة وقالت له :
— أخرج في مثل هذه الساعة من الليل يا آزر ؟
فابتسم آزر وقال لها :
— ولن أعود قبل أن يشرق علينا ربنا شمش إلى النور من أفقه
الشرق .

فلاح في وجه الزوجة كدر وزوت ما بين حاجبيها ، فذهب
إليها وقال لها في رفق :
— تعلمين يا إيمتالي أن كبير الكهنة في بابل — تقلدت روحه —
بعث إلى لأصنع تمثالا لإلهنا مردوخ في أثناء احتفالات العيد الأكبر ،
وإني ذاهب إلى أي ناحور لينظر في النجوم ، وينبئنا بأفضل وقت
للسفر ، وبما يحبته لنا القدر .

ثم ضمها إليه وقال وهو يقبلها :
— أي أبرع من تعلم السحر والتنجيم في أور ، بل لا أظن
أن في بابل نفسها من يسمر إلى علمه .
فتشبثت به وقالت في دلال :
— خذني معك إلى بابل ، فأنا في شوق إلى الركوع في معبد
مولانا مردوخ العظيم .

فضحك آزر وهو يصوب نظره إلى بطنها المنتفخ وقال :
- فى السنة القادمة يا حبيبى ، وأرجو ألا يكون فى بطنك
يومئذ ما يمنعك من البركوع .

وذهبت إلى تمثال الإله كان زوجها قد فرغ من صنعه قبل
أن يقوم ليتناول عشاءه ، وحملته بين يديها وعادت فوضعت
أمامها فى توقير ، وجاهدت لتركع ، إلا أنها أحست ألما ارتسمت
آثاره على محياها ، فخف إليها آزر ولف ذراعه حولها فى حنان
وقال :

- لا جدوى من تعذيب نفسك فقد دنت أيام وضعك . ولئن
أستطيع أن آخذك معى .
فقلت فى أسى :

- كنت أرجو أن أقدم قربانا لرب الأرباب وإله الآلهة
أجمعين .

- غدا إن شئت نذهب إلى المعبد ونقدم إلى إلهنا نائبا ، إله
القمر العظيم ، قربانا نتقرب به إليه .

- كنت أتمنى أن أقدم القربان إلى رب الأرباب مردوخ .
كان يؤمن فى قرارة نفسه أن مردوخ هو سيد الآلهة جميعا ،
وأن نانا هو إله مدينتهم أور وهو نفسه الإله سين إله القمر ،
وأن ولديه شامش القاضى الأعظم إله الشمس . وعشتار العنصر
إلهة الحرب وإلهة اللذة ، إن هى إلا آلهة فقدت كثيرا من سلطانها
بعد أن انتصر عليها جميعا مردوخ . إلا أنه رأى أن يطيب
نفسها فقال لها مواسيا :

— إن نانا يمثل مردوخ هنا في بلادنا ، فإن قدمت إليه قربانا فكأنما قدمت قربانا إلى مردوخ العظيم .

فقالت في نبرات تنم على أنها غلبت على أمرها :

— سأفعل ، بيد أني أرجو إذا ما وصلت إلى بابل أن تقدم إلى رب الأرباب قربانا عني ، لعله يغفر لي سيئاتي ويبارك في عمري .

— أنا واثق أن حياتك كلها حسنات لا تشوبها شائبة من خطايا . أنت بركة يا إيمتالي ، ولتطيلن الآلهة أيامك على الأرض : وقادها في رفق إلى حيث كان فراشها وعاونها على أن تتمدد فيه ، ثم طفق يلثمها هنا وهناك في هيام ، فرنت إليه بعينها الواسعتين يشع منهما حب ورضا واستسلام وقالت :

— ظلمك أبوك إذ سأك آزر ، كيف يدعوك « النار » وأنت رقيق أرق من النسيم ؟ ! لعل نجومه خائنه يوم نظر فيها ليختار لك اسما .

فرفت بسمة عذبة على شفتي آزر وقال :

— ما خابت أبدا نظرة أبي في النجوم . أنا وديع يا حبيبتى ما دمت إلى جوارك لأنك لا تحركين غضبي ، أما إذا ثرت فإني أضطرم كالنار وألتهم كل ما يعترض سبيلي : وانتصب قائما وقال لها :

— ناي يا حبيبتى في رعاية البعول السادة الكرام آهتنا العظام . ودار على عقبه وانطلق إلى الباب وفتحه ثم أغلقه في رفق وراءه . كانت الليلة حالكة السواد ، اختفت فيها جبال أور في

الظلام ، وبدت السفن الراسية فى الميناء كأنها أشباح . وعكست
صفحة الماء خيوطا واهنة من الضوء . وملأ السكون نفس آزر
خشوعا فراح ينزل فى الدرج الموصل إلى الطريق فى تودة : فقد
بنيت بيوت أور فوق الروابي لتأمن غوائل الفيضان ، إذ تقع
المدينة عند مصب النهرين العظيمين دجلة والفرات اللذين يجريان
بالخيرات .

وأحس آزر أن روحه تتصل بروح الكون العظيم . وبرغبة
جامحة فى إقام الصلاة ، فرفع بصره إلى السماء ونظر فى النجوم
فألقى كوكب المشتري بازغا فاستشعر أمنا ، فإله مردوخ رب
الأرباب يرعاه ، فراح يتلو فى حرارة وابتهاال وعينه لا تخيدان
عن المشتري سيد الآلهة جميعا :

— أى مردوخ العظيم . أى ربى ورب الآلهة جميعا . لقد
قضت حكمتك ألا تغمض عينك أبدا عن عبيدك ورعاياك : فى
النهار يكون عبيدك فى كنف شماس إله النور . وفى الليل يرعاهم
نانا إلهنا القمر العظيم ، وإذا غاب نانا فى السماء الزهرة عشتار
العطوف . إنها جميعا بأمرك تاتمر ، فإذا اختفت فى رحلتها الدائمة
عن عيوننا ، وإذا ما عجزت بصائرنا عن أن تتركها ، تجلبت
علينا بنورك لأنك أرأف بنا من أن تترك دنيانا دون أن تتردد فى
جنباتها الأنفاس الطاهرة ، أنفاس الآلهة الرحيمة بعبادها .

أى ربى مردوخ ، إنى ذاهب إلى ناحور . إلى من أسديت
إليه النعمة الكبرى ، ورفعت عن عينيه الغطاء ليرى قبا من
أسرارك ويقرأ المسطور فى لوح قدرك . لأستشير فى أمر خروجى

إلى معبدك المطهر في بابل ؛ فأطلعه يا إلهي على ما خبايته لي ،
فإني تارك لِمِمتالي زوجتي العزيزة في وقت هي في أشد الحاجة إلى
إكرامنا لوجهك . أي ربي مردوخ ، تقبل دعائي وسدد خطاي
واهديني سواء السبيل ، ووفقني لأن أصنع لك تمثالا يليق بعظمتك
يوم عيدك الكبير ، ترضى عنه ويرضى عنه ملكنا وإلهنا النمروذ ،
ويرضى عنه الـ « أوريجاللو » كبير كهنتك ، ويرضى عنه الناس
أجمعون ..

وسار وهو لا يرفع عينيه عن كوكب المشتري رب الأرباب
مردوخ ، وفي القلب إيمان وفي المقلتين دموع وعلى الشفتين
تسبيح ، حتى إذا بلغ بيت أبيه راح يرقى في الدرج ثم طرق الباب
في رفق . وممرت لحظات قبل أن ينفرج الباب عن جارية في عينيها
آثار النوم ، وتملأ أنفه رائحة البخور ، فقال للجارية :
— أبي في غرفته ؟

فهزت رأسها أن نعم دون أن تنطق حرفا ، وأخذت تفرك
عينيها بيديها ثم ثأبت وأغلقت الباب خلفه ، وانطلق إلى حيث
كان البخور يتصاعد فوقعت عيناه على أبيه فقال :
— عم مساء يا أبي .

— آزر ؟ ! ! مرحبا بك يا بني . ما الذي جاء بك في هذه
الساعة ؟

قال آزر ويده في يد أبيه :

— أرسل إلهي الـ « أوريجاللو » كبير كهنة إلهنا مردوخ ؛ لأصنع
تمثالا للإله في احتفالات العيد الكبير ، فجئت لتشير علي بما أفعله .

— ٩ —

فراح ناحور يقلب كف ابنه في يده ويقول :
 — أصابع صانع ماهر ، علمتك كيف تصنع تماثيل الآلهة
 فتفوقت على وصررت أمهر صانع في البلاد ، حتى إن الـ «أوريجاللو»
 يبعث في طلبك ليكون لك هذا الشرف العظيم ، شرف صنع تماثيل
 إلهنا مردوخ في عيده الكبير ، العيد الذي تفقد فيه الآلهة كلها إلى
 معبده المعظم لتقدم له الطاعة والولاء والخضوع .

فقال آزر وقد غص من بصره حياء :

— إنما الفضل لك يا أبت .

— أنا فخور بك يا بني .. أنت نعمة عظمى .. أنت مبارك
 يا آزر .. سيكون لك شأن عظيم يا بني .. رأيت في المنام أن نورا
 أضاء السماء قد خرج من صلبك . اسمع نصيحتي يا بني : قدم
 الخضوع لإلهنا كل يوم بالتضحيات والصلوات والبخور . ليكن
 قلبك نقياً أمام ربك ، فهذا ما يرضى به المعبود من العبد . إن
 أنت قدمت له التوسل والدعاء والصلاة والسجود في كل صباح ،
 فسيمنحك كل الكنوز ، وستزدهر أيامك بفضل منه . ثم عليك
 بالخوف فإن الخوف يولد الرفق ويرقق العاطفة . وإياك أن تنسى
 التضحية ، فإن التضحية تطيل العمر . والصلوة الصلاة فإن الصلاة
 تخلص من الإثم .

— إني يا أبت عبد مطيع .

— اقرب يا بني لأرقبك .

واقرب آزر من أبيه ، وراح ناحور يلتقي البخور في النار

ويرتل بصوت أقرب إلى الحمس :

— ١٠ —

— السيد العظيم الإله مردوخ أرسلني ،
لقد أحل رقيته المقدسة مكان رقيتي .
ووضع فمه المقدس مكان فمي ،
ووضع لعبه المقدس مكان لعبتي .
ووضع صلاته المقدسة مكان صلاتي .
يأيتها الأرواح الشريرة ارجعي عن آزر .
ثم ألقى ناحور في النار بصورة ترمز إلى الشرور ، وراح
يرقبها والنار تأكلها وهو باسر الوجه ، حتى إذا ما أتت عليها
تهللت أساريه ، والتفت إلى ابنه وهو يتسم وقال :
— اذهب ونم ، وفي الفجر نخرج إلى المعبد لنرى ماذا سطر
لك في لوح القدر .
ونهب آزر ونام حيث اعتاد أن ينام قبل أن يتزوج ، وقبل
الفجر أحس يدا تتهزه في رفق ففتح عينيه ، فرأى أباه قائما عند
رأسه يقول له :
— قم فتطهر لنذهب إلى المعبد .
وقام آزر واغتسل . ولما انتهى من تطهره ألقى أباه قد ارتدى
ثوبا أبيض وتأهب للخروج ، فانطلقا في عماية الصبح إلى المعبد
وفي يد آزر شاة .
وقال ناحور لابنه وهو ينظر إلى الشاة :
— ما أرا أف الآلهة بنا ، كان أجدادنا يتقربون إليها بذبح
أبنائهم ، ولكنها شفقة منها علينا أعلنت بقبولها أن نضحى لها
بحيوان بريء من العيوب ؛ ألا ما أرحم الآلهة !

- رايت يا أبى رجلا يذبح ابنه فى مذبح شماش قربانا وزلى .
 - إنه نذر نذرا للإله وكان عليه أن يني بنذره .
 - نذرت إن وضعت إيمتالى أنى أن أهبها للمعبود .
 - أتطمح أن تصبح كاهنة ؟
 - لتكن مشيئة الآلهة سواء عندى أكاهنة كانت أم كانت
 مغنية أم فتاة من فتيات الهوى ما دامت هذه مشيئة الآلهة .
 - لتفعل الآلهة بنا ما تشاء .

ودخل إلى المعبد ، ووضع ناحور موقدا أمام نانا وشماس
 ومردوخ ، ووضع أربع أوان من نبيذ السمسم على مائدة خلف
 كل موقد ، ووضع أرغفة ومزيجاً من الزبد والعسل وبعض
 الملح . وراح ناحور ينفخ الموقد أمام نانا إله القمر وحارس مدينة
 أور ، ثم أخذ آزر فى يده وشخص ببصره إلى تمثال الإله وراح
 يتلو فى خشوع :

- آزر خادملك . ألا فاسمح له يا إلهى أن يقدم التضحية
 لجلالك ، ألا وارض عنه يا إلهى بحق وجهك الكريم .
 وتناول ناحور الشاة وذبحها فى المذبح وهو يتلو :

- الحمل فداء لآزر ؛ لقد قدم حملاً فداء عن حياته .. قدم
 رأس الحمل فداء عن رأسه .. قدم عنق الحمل فداء عن عنقه ..
 قدم صدر الحمل فداء عن صدره ؛ فتقبل منه تضحيته وبيع له
 بسرك .

وشق بطن الشاة وأخرج منها الكبد مقر الحياة : واخذ ينعم
 النظر فيها ليرى نوايا الإله ، ليقرأ ما سطره لصاحب القربان فى

— ١٢ —

لوح قدره . ولاح في وجه ناحور الاهتمام ، ودنا آزر منه وهو
يحبس أنفاسه ، وممرت لحظات قلقة ثم قال ناحور :

— إيمتلى .. إيمتلى ..

فقال آزر في فزع :

— ما بالها ؟

— تلد .. لا ، إنها لا تلد أنثى بل تضع غلاما .. غلاما يقترن
اسمه بالسما .. غلاما له شأن عظيم .

فقال آزر في لهفة :

— وماذا ترى أيضا يا أبى ؟

— الطريق إلى بابل آمن ... اخرج مع القافلة التي ترحل
بعد غد .

وقطب ناحور وجهه ولاح فيه خوف ، فأحس آزر رهبة
وقال :

— ماذا ترى أيضا يا أبى ؟ : قل .. قل كل شيء .. لا تخف
عنى شيئا ..

فقال ناحور في صوت فيه رنة أسي :

— سحب داكنة تحجب وجه القمر .. وجه نانا ، وكسوف
يغشى وجه شمش ، وأصنام الآلهة تنخر على وجوهها .. خطب
فازل .. شر مستطير .. آلهتنا تختنى .. تختنى إلى حين .. أنت ..
أنت تحجبها .

وصمت ناحور وقال آزر في لهفة :

— ثم ماذا ؟

فقال ناحور فى يأس :

- لم أعد أرى شيئا . . بردت الكبد ولم تعد فيها حياة .

ولاح فى وجهى الأب والابن وجوم ، والتفتا إلى حيث كان
تمثال الإله مردوخ رب الأرباب وكبير الآلهة وفى قلبيهما رهبة ،
وفى صدريهما ضيق ، ضيق من أتى فى حق الأرباب
أمرا إذا .

كان تمثال مردوخ قائما فى مكانه بأذنيه الكبيرتين اللتين
ترمزان إلى فهمه العميق الذى لا يحده ، يحمل سلاحه المقدس الذى
قهر به تيامات إلهة الفضاء ، فمنحه سائر الآلهة حق تقرير المصائر
مكافأة له ، وربض تحت قدميه الوحش الذى أخضعه ؛ كان ذلك
منذ بدء الخليقة .

وتقدم ناحور نحو كبير الآلهة فى خشوع ، خافض الرأس
خافق القلب ، يحاول أن يستجمع ذهنه الذى ذهب شعاعا من
هول ما رأى فى كبد شاة التضحية ، قبل أن تختفى كل رؤية ،
وراح يتلو من أعماقه فى حرارة وإيمان وابتهاال :

- يا خالق البشر ، يا ساحر الآلهة وإله الكهنوت ، اغفر لى
خطيئتي إن كنت أخطأت فى حق الأرباب ؛ لم تنطق شفتاى
إلا بما رأت عيناي فى كبد الأضحية ، وقد رأنا ما أوحيت إلى
وكشفت لى عن أسرارهِ ، فإن كان ما رأت عيناي وحى شيطان ،
فاعف عني فقد جئت أستوحيك وقلبي عامر بالإخلاص .

وسالت العبرات على خدى ناحور فأحس كأن حملا ثقيلا

انزاح عن صدره ، والتفت إلى آزر والدموع تملأ عينيه ، ثم سار
وسار ابنه في أثره وهو صامت حائر لا يدري تأويل ما تنبأ به
أبوه ، وقد عجز عن أن يربط بين النور الذي رآه أبوه في منامه
يخرج من صلبه ليضيء السماء ، وبين أصنام الآلهة التي انكفأت
على وجوهها يجللها الحزى والعار .

ودع آزر زوجته إيمتالى وتركها فى رعاية تمثالين كبيرين
رائعين أحدهما لكبير الآلهة مردوخ والآخر لنا ، وتمثيل كثيرة
للآلهة جميعا ، ثم خف ليلحق بالقافلة الخارجة من أور والمنطلقة
إلى بابل لتبلغها قبل أول نيسان ، حتى يتمكن رجالها ونساؤها
وشبابها وشاباتهما من الاشتراك فى عيد رأس السنة ، عيد مردوخ
الرائع الذى تقف فيه الآلهة من مدنهم للتشترك فى عيد كبيرهم العظيم :
امتطى آزر حماره وسار فى طريق منحدر على جانبيه بيوت
من الآجر شيدت على الروابي لتأمن خطر الفيضان ، ورأى على
مرى بصره ميناء أور وقد رست فيها السفن تحمل الذرة والسهم
والقمح وقام حولها الصناع يشيدون السفن أو يصلحونها . سار
والسور الذى ضرب حول المدينة ليحميها من غضب النهرين
إذا فاضت مياههما ، ودار مع الطريق فصارت الميناء خلفه ،
ولاح على البعد الحرم المقدس وقد قامت فيه معابد الآلهة ، طبقات
من الآجر مدرجة فى ارتفاعها . كان بصره لا يرى إلا جدرانها
أما بصيرته فكانت ترى ممراتها وحجراتها وتمثيل الآلهة التى صنع
أغلبها بيديه وكساها الذهب والفضة .

وخلف وراءه الشوارع الضيقة وانساب فى سهل شنغار
المترامى على مدى البصر ، بين حقول القمح المتوج كالذهب ،

وقطعان الغنم والبقر وأشجار النخيل السامقة تكاد تسد الأفق .
ولاحت القافلة لعينيه فلكنز حماره يحثه على الإسراع ، ويرجو
أن يجد بين الخارجين إلى بابل بعض أصحابه ، فما أقسى السفر
الطويل بلا رفيق . وراح يطوى الأرض وفي قلبه حرارة وشوق .
وفي رأسه أفكار ، فما استطاع أن ينسى نبوءة أبيه . كان يسترجع
كل ما كان بينهما بعد أن غادر المعبد : « هل تطهرت جيدا
يا آزر ؟ ألم ترتكب شيئا يغضب الآلهة يا بني ؟ ! .. أنا عبد مؤمن
مطيع يا أبي .. ما الذى كسف الشمس وخسف القمر ؟ ! ..
وما هذا الضوء الذى خرج من صلبك لينير السماء ؟ ! .. لعله وحى
شيطان .. إذا قدمت يا بني على مردوخ العظيم فابتهل إليه أن يرضى .
وصل له فى خشوع وقدم له عجلا سميئا ليغفر لنا ذنوبنا ويغفرنا
برحمته » .

وعادت إلى ذهنه صورة مردوخ كبير الآلهة ورب الأرباب
وقد انكفاً على وجهه ، فارتجف رعبا وراح يطرد ذلك الحاطر
من رأسه ، ويهرع ليلحق بالقافلة التى صارت على مرمى حجر منه .
كانت القافلة تموج بالناس والنواب موجا ، شيوخ وعجائز
ورجال ونساء من كل الطبقات ؛ من « العاميلو » الأحرار رجال
الذين وموظفى الدولة ، و « المسكينو » أبناء الطبقة الوسطى ،
والعبيد الذين كانوا يوقدون النيران بنوى البلح أو يسحقونه ليطحنوا
به البقر والحمير والبغال ، أو يغدون ويروحون بالأحمال على
ظهور الرواحل تأهباً للمسير .

وراح آزر يخوس بين الناس يتلفت يميناً ويساراً يتفرس في

الوجوه بحثا عن صديق . ووقعت عيناه على سحن يالفيها : وألقى السلام على كثيرين وابتسم لكثيرين ، بيد أنه لم يجد بينهم من تبتهج روحه بصحبته طوال الطريق ، وسمع صوتا يناديه :
— آزر ! .. آزر !

فراح يتلفت في فرح فصاحب الصوت صديق حميم : والتفت عيناه بعيني الصديق فنأدى في ابتهاج :
— لوجال أيها العزيز ، أذهب أنت إلى بابل ؟ !
وأشرق وجه لوجال بابتسامة عذبة وقال :

— الحق أنى ترددت كثيرا قبل الخروج . قلت في نفسي :
« إن الاحتفال بعيد رأس السنة في أور كالاحتفال به في بابل .
لا فرق بينهما إلا أن الملك يحضر احتفالات بابل بنفسه . أما احتفالات أور فهو لا يشرفها بحضوره بل يرسل ملبسه لتحل مكانه في المراسم .

فقال آزر في إيمان :
— بابل أرض مردوخ الطاهرة . إنها مباركة .
فضحك لوجال وقال :
— أقول رأيي ولا تغضب ؟ .
— قل ولا تقدح في آلهتنا ، فأنا أعرفك سومري متعصب .
— الصلاة في معبد شماش كالصلاة في معبد نانا . كالصلاة في معبد عشتار . كالصلاة في معبد مردوخ .

— لا . لا يا لوجال ، من قال إن الصلاة في معبد كبير الآلهة ورب الأرباب كالصلاة في معبد الأنبياء والأبناء ؟ !

(إبراهيم أبو الأنبياء)

- ألم يكن إنليل كبير الآلهة ورب الأرباب ؟
- كان ذلك قبل أن تنفيه الآلهة الأخرى في مدينة « نفر » .
- أنا لا أدري لماذا نفته الآلهة .
- في الوقت الذي لم يكن الإنسان قد خلق بعد ، يوم كانت مدينة « نفر » لا يسكنها إلا الآلهة ، كان إنليل إله الهواء هو رب الأرباب ، وكانت ننليل عذراء المدينة ، وكانت أمنية أمها العجوز أن تزوج ابنتها من فتى مدينة الآلهة ورب الأرباب .
- وذات يوم دعت الأم ابنتها وقالت لها :
- تمشى يا ابنتي العزيرة على شاطئ النهر ، وفي المجرى الصافي اغتسلي يا حبيبتي . فإن ذا العينين المشرقتين ، إنليل العظيم ، الراعي الذي بيده المصابير سيراك وسيشغف بك حبا .
- فاتبعت ننليل نصائح أمها مغتبطة مسرورة ، وبينما هي تمشى على الشاطئ بعد أن اغتسلت في المجرى الصافي ، رآها الأب إنليل وفتن بنجالها ، وراودها عن نفسها فأبت ، فحملها إلى قارب في النهر واغتصبها ، فحملت سين إله القمر .
- وفزعبت الآلهة لما ارتكبه « إنليل » ، وقبضت عليه وقالت له :
- أيها الفاسق اخرج من المدينة .
- وذهب إنليل إلى العالم السفلي ، إلى العالم الذي لا رجعة منه .
- أيعقل أن يرتكب إنليل مثل هذه الحماقة ؟
- لقد ارتكبها .
- وراح لوجال يرتل في حماسة :
- إنليل ذو الأمر ، إنليل الذي كلمته مقدسة ، الرب الذي

لا يبدل كلامه ، الذى يقدر المصائر إلى الأبد . الذى تبصر عيناه
المتفرستان جميع الأقاليم ، الذى يتغلغل نوره المتعالى فى ضماير
البلدان جميعا ، يرتكب هذا الإثم ؟

— أجل ، ليلقى مصيره المحتوم ، ليعيش فى العالم الأسفل ،
العالم الذى لا رجعة منه ، ليكون عبرة للبشر .

— إنليل الذى يقدر المصائر يلقي مصيره ؟ ! إنليل الذى يخكم
إرادات القوة والسيادة والإمارة يخضع للقوة ؟ ! إنليل الذى تسجد
له آلهة الأرض خشية ورهبة ، وتتدلل أمامه آلهة السماء يخضع
للآلهة الأخرى ؟ ! إنليل الذى شعائره ومناسكه المطهرة مثل
الأرض ثابتة لا يمكن محوها يرتكب مثل هذا الإثم ؟ ! إنليل الذى
رهبته وخشيته تضاهيان السماء ، وظله منتشر على جميع الأقاليم ،
وتساميه يبلغ قلب السماء يتردى فى المعصية ؟ ! إنليل الذى لا يخسر
إله أن ينظر إليه تلقى به الآلهة فى العالم السفلى ؟ ! هذه أسطورة
ابتدعها ملوككم أيها الساميون لتنصبوا مردوخ إلهكم كبيرا للآلهة
وربا للأرباب .

— صه يا لوجال ، كفى أيها السومري . إن كان هذا رأيك
فلماذا تحج إلى مردوخ ؟ ولماذا تقدم له القرابين ؟

— إني أحج لرب الأرباب . وأقدم القرابين للإله الساكن
فى السماء الذى بيده لوح القدر ، سواء أكان اسمه إنليل أم مردوخ ،
أم شماش أم سين أم نانا أم أنكى : أم تيامات إلهة الفضاء التى زعمتم
أن مردوخ هزمها قبل أن تصبح له السيادة المطلقة . أم أى من
الأسماء التى يطلقها البشر على من بيده مصائر الكون والحياة .

وتذكر آزر ما أوحى مردوخ إلى أبيه لما نظر في كبد الشاة
من أن الآلهة انكفأت على وجوهها ، وها هو ذا لوجال ينال من
الآلهة جميعا ؛ ترى أهذا هو تفسير ما رأى ناحور ؟ وكاد يستريح
إلى ما خامره من رأى إلا أن صوتا همس في أعماقه بأن ما يقوله
صديقه لا يحيط من شأن الآلهة ولا يجعلها تنكث على وجوهها ،
إنه وإن كان ينكر أسماءها فهو يقر بقدرتها ويعبدها ويدبح في
مذابحها القرايين ويهريق من أجل رضاها دم الأضحيات .

وتحركت القافلة وانطلقت خلفه وراءها أور الكلدانيين ،
وآزر ولوجال يتجادبان أطراف الحديث ، قال لوجال :

— لماذا جعلتم إنليل يرتكب هذه الفاحشة ؟

— إنه ارتكبها ونال جزاءه .

— لا ، أنا لا أستطيع أن أتصور أن إلها يضعف ويرتكب
الخطايا .

— لا بد أن تنفذ النواميس الإلهية .

— وهل ترضى النواميس الإلهية بالفاحشة ؟

— لقد أقبرت نواميسكم يا آل سومر ارتكاب الآلهة للفاحشة ،

إن ملوكنا لم يبتدعوا قصة أنانا البغي المقدسة ، أنانا إلهتكم التي
كانت تعبر السماء وتعب الأَرْض .

— أنا لا أعرف قصتها .

— أما أنا فأحفظها عن ظهر قلب ، كان أبي يقصها على :

إن البستاني الذي نام معها يقول :

« وذات يوم ، بعد أن عبرت « مليكتي » السماء وعبرت

الأرض ، بعد أن قطعت بلاد « عيلام » وبلاد « شوبر » اقتربت
 البغى المقدسة « أنانا » من البستان ، ومن أثر وعشاء السفر غطت
 نى النوم ، فرأيتها عند حافة بستانى وجامعتها وقبلتها وعدت إلى
 مكانى . وطلع الفجر وأشرقت الشمس ، فاستيقظت أنانا وفطنت
 إلى ما وقع لها ، فجعلت تتلفت فزعة وجللة ، وهبت لتنتقم لما نالها ،
 فمألت جميع آبار البلاد بالدم ، فامتألت جميع الأحراش
 والبساتين فى البلاد بالدماء . لقد صار العبيد حين يذهبون للاحتطاب
 لا يشربون إلا الدم ، والإماء إذا ما جئن للتزود بالماء لا يملأن
 قربين إلا بالدم ، لقد قالت : لأجدن من جامعنى فى جميع أرجاء
 البلاد ، ولكنها لم تجد الذى جامعها .

فقال لوجال وهو يهز رأسه نفيا :

— لا يستطيع عقلى أن يتصور أن إلهة يغتصب إلهة ، أو أن
 يشرا يضطجع مع إلهة رأت أن تستريح فى ظل شجرة فى بستان .
 — النواميس الإلهية لا بد أن تنفذ . إذا وقفت بين يدي مردوخ
 فادعه أن يقسل الشك من قلبك .

— سأفعل .

وقرأ آزر فى عيني صديقه الشك فقال له فى صدق :
 — جاهد نفسك يا لوجال لتنجو من العالم السفلى عالم الأشرار ،
 العالم الذى لا رجعة منه .

وأغذت القافلة فى سيرها حتى لاح فى الأفق البعيد برج ،
 فقال قائل :

— برج عشتار قد ظهر .

— ٢٢ —

وقال آخر في انشراح :

— مدينة أوروك ندخلها قبل المساء .

والتفت آزر إلى لوجال وقال :

— عشتار العطوف إلهة اللذة ، بنت إلهنا سين وأخت شماش

إله النور ، إنها إله ذكر في الصباح وإلهة أنثى في المساء .

فقال لوجال وهو يلوى شفته السفلى استهزاء :

— إنها أنثى في المساء لتمنح الجميع اللذة ، سأكون هذه

الليلة من عباد عشتار المخلصين .

وقرأ آزر في عيني صديقه استخفافاً فقال له :

— كفى سخرية . أخاف أن تنزل الآلهة غضبها علينا بسببك .

اسمع نصيحتي يا لوجال وعد إلى أور ، حرام عليك أن تجشم

نفسك متاعب السفر وقلبك خاواً من الإيمان .

— إنى ذاهب إلى الآلهة لأصلي لها وأبتهل لتسكن الإيمان قلبي

اعلم يا آزر أنه شئ من لا يعبر الإيمان قلبه .

وتدفقت القافلة من باب عشتار وانسابت في طرقات مدينة

أوروك ، واتخذت طريقها إلى المعبد الذي بنى على قمة جبل وارتفع

مزاره حتى كاد يبلغ السماء . وحطت القافلة في فناء المعبد ،

وهرع البعض لتقديم القمح والذرة والسمسم والتين والبلح لمخازن

الآلهة . وصعد آخرون للصلاة لعشتار وتقديم القرابين لها ، وأخذ

الرجال ينظرون إلى عاهرات المعبد المقدسات اللاتي تمنطقن

بالحبال وجلسن في الطرقات يحرقن نوى الزيتون للآلهة .

والتفت لوجال إلى آزر وقال :

— هؤلاء الحريماتو اللاتي من أنجلهن أبقت عشتار على الرجل
وسلخته إلى أيديهن .

ولم يسمع آزر شيئا مما قال .. كان مشغولا بأفكاره ؛ إنه
تركه يمتثل في شهورها الأخيرة وقد نذر إن وضعت أنثى أن يهبها
للمعبد . ستكون ابنته يوما إحدى هؤلاء البغايا المقدسات . لا ..
إن العاهرات المقدسات ثلاث طبقات . الكزريت والسانهات
والحريمات ؛ وهو يرجو يوم نذر ما في بطن زوجه للمعبد أن
تكون من طبقة الكزريت ، من العاهرات المقدسات اللاتي يهن
أنفسهن مرة واحدة لمن يطلبهن من الرجال ، ثم يمتنع عن الرجال
ليصبحن كاهنات ككاهنة أور ابنة الكاهن العظيم ؛ فقد كانت
على الدوام في خياله كلما فكر أن يهب فلذة كبده للإله ، وما دار
بخطاره يوما أن تكون من الحريماتو .

إن البغايا المقدسات جميعا يسكن في المعبد ويعشن في «الباجوم» .
كلهن بنات الهوى ، ولكن ما أعظم البون بين أن تكون العاهرة
المقدسة من الكزريت أو السانهات أو الحريماتو !

وقضيت الصلاة والمراسم وهبط الرجال والنساء من المعبد .
وعاد الرجال يطيلون النظر إلى العاهرات المقدسات اللاتي كن
يخرقن نوى الزيتون للآلهة . وأخذوا يعمرون أمامهن ويتفرسون في
وجوههن ، ثم يلقى كل من شاء من الرجال بقطعة من النقود في
حجر من يستهويه جمالها ، فتقوم وتتبعه وهي تعبر جارتها أن التوفيق
قد خانها لأن عشتار إلهة اللذة لم ترض عنها في يومها ذاك .

وألقي لوجال قطعة من النقود في حجر فتاة كانت ترنو إليه .

بعينين فيهما نداء ، فقامت منبسطة الأسارير خلفه وانطلقت
وأُسرع آزر مبتعدا إلى حيث يربط حمّاره ، وانصرم بعض الوقت
ثم أقبل لوجال على صاحبه وقال :

— بورك آلهة اللذة ، ولكن لو كان لي بنت ما وهبتها
لعشتار ألبتة .

فقال آزر في حماس :

— امرأتي حامل ، وقد نذرت إن وضعت أنثى أن أهبتها للمعبد .

فقال لوجال ساخرا :

— حتى يعجزك أن تحصى عدد أزواجها .

فقال آزر مدافعا :

— إن من تهب نفسها للمعبد إنما تضحي بجسدها قربانا للآلهة ،
فتضحيتهأ أسمى من تضحية من ينحر كبشاً أو جدياً أو ثوراً .
إن غايتها أسمى من إشباع شهوة جنسية . إن المرأة المؤمنة عندما
تقدم جسدها إلى رجل غريب إنما تقدمه على مذبح الآلهة ، وبعد
أن تفرغ من هذه التضحية يصبح من العسير إغراؤها ولو بمثل
وزنها ذهباً .

— إنها تجارة ، بل أربح تجارة يمارسها الأغنياء ليزدادوا غنى ،
هم يكتزون الأموال من دعاية جوارهم .

— إنها شعيرة من شعائر الدين ، وما كان كهان المعابد ليقبلوا
هذا الدنس إن لم يكن يرضى عنه الآلهة .

— كهان المعابد ورجال الدين أغنى الناس ، إنهم راضون عن
هذه التجارة ؛ لأنها تملأ خزائنها ذهباً وفضة .

فقال آزر في غضب :

— أنت فاسق يا لوجال لا تعرف شيئا .

فقال لوجال وهو يبتسم :

— ولكنى أعرف الحرمانات أكثر منك .

ثم راح يرتل في نبرة أقرب إلى الغناء :

— لا تزوج من حرمانات لا يحصى عدد أزواجه ،

لأنها في مصابك لن تشد أزرك ،

وستفترى عليك في قضيتك :

ليس الاحترام أو الخضوع من صفاتها .

إنها ولا شك تقوض الدار ، أخرجه منها ،

تلك المرأة التي تطيل النظر في أثر كل رجل غريب .

إن كل بيت تدخله ينهار ، ولا يفلح من يتزوجها .

* * *

وفي عماية الصبح تحرك الركب وانطلقت القافلة عبر السهول
الخضراء المترامية على مد البصر . مروا في طريقهم بأناس يقومون
بتحديد أراضي الملاك وتأكيد الحماية الإلهية عليها ، وبفلاحين
يطهرون الترع التي تقع على جوانبها أراضيهم ، ومروا بأراضي
الأمراء التي يعمل فيها السجناء والأهالي سخرة : يشقون الترع
ويشيدون الخزانات ويجهزون العجلات ويقومون بأعمال الحرث
والزراعة والحصاد .

ومروا بأرض بور فالتفوا الفلاحين يعملون فيها بهمة ونشاط
والعرق يتصبب من جباههم ، فقد كانت الأرض البور حقا لمن

يشغلها وملكا لمن يفلحها .

ورأوا المراكب الصغيرة تسير في القنوات تنقل مواد البناء من أخشاب وأحجار ومعادن ، وترسو على الأرصفة بالقرب من بوابات المدن تنزل ما تحمل ، ثم تشحن بالغالل لتنقلها إلى منطقة أخرى أو تأخذ طريقها إلى موانئ التصدير .

وبلغت القافلة مدينة شورباك مدينة نوح ، المدينة التي ضل أهلها فغضب الإله عليهم وأوحى إلى نوح أن اصنع الفلك واحمل فيه من اتبعك ، ثم جاء الطوفان فغرق الكافرين .

وحطت القافلة في فناء المعبد ، ودار بين الناس حديث الطوفان الذي غمر البلاد من تسعة قرون ، كان الطوفان حقيقة نسجت حولها الأساطير .

— قررت الآلهة في مجتمعها هلاك ذرية البشر المفسدين ، وحمل الصالحين منهم في سفينة كبيرة ليبنوا بيوتهم في أماكن مطهرة ، وليشيدوا المعابد لإقامة الشرائع الإلهية .

استمر الطوفان سبعة أيام وسبع ليال واكتسح البلاد وكانت السفينة الضخمة تتقاذفها الأعاصير في المياه الجارفة ، وظهر إله الشمس الذي نشر ضوئه على السماء والأرض ، وفتح زيوسدرا (نوح) شبابكا في الفلك العظيم ، وأنفذ البطل إله الشمس أشعته في الفلك العظيم ، فسجد زيوسدرا للإله ، وذبح ثورا وكبشا .

— ألم تكن الملكية قد نزلت من السماء قبل الطوفان ؟

— نعم . أنزل التاج والعرش رمز الملكية من السماء . واكتملت العبادات والنواميس الإلهية المقدسة .

— لماذا غضبت الآلهة على البشر ، ما دامت هي التي أنزلت الملكية من السماء ، ورسمت للملوك النواميس والعبادات ؟
 — لأن الملوك انحرفوا عن طريق السماء ، وأغرقوا شعوبهم في الضلالات ، فكان على السماء أن تتدخل لتطهر الأرض من المفسدين ، حتى يرضى العباد الصالحون .
 فالتفت لوجال إلى آزر وقال :

— لقد ارتكبت الآلهة في مجتمعاتهم شرورا تفوق كل شرور الناس ؛ سفكت الدماء ، وهتك الأعراض ، واضطجعت الإلهات مع البشر . ويا ما أكثر الآلهة التي جاءت من سفاح ؛ فلماذا توأخذ الناس وتنسى أنفسهم ؟
 فهب آزر مفزوعا وقال لصديقه :
 — هذا فراق بيني وبينك يا لوجال .

وابتعد عنه مرعوبا ، وصوت أبيه ناحور يرن في أذنيه بالنبوة التي رآها في كبد الشاة ، نبوة انكفاء أصنام الآلهة على وجوهها ، فحقق قلبه واضطرب نفسه وجعل يتلفت في خوف ، خشية أن تصب عليهم الآلهة غضبها من السماء .

— بابل .. باب الله .. الإيساجيل .. معبد مردوخ .
وارتفعت الأصوات بالابتهاال إلى مردوخ رب الأرباب فقد
وصلت القافلة إلى أرض بابل ، ولاحت للعيون الأبراج الضخمة
الرابضة فوق أسوارها ، وبرج بابل المتسامى في كبرياء يعلن للملأ
أنه مزار مردوخ العظيم كبير آلهة البلاد .
وتقدم الرجال والنساء والعبيد والإماء على صفة الثهر في
خشوع وقلوبهم عامرة باليقين ، حتى لوجال طافت به موجة من
إيمان هزته وجعلته يشخص ببصره إلى البرج الذي يعرج إلى
السماء وهو خافق القلب يستشعر رهبة من المجهول ، من الغيب
الذي يخفي في جوفه أقدار الناس .
والتفت آزر إلى لوجال وقال :
— أريد أن أشتري أضحية قبل أن نذهب إلى الإيساجيل .
— إني شحنت أضحيتي من أور في قارب ، وقد فعل كثيرون
مثل ما فعلت .
— ستتكلف في نقلها مثل ثمنها .
— اتفقنا على أن ندفع ثلاثة شواقل من فضة ، لقاء نقل
ثلاثة ثيران وستين رأسا من الغنم .
— ثلاثة شواقل لرحلة واحدة ؟ !

— استأجرنا قارباً كبيراً حمولته ٦٠ جوراً .
 — مثل هذا القارب لا يزيد ثمنه على عشرين شاقلاً من فضة .
 — لا تنس أننا في الموسم يا آزر ، سعر النقل كسعر الشعير
 غير ثابت على مدار السنة . قد يصل ثمن الشعير في موسم الحصاد
 إلى شاقلٍ وثلثي شاقلٍ للجور ، أما في نهاية الموسم فيرتفع ثمنه
 إلى أكثر من ثلاثة شواقل ؛ وكذلك النقل يرتفع سعره في المواسم ،
 وعيد رأس السنة أهم موسم للنقل ، فما أكثر الوافدين إلى بابل في
 هذا العيد .

وقال آزر وهو يستخرج من جيبه سبيكة من الذهب :
 — أريد أن أستبدل هذه بفضة .
 — شاقل الذهب اليوم بعشرة شواقل من الفضة .
 فقال آزر في استياء :
 — كان شاقل الذهب في أور بأحد عشر شاقلاً من الفضة ؛
 فما أدراك أنه هنا بعشرة ؟

فقال لوجال وهو يبتسم في خبث :
 — إننا في الموسم يا عزيزي آزر ، وما قيمة شاقل من الفضة .
 في سبيل الإله العظيم ، سبائك الذهب التي تملكها كلها من فضله
 ومن فضل تماثيله التي تصنعها .
 — حقاً لقد باركت الآلهة في أصابعي وشرفني بأن أصنع
 تماثيل رب الأرباب في عيده الكبير .
 — إني ذاهب إلى المرفأ لتسلم أضحيتي وبضائعي .
 — بضائعك ؟

— شحنت بعض الشعير .. الشعير في سائر الأيام كالفضة في الأسواق ، أما في العيد فهو أفضل من الفضة ، سائبيعه وأشترى بشواقل الفضة جارية .

وصمت لوجال قليلاً ثم قال :

— ما أجمل الجوارى اللاتي يعرضن في سوق بابل في إديار العيد الكبير !

وهم بأن يذهب إلى حيث ترسو القوارب بالمرفأ لتسلم أضحيتيه وشعره ، بيد أنه ألقت إلى آزر وقال :

— أين ألقاك ؟

— سأذهب بعد أن أقدم قرباني إلى الـ « أوريجاللو » .

— آسف ، نسيت أنك ستكون في ضيافة الـ « أوريجاللو » ، هنيئاً لك ، فضيوف كبير الكهنة ينزلون المعبد على الرحب والسعة . فقال آزر في كبرياء :

— ما دمت في بابل فأنا في ضيافة رب الأرباب .

وانطلق لوجال وبعض من كانوا في القافلة إلى المرفأ لتسلم الأنعام التي حملوها في السفينة ، وتقدم آخرون ليدخلوا المدينة المقدسة مدينة كبير الآلهة مردوخ العظيم ، وراح أحد رجال الدين يرتل قصيدة الخليقة ويروى كيف انتصر مردوخ على تيامات إلهة الفضاء :

— اختلطت مياه « تيامات » البحر بمياه « أبسو » المحيط ، ومن ذلك الاختلاط ولدت الآلهة جميعاً .

ولم يرضيا عما أنجبا .. فقررا أن يحطماها جميعاً ...

— ٣١ —

حملت تيامات الأم الكراهية لأبنائها .
 أم الجميع خالقة الأشياء كلها ،
 جمعت أسلحتها التي لا تبارى ، وولدت أفاعى ضخمة ،
 حادة الأنياب لا قلب لها .
 استبدلت الدم بالسم في أجسادها ،
 وألبست الثنائين المخيفة ثوب الرعب ،
 وأمرت بتدفق الأفاعى والزواحف الوحشية .
 والوحوش الضارية والكلاب المزمجرة والرجال العقارب .
 وانخلع قلب الآلهة لما رأت تيامات وجيشها .
 وجاء مردوخ العظيم وقال : « أنا المنتقم .
 لأقيدن تيامات في الأغلال لنثقي الحياة لكم » .
 ودارت المعركة . وانتصر مردوخ على تيامات .
 وفي مجمع الآلهة توج مردوخ ربا للأرباب ، ملكا على جميع
 الآلهة .
 وأعلن مردوخ المنتصر عزمه على أن يعجن الطين بدمه ليخلق
 الإنسان .

واجتمعت الآلهة مرة أخرى . وأعلنت أسماء الحمسين .
 ومر الركب بالقلعة منطلقا إلى الطريق المقدس . ووقعت أعين
 الناس على بوابة عشتار وكانت رائعة غاية الروعة . فأخذوا
 يزعمونها في إعجاب : كانت مبنيين هائلين من الآجر . لكل مبنى
 باب من الأمام وآخر من الخلف وبينهما بهو . وقد زينت البوابة
 بصور حيوانات في صفوف أفقية . بلغ عددها قرابة خمسمائة

وسبعين ، لونت بألوانها الطبيعية فجاءت البوابة آية تخلب ألباب الناس .

وانساب الركب فى الطريق المقدس وكان من بلاطات مربعة من الحجر الجيرى .

وكان على كل من جانبيه جدار يبلغ سمكه سبعة أمتار ، تعلوه أبراج نحتت عليها صور سباع بارزة ، تبدو كأنها تنهيا للوثوب على من يقتحم الحرم .

وبلغ الركب الفناء الخارجى وكانت حوائطه مقسمة — على مسافات متساوية — بأعمدة مربعة حفرت فيها قنوات بالقرب من قواعدها وقسمها . وانساب الناس إلى الفناء الأوسط من إحدى البوابات الكثيرة المكففة بالبرونز ، وكان الفناء يزدان كذلك بأعمدة مربعة ، وفى نهاية البهو إلى الغرب كان هيكل مردوخ ، فما إن وقعت أعين الناس عليه حتى ضجوا بالدعاء والابتهاال .

وهمس الناس فى خشوع :

— قدس الأقداس .

كانوا يتوقون إلى الدخول للمثول بين يدى الإله العظيم ، ولكن لم يكن مسموحا بالدخول إلا للكهنة والأمير . وراح آزر يتلفت فرأى خارج قدس الأقداس مذبحا ذهبيا ، ورأى بجانبه مذبحا آخر كبيرا للذبح الماشية ، فتذكر زوجته إيمتالى وذلك الذى فى بطنها لم ير النور بعد . فذهب واشترى كبشا قدمه للكهان ليذبحه قربانا للآلهة لتبارك له فى زوجه وفى ذلك الذى فى بطنها .

وعاد آزر إلى الطريق المقدس واتجه شمالا إلى حيث تقع

« الزفوة » . وهى مبنى مكون من مصاطب مبنى بعضها فوق بعض ، تدق كلما علت . كانت أشبه بهرم مدرج قاعدته مربع طول ضلعه ٣٧٠ مترا ، يقوم فى وسطه مصطبة ضخمة طول ضلعها ١٧٠ مترا ، وفوقها مصطبة ثالثة . فرابعة فخامسة . حتى تبلغ المصاطب ثمان .

وعزم آزر أن يصعد إلى قمة « الزفوة » . فاتجه إلى طريق يدور صاعدا حول طبقات البرج ، وراح يرقى فيه حتى إذا بلغ منتصفه وجد غرفة بها مقاعد يستريح عليها من يريدون أن يلتفتوا أنفاسهم قبل أن يستأنفوا الصعود إلى القمة . إلى حيث المزار . جلس آزر يستريح ، وسرعان ما طاف بذهنه قول أبيه له : « أنت مبارك يا آزر ، سيكون لك شأن عظيم يا بنى . رأيت فى المنام أن نورا أضاء السماء قد خرج من صلبك .. اسمع نصيحتى يا بنى ، قدم الخضوع لإلهك كل يوم بالتضحيات والصلوات والبخور .. » . فلم يطق التريث حتى يسترد أنفاسه . فهو فى شوق ليصل إلى المزار ليقدم صلاته إلى رب الأبواب ويحرق بين يديه البخور ، إن الآلهة هناك فى السماء . وكلما عرج فى صعوده اقترب منها .

ونفض آزر واستأنف عروجه حتى إذا بلغ آخر طبقة وجد هيكلا كبيرا به سرير مزخرف . تقوم إلى جانبه مائدة من الذهب كان يعلم أن هذا المزار لا يمضى الليل فيه إلا امرأة قروية تختارها الإله من بين صونجاتها القادמות من الريف . فعزم على أن يتم صلاته قبل أن يسدل الليل أستاره ، فتلفت فرأى تمثالا لمردوخ (إبراهيم أبو الأنبياء)

موضوعا فى كوة ، فاتجه إليه وسجد له فى خشوع ، وراح يبتهل
إليه والدموع تسيل على خديه :

— يا إلهى ، يا من أنت أبى الذى ولدنى ، ساعدنى على الخروج
من الظلام إلى النور ، واغفر لى خطاياى فقد صدق الحكماء حين
قالوا :

لم يولد لأم طفل بلا خطيئة .

فالطفل الطاهر البرىء لم يشهد الوجود منذ القدم .

إلهى ! يا من أنت أبى الذى ولدنى ،

بارك لى فى إيمتالى ، فهى حاضرى ومستقبلى ،

وتقبل منى ما فى بطنها ، فإن هى وضعتها أنثى ،

فان فى ابنتى خلاصى .

إلهى ! يا من أنت أبى الذى ولدنى ،

أما إن جاء ما فى بطن إيمتالى ذكرا ،

كما رأى أبى فى وحيك إليه عندما نظر فى كبد الشاة ،

فاجعله يا إلهى مباركاً ، وأقبله خادماً من خدامك ،

كاهناً من كهانك ، مصداقاً لرويا أبى ، فقد رأى نوراً

يخرج من صلبى ينير السماء .

وتذكر ما رآه أبوه فى انكفاء الآلهة على وجوهها ، فقال وهو

ينشج بالبكاء :

— إلهى ! يا من أنت أبى الذى ولدنى ،

إن كان بك علينا غضب فارفع غضبك عنا ، وأوح إلينا

بما يرضيك فإننا مطيعون ، ولو أمرتنا أن نذبح أنفسنا قرباناً لك :

- ٣٥ -

إلهى ! يا من أنت أبى الذى ولدنى ،
بارك لنا فى أعمالنا فهى قررة أعيننا ،
وتقبل منا وطهر قلوبنا واهدنا وشرح صدورنا وزودنا
بملائكة ذوى سماء لطيفة خيرة .
واستشعر آزر راحة . فنهض وراح يهبط فى الطريق المنحدر
منشرح الصدر ، وانطلق إلى « أوريجاللو » كبير الكهنة ، وقدم
له نفسه ، فأمر « أوريجاللو » أن يؤخذ آزر إلى حجرته ليبقى
بها حتى يستدعى للاحتفال بعيد رب الأرباب الكبير .
واعتكف آزر فى حجرته يتطهر ويصلى ويدعو كبير الآلهة
أن يوفقه لأن يصنع له تمثالا يرضاه .
وجاء أول نيسان ومغص الطريق المقدس بالناس . وبمواكب
الآلهة التى جاءت من أنحاء بابل لتشارك فى عيد مردوخ رب
الأرباب ولتقدم له الولاء والخضوع ، وارتفعت أصوات الناس
بالابتهالات :
- إلهى ! قلعى ! اغفر لى . كن رحما يا إلهى واعف عني ...
إلهى استمع إلى تضرعى فانت حقا يا إلهى أبى ، من مثلك
يا إلهى يعفو عن سيئاتى ؟
وترتفع التوسلات ، ويصبح المعبد بالدعاء ، وتنهمر الدموع
من العيون ، ويقف الناس بالباب ينتظرون أن يأذن لهم
« أوريجاللو » بالدخول .
وانقضى أول نيسان ، وفى اليوم الثانى فى عمية الصبح استيقظ
« أوريجاللو » كبير الكهنة وطهر نفسه بماء النهر وارتدى ثوبا من

الكتان ، وانطلق إلى قدس الأقداس وحده . اتجه إلى الكوة المبظنة بالذهب التي وضع فيها تمثال مردوخ العظيم وتلا دعاء حارا . ثم خرج وفتح الأبواب فتدفق السحرة والمغنون إلى المعبد . وأطلق البخور وارتفعت الأصوات العذبة بالترتيلات . وقام السحرة بالطقوس والمراسيم وتقديم القرابين والشراب إلى الآلهة .

وانقضى اليوم : وفي اليوم التالي فعل الـ « أوريجاللو » ما فعله في اليوم الأول . وعقب غروب الشمس بثلاث ساعات أرسل في طلب ثلاثة صنّاع ونساج ليصنعوا تماثيلين للإله ، فجاء آزر وزملاؤه . وعكف آزر على صنع تمثال ارتفاعه سبع أصابع . وراح يعمل وهو قلق متوتر الأعصاب يرجو من كل قلبه أن يرضى الإله عما يفعل .

وحان وقت الغداء فقامم لآزر صدر نعيجة راح يلتهمه في سرعة ، ليستأنف عمله في مهمة نشاط .

راح آزر يصنع الأذنين الكبيرتين اللتين ترمزان إلى حكمة مردوخ . وصوت في أغواره يردد قول إله الحكمة له يوم نصب في مجمع الآلهة إلهة للآلهة : « أي بني ! ما الذي لا تعرفه وأستطيع أن أعلمك إياه ؟ إن كل ما أعرفه تعرفه أنت » .

وراح آزر يبتهل إلى مردوخ ويصنع تماثله :

— أي خالقي . بارك لي في عملي وتقبله مني ففيه قرة عيني .

وعكف على صنع الثعبان الذي يمسكه مردوخ في يسراه .

وراح الوقت يمر وآزر غارق في عمله لا يحس شيئا مما حوله ، حتى إذا ما أتم صنع التمثال دفعه إلى الصائغ ليزينه بالذهب

والأحجار الكريمة : ثم ليلبسه ثوبه الأحمر ويلقى حول وسطه
حزاما من سعف النخل .

وجاء اليوم الرابع يوم الاحتفال السرى . فدخل الـ « أوريجالو »
قدس الأقداس وبقي به ، كان ذلك قبل أن يتنفس الصبح بأربع
ساعات . وراح أحد السحرة يطهر المعبد ويرشه بماء جلب من بئر
الفرات ومن خزان دجلة .

ومر الوقت وأشرقت الشمس وانقضى على إشراقها ساعتان .
فجاء ساحر آخر وأخذ يطهر المعبد مرة أخرى ويمسح بيزيت الأرز
مصاريع الأبواب . ويمسح الحوائط بنجسم شاة قطع السيف رأسها
لتوه . وخرج الرجال إلى الخلاء يحمل أحدهما جسم الشاة ويحمل
الآخر رأسها . وانطلقا فألقيا بالجسم والرأس في الفرات .
وبقيا خارج أسوار المدينة المقدسة حتى ينتقضى العيد . فقد
دنستهما الذبيحة .

وبقي كبير الكهنة في قدس الأقداس حتى لا يتدنس بمشاهدة
المعبد في أثناء تطهيره . وبعد أن تمت مراسيم التطهير خرج
الـ « أوريجالو » مبعد الساعة الثالثة . واستدعى الموظفين التابعين له .
ثم انطلقوا في خشوع إلى الخزانة لاستحضار « السماء الذهبية » .

وارتفعت أصوات في الطريق المقدس . وترددت في أرجاء
المدينة المقدسة العتيقة همسات :

- الملك .. الملك .

كان الملك يتقدم في الطريق المقدس في موكب فخم وقد حمل
الكهنة أمامه تماثيل إله منطقته المحلي . ووصل الموكب الفخم إلى

فناء المعبد الرئيسي ، فبقى الملك وأخذ سائر الناس ينسحبون ، حتى إذا بقي الملك وحده ، خرج إليه الـ « أوريجاللو » من قدس الأقداس ، وخرج عنه شارات الملك والصوبلحان والحلقة والعصا ذات الأسنان والتاج ، ووضعت جميعا على مقعد أمام تمثال مردوخ ، ثم عاد إلى حيث كان الملك فضربه على خده ، ثم قاده إلى حضرة الإله في قدس الأقداس ، وشد أذنيه وجعله يركع ، فاطرق الملك رأسه في خشوع ثم راح يتلو :

— أنا لم أرتكب إثما يا سيد الأرضي ، أنا لم أهمل في شأن ألوهيتك .

أنا لم أحطم بابل ولم آمر بتفريقها .
أنا لم أززع أركان « الإيساجيل » ولم أنس طقوسه .
أنا لم أضرب زوارك على خدودهم ، ولم أسبب لهم مذلة .
لقد فاضت عنايتي على بابل ولم أهدم حوائطها .
فقال الـ « أوريجاللو » للملك :

— لا تخف . سيباركك بعل إلى الأبد ، وسيحطم أعدائك ويُدحر خصومك .

وغادر الملك الهيكل ، وسار الـ « أوريجاللو » بخطا ثقيلة ووجهه بامر إلى حيث وضع شارات الملك فعاد بها ، وألبس الملك التاج وأعاد إليه الصوبلحان والحلقة والعصا ذات الأسنان ، وضربه مرة أخرى على خده . ولم تتساقط دموع الملك لا وهو يبتهل إلى الإله ولا بعد أن ضربه الـ « أوريجاللو » على خده ، فساد المكان وجوم فذلك فال سبي ، علامة على أن الإله لم يتقبل الصلاة ولا ما نحر له

من قرابين ، وأنه غاضب ، وأن السنة ستكون سنة وبالك على الملك والمملكة .

وبعد الغروب ربط الأوريجاللو حزمة من أربعين قصبة بسعفة نخيل ، ووضعها في حفرة وسط الفناء الرئيسى للمعبد ، وسقاها بالعسل والقشدة والزيت ، وجيء بعجل سمين وذبح ، وأشعل الملك غصنا قربه من حزمة القصب فتأججت فيها النيران .

مر اليوم السابع من أيام العيد في لباس مردوخ ثيابه بين ترتيل المغنين وإطلاق البخور وصلوات الرهبان .

وفي اليوم الثامن أقبل الملك تخف به حاشيته ، ودخل الأوريجاللو معه إلى قدس الأقداس ، وحمل الملك تمثال الإله ، وكان هو صاحب الحق في وضعه على المحفة . وسار الموكب المقدس حتى إذا بلغ الفناء الرئيسى للمعبد توقف مردوخ بين الأستار ، في مذبح مقام في وسط الفناء الرئيسى .

وسمعت ضجة في الطريق المقدس : كانت مواكب آلهة مدن بابل كلها قادمة .. إنها في طريقها لتقديم ولائها لمردوخ العظيم : الإله سين ، والإله شماش ، والإلهة عشتار ، والإله بنجرسو ، وعشرات الآلهة الأخرى في المحفات . والكهنة يرتلون الصلوات ، والناس ينتهلون في حرارة ورجاء ، فقد فتحت أبواب السموات . لاستقبال الدعوات . كانت اللحظة من أخطر لحظات الحياة . ففي هذا اليوم المبارك تنقرر أقدار السنة . وكل ما يجرى فيها من أحداث إلى أن يأتى اليوم الثامن من نيسان من العام القابل .

وصلت الآلهة جميعا إلى الفناء الرئيسى للمعبد ، وارتفعت

الابتهاالات والدعوات وغنى المغنون وأطلق البخور ، وسالت العبرات وارتفع التحيب والنشيج .

وسار مردوخ وسار خلفه الآلهة جميعا ، حتى إذا بلغوا هيكلكم الأقدار ، الهيكلكم الذى يخط فيه مردوخ مصائر الناس ، وضع مردوخ وأطلق البخور وقام الكهنة بالطقوس والمراسيم ، ثم أخذ الملك بيد إلهه وحمله وسار ، وانطلقت الآلهة خلفه صفا صفا .

ترك المركب أبهاء المعبد وسار فى الطريق المقدس وقد غصص بالناس . فلما رأوا رب الأرباب والآلهة جميعا خلفه ، اضطربت قلوبهم رهبة وخروا ساجدين ، واستأنف المركب المقدس طريقه . فاتجه شمالا واجتاز بوابة عشتار حتى أوفى على الفرات .

كان ينتظر مقدم كبير الآلهة قارب مقدس ، وكانت قوارب أخرى تنتظر سائر الآلهة . ودخل مردوخ إله الآلهة وخالق البشر فى قاربه . ودخلت الآلهة الأخرى فى قواربها ، وراحت القوارب التى تحمل بعول بابل تتهادى على صفحة الفرات ، بين ترائيل المنشدين وغناء المغنين وصلوات الكهنة وابتهاالات الناس .

ووصلت القوارب إلى الشاطئ الآخر حيث يقوم « إميزور » ، معبد الصلوات . وأخذ الملك بيد مردوخ فحمله وخرج من قاربه ، وخرجت الآلهة الأخرى من قواربها لتسير خلفه صفا صفا :

وانطلق المركب المقدس إلى معبد الصلوات حيث وضع رب الأرباب ، ودخل عليه الآلهة إله فى إثر إله ، وكان كلما دخل عليه إله حياه فى رهبة وركع أمامه ، كانت التحية تنطلق من أفواه

الكهنة مضطربة مرتجفة ، وكانوا يركعون في خشوع وقد حبسوا الأنفاس !

وترك كبير الآلهة مع الآلهة الذين يمثلونه في البلدان ويستمدون منه سلطانهم ، وأغلقت الأبواب ، وجاء الناس من كل فج يحجون إلى الـ « إيزور » معبد الصلوات ، حيث اجتمع الآلهة جميعا في صعيد واحد يستمعون إلى نداءات البشر .

وراح الكهنة يعدون الصحف الرئيسية التي تقدم للآلهة : إن الناموس يقضى بتقديم واحد وعشرين خروفاً عمر كل منها سنتان . وأربع نعاج غذيت باللبن ، وخمس وعشرين نعجة من المرتبة الثانية ، وثورين شمينين . وعجل رضيع ، وثمانية حمالان . وستين طيرا من نوعين مختلفين ، وثلاث دجاجات . وسبع بطات . وأربعة خنازير من المستنقعات . وثلاث من بيض الدجاج ، وثلاث من بيض البط .

وأخذ كهنة آخرون يعدون الشراب في أواني الذهب . إن لعشار وحدها اثني عشر إناء من النبيذ المعصور . وليسين أو نانا إله القمر عشرة ، وللآلهة الأخرى أواني تختلف في العدد وإن كان شرابها جميعا من النبيذ ، ذلك في الغداء والعشاء . أما في الصباح فلا تشرب الآلهة إلا اللبن المصفى ، ويقدم لها في أواني من المرمر .

وركب آزر في قارب مع القاصدين إلى الـ « إيزور » ، وراح القارب يتمايل فوق مياه الفرات يكاد ينوء بالناس والناس ذاهلون عن الخطر المهدق بهم . فقد كانوا مشغولين بأهتهم . وبلغ القارب شاطئ معبد الصلاة وكان غاصا بالناس . فقفز إليه آزر

وجعل يشق طريقه ويلدفع الناس بمنكبيه حتى وقف أمام تمثال
لمردوخ قائم في مشكاة في الحائط ، فركع له وقال في حرارة :
— مولاي ! إن آثامى كثيرة وذنوبى عظيمة :

إلهى ! إن آثامى كثيرة وذنوبى عظيمة .

إلهى ! إن آثامى كثيرة وذنوبى عظيمة .

أيها الإله الذى أعرفه أو الذى لست أعرفه ! إن آثامى كثيرة
وذنوبى عظيمة .

أيها الآلهة التى أعرفها أو التى لست أعرفها ! إن آثامى كثيرة
وذنوبى عظيمة .

ألا فليخف الغضب في قلب مولاي .

ليهدأ الإله الذى أعرفه أو الذى لا أعرفه .

لتهدأ الإلهة التى أعرفها أو التى لست أعرفها .

أيها الإله اغفر ذنوبى ، فمن غيرك يغفر الذنوب ؟

أيها الإله اغفر ذنوبى فمن غيرك يغفر الذنوب ؟

أيها الآلهة التى أعرفها أو التى لست أعرفها ،

اغفر ذنوبى فمن غيرك يغفر الذنوب ؟

مرت أيام العيد والناس يحجون إلى الـ « إيزور » معبد الصلوات ،

وبدأ الهمس يسرى بين الناس فيرتسم الهلع على الوجوه وترتفع
حرارة الابتهالات وينبعث الدعاء من أعماق القلوب .

وجاء اليوم الحادى عشر من شهر نيسان آخر أيام العيد الكبير ،

قوفد الملك تحف به حاشيته والـ « أوريجاللو » والكهنة والمغنون ،

ودخل الملك وأخذ بيد مردوخ فحمله وسار ومن خلفه الآلهة جميعا

صفا صفا ...

وانطلق الركب المقدس إلى نهر الفرات ، وتهادت القوارب المقدسة على صفحة مائه ، واجتاز الركب بوابة عشتار ، وراح الناس يتطلعون إلى وجه الملك في إشفاق ويتهايمسون فيعلو وجوهمهم الرعب ، ويتلفتون في خوف كأنما ستنقض السماء عليهم أو سيخطفهم المجهول .

- وسار الركب في الطريق المقدس ، ولاح برج بابل شامخاً كأنما يتناول لينطح السماء . وعاد الموكب إلى المعبد من حيث بدأ ، ودخل الملك والـ «أوريجاللو» إلى قدس الأقداس : ووضع مردوخ في مشكاته المذهبة وركع الملك وأدى الصلاة ، ثم خرج وكبير الكهنة في أثره .

وخرجت الآلهة لتتفرق في البلاد بعد أن اجتمعت برب الأرباب وقدمت له الخضوع والولاء ، وعرفت ما كتبه للناس في لوح قدره .

وذهب لوجال إلى السوق وباع شعيره بشواقل كثيرة . واشترى جارية ، وتسلم من البائع ضماناً بعدم وجود عيوب بها ، ثم انطلق لينضم إلى القافلة العائدة إلى أور .

والتقى لوجال وآزر ، ولما رأى آزر الجارية قال له لوجال :
— اشتريتها بعشرة شواقل .

ثم ضحك وقال :

— وقد بعث جحشي بعشرين شاقلاً .

قال آزر وهو يبتسم :

— ٤٤ —

- أى أنك بئس الحنحش تشترى جاريتين .
وفهمها لوجال فقال :
— ولكنى لم أشتّر إلا جارية واحدة .
وظهرت وجه لوجال أنه تذكر شيئاً ، ورأى آزر شرود
فظفرته فقال له :
— فم تفكر ؟
— أسمعت ما همس به الناس ؟
قال آزر فى اهتمام :
— لا . وجم همسوا ؟
— قالوا إن الملك لم يبك وهو يصلّى للمردوخ . ولم تنهمر
دموعه لما ضربه الأورينجاللو على خده .
— وكيف عرف الناس ذلك ، إذا كان الملك والأورينجاللو
ونحدهما فى حضرة الإله ؟
— نزل بقلب كبير الكهنة رعب شديد ، خاف من غضب
الآلهة فأفضى إلى الكهنة المقربين بمخاوفه .
— ولم يحفظ الكهنة المقربون السر فباحوا به للمقربين منهم ؟
— هذا ما حدث ، وقد أفضى هؤلاء بالسر إلى المقربين
منهم فذاع النبأ بين الناس .
— ولكنى لم أسمع همس الناس .
— كنت مشغولاً فى صلّاتك .
— وشرد آزر وتذكر ما رآه أبوه فى كبد الأضحية ، لقد رأى
أن الآلهة جميعاً انكفأت على وجوهها فنزل بقلبه هم ثقيل ،

— 50 —

وانتشرت في صاره رهبة وغمغم :

— خطب نازل .

ولم يسمع لوجال ما يقول فسأله :

— ماذا تقول ؟

— خطب نازل .. لقد غضبت الآلهة علينا .. جمدت الدموع

في عينى الملك . لم يذرف الملك الدموع .. فسندرفها نحن ..
سنتين .. سنتاً لم .

ارتفع صراخ مولود في بيت آزر . فقد وضعت إيمتالي ما في
بطنها وجاء ذكرها . كان الليل حالك السواد ، وكان الضوء
المنبعث من المسرحه خافتا ، فالفتيلة الصغيرة الطافية فوق سطح
الزيت في الإناء الفخارى لا ترسل إلا نورا يجاهد أن يبدد فحمة
الليل الحائمة على أنفاسه ، بيد أن إيمتالي أحست نورا يغمر المكان
بعد أن خرج منها ما كان في أحشائها .

كانت قبل أن تضع حملها خائفة قلقة ، تخشى آلام الوضع
التي كان النسوة يسهبن في وصفها ، ولكنها عندما وضعت حملها
لم تستشعر ألما ؛ فقد طاف بها نعاس لذيذ واستيقظت منه على بكاء
وليدها . فمس أذنيها مس رقيقا كأعذب الألحان . وخفق قلبها
بالحنان . وتفتحت نفسها للحياة . لقد صار للحياة معنى آخر
وطعم آخر بعد أن نام وليدها إلى جوارها : معنى أعمق من المعنى
الذي كانت تفهمه يوم كانت حياتها كلها لآزر . وطعم ألد من
طعم الحياة يوم كانت تعيش في كنف زوجها بلا ولد .

ونامت في البيت الكبير مع وليدها وحدهما بعد أن انطلقت
الحارية إلى بيت ناحور لتخبره أن إيمتالي وضعت ذكرا . وليقوم
الحد بالصلاة شكرا للآلهة على ما أنعمت . فلم تحس وحشة بل
استشعرت أنسا وأمنا .

وطرقت الحارية باب ناحور ، وانفرج الباب عن جارية تفرك عينيها فقالت جارية آزر :

- أين السيد الكبير ؟

- نأثم في غرفته . ما الذى جاء بك الساعة ؟

ولم تحر الحارية جوابا ، وانطلقت في الدهليز القصير إلى فناء الدار الرئيسى حيث قامت حوله غرف الطبقة السفلى ، ثم اتجهت إلى السلم مارة بالأعمدة السامقة التى تتركز عليها الشرفة الخشبية التى تلور حول البيت من الداخل ، وراحت ترقى في الدرج حتى بلغت الشرفة التى تؤدى إلى غرف الطبقة الثانية .

واتجهت إلى غرفة السيد الكبير وطرقت الباب فى رفق ، ومرت لحظات ثم فتح الباب عن ناحور . كان حليق الرأس والحية لكأثما كان كاهنا من كهنة الآلهة ، وقد خلفت يد السنن آثارها فى وجهه وحول عينية ، فما إن وقعت عيناه على الحارية حتى قال :

- وضعت إيمتالى !

فهزت الحارية رأسها أن نعم .

- وضعت ذكرا !

وقالت الحارية فى فرح :

- لكأنه القمر .

ورفع ناحور عينيه إلى السماء ، كانت ليلة بلا قمر ولا نجوم فأحس انقباضا . كان يرجو أن يولد حفيده فى ليلة من الليالى التى يتجلى فيها الإله نانا ، فى ليلة يكتمل فيها بلدا ، ليكون لحفيده

نصيب من الخير العميم الذى يصيب المحظوظين ممن يولدون تحت عين إله القمر .

وأعاد عينيه إلى وجه الحارية وقال :

— عودى لسيدتك وقولى لها إني قادم .

وانصرفت الحارية ، ودخل الحد ليتطهر قبل أن ينطلق ليصلى لحفيده ويدعو الآلهة أن تباركه ، وأن يبالغ في الدعاء ليعوضه عن سوء الطالع الذى جعله يفد إلى الدنيا في يوم اختفت فيه الآلهة في القبة الزرقاء .

وانساب ناحور في سواد الليل إلى بيت ابنه وهو يفكر في اسم يطلقه عليه ، خطر بباله أن يسميه ناحور تخليدا لاسمه ، واستراح للفكرة فراح يوسع من خطوه ليعلن بذلك الاسم أمام الآلهة ، ويتوسل إليها أن يكون مباركا .

وبلغ ناحور بيت ابنه ، ولم يصعد إلى الطبقة العليا حيث ترقد إيمتلى وحفيده بل عرج إلى معبد الدار الخاص ، كان غرفة مستطيلة ضيقة يتوسطها مصلى ومحراب ، وتحت بلاطها قبو يدفن فيه موتى الأسرة .

ركع ناحور أمام تمثال إله القمر وراح يصلى في خشوع ويدعو ويتنهل :

— أيها الأب نانا ، إني أذرف الدموع لعظمتك .

حتى يرق لنا قلبك وتقف إلى جانبنا .

إن ابني آزر أيها الإله العظيم قد أنجب ولدا ،

وإني أسميه ناحور وأهبه لك ،

فاجعل سيد الحكمة يهبه قبسا من حكمته ، ويطعمه من
« طعام الحياة » ،

ويسقيه يا إلهي من « ماء الحياة » .

أيها الأب نانا يسره. لما يرضيك ، واحفظه من أن يتردى في
العالم السفلي ، ولا تكتب عليه أن يذهب إلى « الأرض التي لا رجعة
منها » . أنت عادل أيها الأب العظيم ، وقد وهبته لك فتقبله خادما
للسماء المقدسة ، خادما للآلهة ، وامنحه يا إلهي اللبسة المقدسة التي
منحتها لأبيه ، حتى يصنع لعظمتك ولعظمة البعول الكرام تماثيل
ترضى عنها ، ويرضى عنها السادة الآلهة في السماء .

واستغرق ناحور في الركوع وإطلاق البخور حتى بعث إله
الشمس شهاب أشعته فغمرت المعبد ، وتعلق البخور بها فبدت
كستائر شفافة من الفضة ، فنهض وانطلق إلى الطبقة العليا حيث
ترقد إيمتالي ووليدها .

وألقي على إيمتالي تحية رقيقة ، ثم مال وحمل حنيدته ورفع
وقبله ، ثم عاد يتفرس في وجهه ويقول :

— سميت ناحور ، وصليت للآلهة عسى أن تتقبله بقبول حسن ؟

فقالت إيمتالي وهي تتحاي أن تلتقي عيناها بعينه :

— ناحور اسم عزيز علينا ، حبيب إلى قلوبنا ، ولكن ...

— ولكن ماذا ؟

فقالت في ارتباك :

— كنا اتفقنا أنا وآزر أن نطلق اسم ناحور على أول أولادنا

الذكور .

(لإبراهيم أبو الأنبياء)

— وما الذى حدث ؟

— جاعنى هاتف فى المنام وقال لى سمية « إبراهيم » .

وساد الصمت بينهما برهة وقالت إيمتالى :

— هذه مشيئة الآلهة . سائسميه « إبراهيم » ، وسائسمى أول

مولود ذكر أضعه بعده « ناحور » . فناحور اسم غال عندنا ، وسائسمى الذى بعده « هاران » تبركا باسم عمه الحبيب .

وشرد ناحور يفكر ، فمعنى « إبراهيم » أبو القبائل ..

أبو الأمم . وقد رأى فى منامه أن نورا خرج من صلب ابنه أضاء السماء . وها هى ذى إيمتالى تسمع فى منامها هاتفها يدعوها أن تسمى ولدها « إبراهيم » ، أن تسميه أبا الأمم ، فتهللت أساريره وانقشعت من صدره موجة الأسى التى طافت به لما أعرضت إيمتالى عن اسمه . إنه رأى رؤيا ورأت إيمتالى رؤيا . فقال فى ابتهاج :

— « إبراهيم » اسم عظيم .

ونظر إلى حفيده الذى كان لا يزال بين يديه نظرة طويلة .

ثم قال :

— سيكون لك شأن عظيم مع الآلهة ، سيقترن اسمك بالسماء ،

سيتألق نجمك فى القبة الزرقاء .

وخرج ناحور منشرح الصدر ليقدم للآلهة قربانا اعترافا

بفضلها ، وشكرا على النعمة التى أنعمت بها على آله ، وفداء

للوليد الذى رأى أول ما رأى فى يومه الأول نور شماش إله النور .

ومرت على إيمتالى أيام وهى سعيدة بإبراهيم ، متلهفة على عودة

آزر ليرى ابنه الحبيب .

و ذات ليلة دخلت الحارثية على سيدتها فرحة وقالت :

— وصلت القافلة القادمة من بابل ، وعما قليل سيكون سيدى
هنا .

ونَهَضت إيمتالى تزين وتنأهب لاستقبال الزوج الغائب ،
فمشطت شعرها وجعدته من أمام ليموج على جبينها ، وتركت
ذوائبه تتهدل على كتفيها ، وارتدت قميصا طويلا ، وزينت
معصمها بأسورة ، ثم استبقت إلى الباب ترقب محي زوجها .

وصعد آزر فى الدرج الداخلى وهو ينظر إلى أعلى ؛ كان
الظلام دامسا فقد كان نور المسرحية التى تضىء داخل الدار خافتا
واهنا ، وعلى الرغم من الظلام فقد رأى زوجته بعين بصيرته ،
فراح يهرول فى الدرج حتى بلغها واحتواها بين ذراعيه . ودخلا
معا لتقص إيمتالى على زوجها كيف وضعت وليدها ، وكيف جاءها
هاتف فى المنام يأمرها أن تدعوه إبراهيم .

وعاد آزر إلى صنع تماثيل الآلهة وبيعها فى الأسواق ، وكان
وحيدا ، وكان يجد مشقة فى الجمع بين صنع تماثيله والخروج
لعرضها على الناس أمام معبد الإله نانا ، فراح يتعجل مرور
الزمن ليشب إبراهيم ويعاونه فى بيع تماثيل الآلهة التى يخلقها يديه .
وجاء لوجال يزور صديقه ويهنئه بالمولود ، فاجتمعا فى غرفة
الاستقبال المقابلة للدخل الدار ، ودار الحديث بينهما فقال لوجال
وهو يدنو برأسه من آزر :

— تذكر أنى عرضت عليك ونحن فى الطريق أن نكوّن شركة

معا ، وأن يكون لكل منا نصيب على الشيوخ في الفضة والتجارة والعبيد والإماء ، وأن تتسع معاملاتنا فتشمل الخارج والداخل .

— تعلم يا لوجال أنى لا أمتلك مالا .

— سيكون رأس مال الشركة مينا واحدا من الفضة (٥٠٥ جم) .

— أنا لا أستطيع أن أدفع نصف هذا القدر .

فقال لوجال لصاحبه وهو يتسم :

— أنت تملك هذا البيت ، أليس كذلك ؟

— نعم .

— يمكنك أن تقترض المبلغ من معبد الإله نانا بضمين هذا

البيت .

— وفائدة المبلغ ؟

— تسدد من الأرباح .

— وما الذى يضطرنى إلى هذا ؟ أنا رجل قانع .. أنا سعيد

بحياتى هذه .

— أنت فى حاجة إلى مال كثير يا آزر .

— ماذا أفعل به ؟

فرمقه لوجال بنظرة خبيثة وقال :

— لماذا لم تعين كاهنا فى معبد إله القمر يا آزر ؟

— لأننى لست من أبناء الأمراء ، ولأن الفأل لم يرشحنى لأن

أكون كاهنا .

وضحك لوجال ضحكة ممدودة وقال :

— الفأل ؟ ! أتصدق هذا يا آزر ؟ إنك لم تصبح كاهنا لأنك

لا تملك المال الذى يرفعك إلى مرتبة الكهانة .

فقال آزر فى فزع :

— اسكت يا لوجال .. أنت كافر .. كافر .

ولم يمسك لوجال لسانه واستمر يقول :

— لو أنك دفعت للأورنجاللو فى بابل مالا وفيرا لكان الفأل

اجتارك ، ولكنت اليوم كاهنا أو كاهنا أكبر للإله نانا .

فقال آزر وهو يضع سبابته فى أذنيه حتى لا يسمع ما يقوله

صديقه فى حق الآلهة :

— اسكت يا كافر .. لو لم تكن صديق لوشيت بك ..

— هذه هى الحقيقة يا آزر ، ولكنك لا تحب أن ترى الحقيقة :

إنها تجارة .. بل أروج تجارة فى بابل . لو عرف غنى الصلاح

الذى عرف عنك لوضعت كل ما أملك ، بل لاستندت من

الأصدقاء ومن المعابد لأضع مبلغا ضخما فى يد الأورنجاللو ليجعل

الآلهة فى مجمعها تختارنى لأكون كاهنا من كبار كهنة الهياكل ،

لأصبح شخصية هامة تتدفق شواقل الذهب والفضة إلى خزانتي ؛

ولكنى فاسق يا آزر ، وإنى أدفع الآن ثمن ذلك الفسوق ، وأبحث

عن مورد آخر لأكسب مالا يرفع قدرى ، ويجعلنى أهلا لأن

أدعى لحفلات الملك واحتفالات رجال الدين :

— لن أشاركك أبدا يا لوجال .

— لماذا ؟

— لأن تجارتك ستبور ، لن تباركها الآلهة .

— أنت واهم يا آزر ، الآلهة لا تبارك إلا تجارة الفاسقين لأن

الدنيا لهم ، تلفت يا عزيزى فى أور وقل لى : من من الصالحين يملك مالا ؟

فقال آزر فى حماس :

— الملك ورجال الدين .

فجز لوجال على نواجهه وقال :

— يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى ، لو قلت رأيي قبهم

فلن تقوم لشركتنا التى أرجوها قائمة أبدا :

— ولماذا تصر على أن تكون بيننا شركة ؟

— تعودت أن أصارك يا آزر ، أنا لا أملك بيتا ولا أرضا

ولا شيئا يمكن أن يضمّن الدين الذى أقترضه ؛ ولكنى أملك

الموهبة والتجارب والمهارة ، مالك مع موهبتى .. هذه هى

الشركة .

— ألم تقل لى إن رأس مال الشركة مین من الفضة ؟

— ستدفع أنت نصف مین وتقدر جهلى بنصف مین :

— لا بد من وجود صك مكتوب يعين الواجبات المفروضة

عليك يا لوجال .

— هات لوحا نكتب فيه الشروط .

وأحضر آزر لوحا من طين لم يجف بعد ، وأحضر قلم سنه

مثلث الشكل ، وقدمهما إلى لوجال ، فشرّد لوجال قليلا ثم بدأ

يكتب وهو يردد ما يكتبه :

— رأس مال الشركة مین من الفضة ، يقدم آزر نصف مین ،

ويقدر جهد لوجال بنصف مین ، وعلى لوجال عند عودته من

— •• —

ورحلته أن يقدم لآزر ما دفعه في رأس المال مقابل إيصال بذلك ،
وأن يقدم له كذلك نصف الأرباح ، وأن يحتجز لنفسه النصف
الآخر . ويتحمل آزر مصاريف الرحلة :

فقاطعه آزر :

— نتحمل مصاريف الرحلة مناصفة :

— ولو أن هذا يخالف العرف التجارى في بابل ، فاني أقبل
ذلك لأنك صديقي ...

— وإن قمت بصفقات غير مربحة ؟

— تتحمل وجدك الخسارة .

— حتى ولو كان ذلك بسبب إهمالك أو سوء تصرفك ؟

— إن جاءت الخسارة نتيجة إهمالي أو سوء تصرفي كان على
أن أعيد إليك ما دفعته مضاعفا : هذا هو العرف التجارى ،
أما إذا ضاع المال بسبب سوء الأمن في الطرق أو لأسباب قهرية
أخرى فاني لا أدفع شيئا :

— وما أدراني أن المال قد فقد بأسباب قهرية ؟

— سأقسم بذلك أمام الآلهة :

فابتسم آزر ابتسامة هازئة وقال :

— لكأنك مؤمن بها . ما أيسر القسم الكاذب على من كان

كافرا مثلك :

— ألا تثق بي يا آزر ؟

— إنى أثق بك يا لوجال ، وإن كان غريبا أن يثق مؤمن

يكافر . أفضل أن تكون الشركة بيننا بالتضامن ، أنت تدفع

نصف رأس المال وأنا أدفع النصف الآخر .

— ومن أين لي نصف من من الفضة ؟

— تستطيع أن تقترضه يا لوجال .

— ومصاريف الرحلة ؟

— من العدل أن أتحمّلها وحدي ونقتسم الأرباح والخسائر

بالتساوى ، وإذا صفيت الشركة فلإنها تصبى تصفية عامة من قش

التبن إلى الذهب :

فقال لوجال في حماسة :

— اتفقنا :

— وإن رأيت أن أرسل عبدا من عبيدي معك ؟

— تتكفل بطعامه وشرابه وملبسه .

— ولكنه ليس في خدمتي ، إنه في خدمة الشركة ، فعلى

الشركة أن تتكفل بطعامه وملبسه .

فضحك لوجال وقال :

— دم التجارة يجرى في عروقك يا آزر وإن كنت صانع

تماثيل الآلهة .

— الدم الذي يجرى في عروقي دم مردوخ العظيم ، منذ أن

خلط دمه بالطين وخلقنا ودماؤه تجرى في عروقنا ، إنى أعجب

يا لوجال كيف أن دم الإله يجرى فيك وترتكب كل هذه المعاصي

والآثام .

فقال لوجال ساخرا :

— إنى لا أرتكب المعاصي بدمي ، بل أرتكبها بنصيب الطين الذي في .

وشرد آزر برهة ، وظل لوجال يرمقه ويحترم صمته ، حتى بان في وجه آزر الانفعال وقال :

— طافت برأسى أمنية :

— ما هى ؟

— أن تستمر الشركة بيننا وتزدهر حتى يشب إبراهيم ويذهب معك إلى بلاد المعادن وأخشاب الأرز والأحجار الكريمة . لم أر من بلاد الدنيا غير أور وبابل وما بينهما ؛ ولكنى أرجو أن يرى ابنى العالم ، أن يذهب جنوبا وشمالا وشرقا وغربا .
— وما الذى يربطك بالأرض يا آزر ؟ تعال معى ما دمت تتوق إلى زيارة الدنيا .

— لا أطيق البعد عن أرض الآلهة أبدا . لو انقضى يوم دون أن أصلى فى المعبد فإنى لا أحسبه من عمرى .
— هيا نحرر العقد ونوقعه ، ونبتهل إلى الآلهة أن تمد فى عمره حتى يرثه إبراهيم وإخوته ، وابنى نور شماش وإخوته ؛
ورمقه آزر فى دهش وقال :

— أنت محبّر يا لوجال ، تسخر من الآلهة وتسمى ابنك نور شماش ، ثم لا تفتأ تذكر الابتهاال إلى الآلهة ؟
— أنا مؤمن يا آزر ، وإن كان إيمانى يختلف عن إيمان الكثيرين ، أنا مؤمن متحرر .

— ما دمت مؤمنا يا صديقى فهيا إلى المعبد نقسم بمردوخ وشماش ونانا أننا سنخلص لهذه الشركة ، ونوقع العقد أمام السبعة عشر شاهدا من الكهنة الأطهار ؟

— ٥٨ —

— هيا يا آزر ، وإن كنت لا أثق أن الكهنة الشهود من
الأطهار .

ورمقه آزر في عتاب ، ثم انطلقا إلى معبد نانا ليؤسسا شركة
للتجارة في الشعير والعبيد والإماء ، تعمل في داخل البلاد
مؤخارجها .

ومرت الأيام ووضعت إيمتالى ولدين ذكرين ، فأوقت
 بوعدها للسيد الكبير وسمت أكبرهما « ناحور » وسمت الآخر
 « هاران » تيمنا باسم عمه الحبيب . وشب إبراهيم وراح يتجول
 في البيت ، يمرح في الشرفة التي تفتح عليها أبواب غرف الطبقة
 العليا ، ويهبط في الدرج إلى فناء الدار الداخلى الذى تطل عليه
 نوافذ البيت ، ويذهب إلى حيث يجلس أبوه يصنع تماثيل الآلهة .
 كان يمضى أغلب وقته يرصد أباه وهو ينشر الخشب ويشكله
 في مهارة عجيبة . كان يصنع في الغالب تماثلا على هيئة إنسان إلا
 أن أذنيه كبيرتان ، وكان ذلك الإنسان يحمل السلاح المقدس
 ويربض تحت قدميه وحش ، وكان بعد أن ينتهى من صنعه يضع
 على رأس التمثال تاجا ، ويلبسه رداء كاهن أكبر تصنعه أمه ،
 وكان يلف حول وسطه حزاما من سعف النخل :

إنه يذكر أنه قال لأبيه مرة :

— إن أذنيه كبيرتان يا أبى ، أكبر من آذاننا ؟

— إنه مردوخ رب الأرباب يا بنى ، وهاتان الأذنان الكبيرتان

ترمزان إلى فهمه العميق .

ونظر إلى التمثال الذى بين يديه أبوه وزنت في أذنيه مقالته :

« فهمه العميق .. فهمه العميق » . ولم يفهم إبراهيم شيئا فقد كان

لا يزال حدثا ، وكان غاية ما يفهمه أن أباه يصنع دى للعب
والعبث !

ورأى أباه يصنع تماثيل لأناس يجلسون على كراسى ، وأناس
يحملون حرابا ، ورآه مرة يصنع تمثالا لسيدة فقال له :
- من هذه يا أبى ؟

- هذه عشتار ، عشتار الغضوب ، عشتار العطوف .
ولم يقل عشتار إلهة اللذة ، فما كان يدرى بعد ما اللذة وما الألم
وفى ذات يوم رآه يصنع عرشا وتاجا فقال :
- ومن هذا يا أبى ؟

- هذا الإله إنليل ، هذا الذى أحدث الطوفان الذى رويت
لك قصته .

- لم أفهم يا أبى لماذا أغرق البلاد وأهلك الناس ؟
- لأن الناس ضلوا ، أفسدوا فى الأرض .. عصوا الآلهة .
ولم يفهم الصلة بين الآلهة وتلك التماثيل التى يصنعها أبوه بيديه
ويشكلها كيف يشاء . يدق على رءوسها بقدمه ، وقد يشق
أحدها شقا ، أو يدق عنقه إذا لم تعجبه صناعته .

ودخل معبد الدار فرأى محرابا فى وسطه ، ورأى التماثيل
التي صنعها أبوه بيديه . وقد ثارت دهشته لما رأى أباه يركع
للتماثيل التى ابتدعها فنه ، وزادت دهشته لما رأى جده يفعل
ما يفعله أبوه . وبلغ عجبه منتهاه لما رأى أمه تفعل ما يفعله أبوه
وجده .

وذابت يوم لم يستطع أن يكتّم ما يدور برأسه ، فذنا من أبيه

- ٦١ -

بعد أن أتم صلاته وقال له :

— لماذا تركع يا أبى لهذه التماثيل ؟

— لأنها الآلهة التى خلقتنا ؟

— أنت الذى صنعتها يا أبى بيديك . أنت الذى تخلقها كل

يوم !

— لا يا إبراهيم . أنا أصنع رموزا للآلهة أجسمها لأعين الناس :

أما الآلهة فهى فى السماء جالسة على عروشها .

ودنا آزر من إبراهيم وضمه إلى صدره فى حنان وقال له :

— أتذكر كوكب المشتري الذى كان فى السماء . ليلة كنا

جالسين فوق سطح الدار ؟

— أذكره يا أبتاه .

— هذا هو كبير الآلهة . مردوخ العظيم رب الأرباب .

وأشار الأب إلى تمثال مردوخ وقال :

— هذا التمثال الذى صنعته إن هو إلا رمز لكبير الآلهة .

ولاح فى وجه إبراهيم أنه لا يفهم ما يقوله أبوه . واستمر

آزر فى حديثه :

— أرأيت القمر يا إبراهيم ؟

— نعم يا أبت .

— إنه إله أور .. إله مدينتنا يا إبراهيم . إنه الإله نانا ، وفى

بعض البلاد الأخرى الإله سين .

وأشار إلى تمثال من التماثيل التى صنعها وقال :

— هذا التمثال الذى صنعته إن هو إلا رمز له .

ثم قال في هدوء :

— أ رأيت الشمس يا إبراهيم ؟

ولم يدعه إبراهيم يتم مقالته ، وسأله :

— ولماذا تعبد يا أبى كل هذه الآلهة ؟

— لأنها هي التي خلقتنا ورزقتنا وأسبلت حمايتها علينا .

فشرد إبراهيم قليلا وقال :

— ومن الذي خلق هذه الآلهة يا أبتاه ؟

فراح آزر يرتل في إيمان :

— حين لم تكن السماء العلا قد سميت بعد ،

ولم يكن للأرض من تحتها اسم بعد ،

اختلطت المياه من أبسو الأزلى أبيهم ،

ومن تيامات الصاخبة أم الجميع ، فاتحدنا .

وحين لم تكن الأجسام قد نبتت بعد ، ولم تكن غياض القصب

قد عرفت طريقها إلى الوجود ،

وحين لم يكن هناك إله له اسم ،

وحين لم يكن هناك قنر مرسوم ،

منخلقت الآلهة .

نظر إبراهيم إلى أبيه طويلا ، ولم تقبل فطرته السليمة ذلك

التفسير ، كانت بنور الشك قد ألقيت في أغوار نفسه بيد أنه

لم يكن يدرى بعد ما يقول . قال له أبوه :

— عندما تكبر يا بنى وتتسع مداركك ، ويمنحك الإله

مردوخ نعمة الفهم ، فستلرك أسرار الآلهة :

وصمت الأب قليلاً ثم قال :

— غدا آخذك معى إلى المعبد ، وبعد غد نذهب إلى جدك
ناحور ليعلمك الحساب والنظر فى النجوم .

فلما كان الغد خرج آزر وإبراهيم وانطلقا إلى معبد الإله نانا
إله القمر ، فلما بلغا حرم المدينة — البقعة المقدسة بها — راح
إبراهيم يتلفت . كان الحرم المقدس فسيحاً ، طوله أربعائة ذراع
وعرضه مائتا ذراع ، وقام على قاعدة مرتفعة فى الزاوية الغربية
منه الزقوة ، البرج المدرج ، أعظم مباني المدينة ارتفاعاً .

رفع إبراهيم بصره ينظر إلى البرج الشاهق . فرأى عند قمته
شيئاً لم يستطع أن يبينه فقال لأبيه :

— ما هذا الذى عند قمة البرج يا أبت ؟

فقال آزر فى زهو :

— هذا مزار الإله نانا .

— ولماذا بنى المزار على هذا الارتفاع الشاهق ؟

إننا فى الأصل من الجبال يا إبراهيم ، وكان آلهتنا يعيشون على
قمم الجبال . فلما جئنا إلى هذه السهول لم نجد مرتفعات ، فبنينا
هذه الأبراج وجعلنا مزارات الآلهة عند قممها . إن هذا برج
عظيم يا بنى ، ولكن إذا كبرت وصرت رجلاً وقلدت لك الآفة
الذهاب إلى بابل ، فسترى برجا يليق بمقام رب الأرباب .

ورأى إبراهيم عند قاعدة الزقوة ساحة واسعة تحيط بها غرف
كثيرة . فقال لأبيه :

— وما هذه الغرف يا أبتاه ؟

— هذه مخازن المعبد يا بنى .

ورأى عندها بعض الفلاحين يجلبون على ظهور الحمير الحبوب والزيت والسمن والحب والخلود والصوف والكتان ، ورأى أناسا من المدينة يجلبون الأقمشة والملابس . إنها النذور التى نذروها للإله نانا ! راحوا يقدمون النذور إلى كهنة المعبد ، فكان الكهنة يأخذونها منهم فيزنونها ويدونونها فى سجل قبل أن تنقل إلى المخازن ، ثم يحرقون بها ليصلا على لوحة طينية ، تحفظ منه نسخة فى سجلات المعبد . وتسلم نسخة للذين يوفون بنذورهم .

سار إبراهيم بخطى وثيدة يمد بصره إلى كل شىء ، فوقعت عيناه على رصيف قريب من المعبد يقع على رأس قناة ، وقد رست على الرصيف سفن مجهزة بالأخشاب والذهب والنحاس والأحجار الكريمة والبخور .

ولفت إبراهيم نظر أبيه إلى تلك السفن ، فقال آزر وهو يتسم ابتسامة رضا :

— هذه يا بنى هدايا المعبد ونذور الناس .

وارتفعت ضوضاء الناس وهم يتصايحون ويتدافعون ويتزاحمون لتقديم الهدايا للإله نانا .

ورأى إبراهيم فوق مدخل الفناء الذى يضم مخازن المعبد بناء ذا طبقتين ، وفطن آزر إلى أن ابنه يقلب وجهه فى ذلك البناء فقال له :

— هذه مساكن موظفى المعبد .

— كل هذه الغرف لموظفى المعبد ؟

— إنهم يمارسون فيها أعمالهم .

— أعمالهم ؟ !

— أعمالهم أجل نشأنا من أعمال الدولة ، فاللولة تخدم الناس أما موظفو المعبد فيخدمون الآلهة . الملك نفسه خادِم من خدام المعبد ، فهو يوم بناء المعبد يحمل على رأسه وعاء الملاط ، ويقدم القرايين للآلهة ويرجو مخلصاً أن تتقبلها منه .
— إنها غرف كثيرة .

— إنها غرف كبير الكهنة ، والكهنة ، ومدير أملاك المعبد ، ورئيس الحرم ، والكتبة .

وشرد آزر قليلاً ؛ كانت أمنيته أن يكون كاهناً من هؤلاء الكهنة الذين أسعدهم الحظ أن يكرسوا حياتهم لخدمة الآلهة ، ولكن الفأل لم يحقق له أغلى أمنية راودت خياله . ورن في ضميره صوت صديقه لوجال وهو يقول له : « لو دفعت للأوربجالو الثمن لكنت الآن كاهناً أو كبيراً للكهنة » . وضايقه أن تطوف بذهنه مثل هذه الأقوال الفاجرة ، فراح يجاهد أن يمحو من ذهنه هذه الخواطر التي تقلقه وتجعله يتلفت مرعوباً خشية أن تبطش به الآلهة .

ورأى إبراهيم العاهرات المقدسات جالسات في الطريق المقدس يغزلن الصوف وينسجنه ، فقال لأبيه وهو ينظر إليهن :

— من هؤلاء يا أبت ؟

— هؤلاء اللاتي وهبن أنفسهن لخدمة الآلهة .

وسارا إلى الفناء الداخلي فإذا بمعبد نانا أمامهما . كان أشبه بالقلعة بجدرانها السميكة وأبراجه المحصنة ، ويقابله معبد زوجته (إبراهيم أبو الأنبياء)

تنكال ، ثم يقوم بعد ذلك المزار المشترك والطريق المقدس الذي
يفضى إلى قدس الأقداس .

وملأت خياشيم إبراهيم روائح لحم يطهى ، فراح يتلفت
فوقعت عيناه على مطبخ المعبد حيث تطهى الضحايا ، وعلى المخازن
ومحال تسخين المياه والمناضد الحجرية التى تقطع عليها الذبائح .
ودخل معبد إله القمر خلف أبيه ، فألقى نفسه فى ساحة واسعة
زينت جذرائها بنقوش من الفسيفساء محلاة بالذهب والفضة والرمرد
والفيروز والمرجان ، ووقعت عيناه على كوة كسيت بالذهب وقام
فيها تمثال لا يكاد يفترق عن التماثيل التى يصنعها أبوه . كان لرجل
جالس على عرشه يحمل فى يده الفأس وسلسلة القياس .

وبين الدهشة والعجب رأى الناس يركعون للتمثال فى خشوع ،
وزاد عجبه لما رأى أباه يتقدم من التمثال فى إيمان ويهمس فى صوت
متهدج :

— الإله نانا إله القمر . اركع يا إبراهيم .

وركع آزر ووقف إبراهيم منتصباً يتلفت . رأى أباه يذرف
الدموع وهو يبتهل ويتوسل ، ورأى رجالاً ونساء ييكون وعبراتهم
تخفقهم ، وعجب من أن يجرى كل ذلك أمام تمثال من التماثيل التى
كان أبوه هذا الصباح يصنع مثلها ، ويدق رءوسها بقدمه ،
ويلبسها من الأثواب التى تصنعها أمه .

وخطر بذهنه الصافى أن الفلاحين الذين وفدوا من كل فج
من البلاد يحملون الخيرات إلى مخازن المعبد إنما وفدوا من أجل
هذا الصنم ، وأن أهل المدينة الذين جاءوا بالملابس وشواقل الفضة

إنما جاءوا بهذه الهدايا لهذا الصنم . وأن السفن الكبيرة الراسية على رصيف المعبد والتي تحمل الحبوب والأخشاب والأنعام وكل ما تنبت الأرض من خيرات . ما وفدت بالنور إلا تقربا من هذا الصنم . وبذرت في نفسه الطاهرة بذرة سوف تتعدها الأيام بالرعاية والسقيا حتى تزدهر وتثمر .

اجتمع في ساحة المعبد « العاميلو » الأحرار و « المسكينو » أبناء الطبقة المتوسطة والعبيد : الرجال والنساء .. الشيوخ والعجائز والشبان والولدان ؛ كانوا جميعا يركعون أمام تمثال نانا . إلا إبراهيم فقد وقف شامخ الرأس يرنو إلى كل ما يجري حوله بعينين مفتوحتين وقلب سليم وذهن لمّاح .
وبلغ أذنيه صلاة أبيه فأرھف السمع . كان يبتهل إلى صنم مردوخ :

— إلهي ! مثلما فسدت مصائر ما صنعت يداك .

ورزقتها الحبز لتأكل ، وباركتها وقبلت منها قرايينها ،
فبارك لي يا إلهي فيما صنعت يداي ،
وتقبله مني قرايين لعظمة ألوهيتك .

أدار عينيه في التآليل الكثيرة القائمة في المعبد ، وولدت في ذهنه فكرة لم تكن واضحة ، كانت بعد مغلفة بضباب كثيف ، كانت بعد خيطة رفيعة مضيئا لسؤال سوف يتضح رويدا رويدا حتى يتألق النور ويبهـر ذهنه : أى هذه الأصنام قادر على أن يستجيب لدعاء أبيه ؟

وأتم آزر صلاته ودعائه وتوسلاته وابتهالاته ، وجفف ما بقي

في عينيه من دموع ، ثم ذهب إلى حيث وقف إبراهيم وقال له وهو يشير إلى تمثال مردوخ :

— اذهب يا بني واركع لكبير الآلهة « رب الأرباب » ملك الملوك :

فدار إبراهيم على عقبيه وغادر المعبد مهرولا ، وانطلق أبوه في أثره حتى لحق به في فناء الحرم المقدس بالقرب من الزقوة برج نانا الصرح المدرج ، وقال له :

— لماذا لم تركع لكبير الآلهة يا إبراهيم ؟

نظر إبراهيم إلى أبيه نظرة طويلة ولم يجر جوابا ، فقال له آزر :
— لا تزال صغيرا يا بني ، إنى عندما ركعت أمام رب الأرباب وابتهلت إليه في حرارة سالت دموعي وألثي في روعي أن سيكون لك يا إبراهيم شأن عظيم مع الآلهة ، ومع مردوخ كبيرهم العظيم .

وانطلقا حتى إذا بلغا الفناء الخارجى ولاحت لهما البوابة التي تقود إلى الحرم المقدس ، قال آزر وقد شرد ببصره كأنما يحلم ، أو كأنما يحاول أن يرى المستقبل :

— أترى هذه البوابة يا إبراهيم ؟

فهز إبراهيم رأسه أن نعم ، فقال آزر في نبرات حاملة :

— عندما تكبر يا إبراهيم ستقف عند هذه البوابة ، وتبئع للناس تماثيل الآلهة التي أصنعها .. وستباركك الآلهة يا بني .

وارتسمت على وجه آزر إشراقة أمل وتفاؤل ، ولم يبد على وجه إبراهيم الاقتناء .

خرج إبراهيم إلى شوارع أور ؛ كان في طريقه إلى بيت جده ليتعلم النحو واللغة والحساب والفلك والنظر في النجوم . لقد خلف وراءه المعبد والبرج والحرم المقدس وسار بين الحقول والحدائق يخلدق في الغادين والرائحين .

رأى التلاميذ في طريقهم إلى مدارسهم وكانوا من أبناء « العاميلو » ، أبناء الحكام والوجهاء والسفراء والمشرفين على المعابد وضباط الجيش والبحرية وموظفي الضرائب والكهنة .. أبناء الأغنياء القادرين على دفع تكاليف التعليم . وهم يلتحقون بعد أن يتخرجوا في مدارسهم بخدمة المعبد والقصر وخدمة الأغنياء ؛ لم يشعر إبراهيم بخوهم بالحسد ؛ فقد كان يحس في قرارة نفسه على الرغم من أنه ما يزال صبيا أنه قادر على أن يكون شيئا وإن لم يلتحق بمدرسة من المدارس الكثيرة المنتشرة في أور .

ورأى بعض رجال الجيش في طريقهم إلى معسكراتهم ، وكانت وظائف الجيش الكبيرة وقفا على « أبناء العاميلو » ، أبناء الطبقة الأرستقراطية .. كانوا يؤلفون كتائب الأسلحة الثقيلة ، أما أبناء « المسكينو » أبناء الطبقة المتوسطة فقد كانوا يقومون بالخدمة في المعسكرات ، وقد يؤلفون بعض الكتائب التي تزود بالأسلحة الخفيفة ، أما العبيد فلم يكن لهم شرف الخدمة العسكرية ؛

نظر إلى ضباط الجيش المنطلقين إلى معسكراتهم مرفوعي
الرؤوس يخطرون في زهو في ملابسهم الرسمية ، ولم يحلم أن
يكون واحدا منهم بل خطر بذهنه أن يتولى قيادتهم ، على الرغم
من أنه سمع من أبيه أكثر من مرة أن الملك هو الذي يتولى القيادة
بنفسه ؛ لأنه ظلّ إله الحرب في الأرض ، بل لأنه إله الحرب
نفسه .

وسار في طريقه يتلفت يرقب التجار وهم في طريقهم إلى
الأسواق والموانئ ، والفلاحين وهم يعملون في الحقول ، ويتأمل
الزراع والأشجار والدواب والأنعام والطيور ، ويقلب وجهه
في السماء ويمد بصره إلى الأفق البعيد ؛ كان شغوفاً بأن يتعرف على
الكون العجيب الذي يعيش فيه .

وبلغ بيت جده وصعد في الدرج إلى الطبقة الثانية حيث يعيش
ناحور . ودخل عليه فألفاه يمس عينيه بمرهم هو مزيج من خلاصة
النحاس الخام والحنة :
قال ناحور لحفيده :

— عيناى اليوم متعبتان يا إبراهيم ، فلن أستطيع أن أكتب لك
لوحة لتكتب مثله ، ولكنى سأقص عليك ما أعرفه عن النجوم ،
ومما علمك كيف تنظر فيها .

وراح ناحور يروى لإبراهيم أن عدد النجوم يبلغ واحداً
وسبعين نجماً ، وأن هذه النجوم مقسمة إلى ثلاث مجاميع يحكم كل
مجموعة أحد الآلهة العظام ؛ فثم ثلاثة وثلاثون نجماً للإنليل ، وثلاثة
وعشرون لأونو ، وخمسة عشر لـ «أيا» .

وراح يعلمه أسماء الشهور والعلاقة بين الشهور ومولد القمر واختفائه ، ومتى تكون السنة ثلاثة عشر شهرا ، ومتى تكون أربعة عشر ، وكيف يحدد أول يوم من نيسان الشهر المقدس ، شهر العيد الكبير عيد مردوخ العظيم .

تعلم إبراهيم على جده الكتابة بأقلام القصب على ألواح الطين ، وتعلم المقاييس والموازين ، والعلاقة بين الذراع ، والقدم وذى العشرين إصبعاً ، واليد المفتوحة ذات الخمس عشرة إصبعاً ، ويد البناء ذات العشر الأصابع .

عرف إبراهيم أن « يد البناء » عشر أصابع . وأن اليد المفتوحة خمس عشرة إصبعاً ، وأن القدم عشرون إصبعاً ، وأن الذراع ثلاثون إصبعاً ، وأن القصبة ست أذرع ، وعرف وحدات قياس المساحة والمكاييل من « الجور » المالكى إلى « قا » . وعرف الموازين من القمحة والشاقل الصغير إلى المين والوزنة .

وكان أكثر ما يسمعه من جده عن التنجيم واللاهوت ؟ فعرف من جده ومن أبيه أن السعيد من رضى عنه الآلهة . وأن الشقي من غضبت عليه ، وأن لكل موطن إلهاً حارساً يسكن جسده ، فإذا ارتكب العبد ما يغضب الإله تخلى عنه الإله وترك جسده لتسكنه الأرواح الشريرة . التى تجر معها المصائب والنكبات والشقاء المقيم .

وعلمه جده أن السحر هو الذى يطرد الأرواح الشريرة . وأن رضا الآلهة يكتسب من جديد بالصلاة والتضحيات والتطهر ، وأن الآلهة حين خلقت البشر جعلت الموت نهاية حياة الإنسان .

وأن الفرق بين الآلهة والبشر أن البشر يموتون أما الآلهة فلهم وحدهم الخلود ، وأن البشر يذهبون عقب الموت إلى العالم السفلى ، إلى الأرض التي لا رجعة منها ، وأن الهدف من الصلاة هو إطالة عمر الإنسان ليسعد بطيبات الحياة قبل أن يذوق الموت ، وكم سمع أباه وجده ينتهلان إلى نانا إله القمر : « خلصنى يا إلهى من الإثم ، وامنحنى الحياة أياما طويلة » .

وعلمه جده أن ظل الميت يغادر جسده عقب الموت ويتحول إلى روح شريرة تنضم إلى طبقة الأشرار ، وهى لا تستريح إلا إذا دفنت الحثة ، وأن على أهل الميت أن يقدموا له طعام القربان مرة كل شهر اتقاء لأذاه .

وعلمه جده أن الميت إذا مات دفن وحده ، أما إذا مات الملك فيتعين أن يدفن معه جميع أفراد حاشيته من زوجات وضباط وجنود وخدم وموسيقين ، يهبطون جميعا إلى قبر الملك حيث يقيمون الطقوس والمراسيم الدينية ، ثم يتناولون السم ، وبعد ذلك يمال التراب عليهم وعلى أوانيهم وأسلحتهم ، وقيثاراتهم ومزاميرهم ، وخناجرهم المطعمة بالذهب والفضة ، وأدوات زينتهم ، وكل نادر ونفيس مما كانوا يستخدمونه قبل أن يكتب عليهم الموت بموت ملكهم الإله .

تعلم إبراهيم من جده ناحور ومن أبيه آزر ومن أمه إسمتلى ومن عمه هاران معتقدات قومه ، ورشف من حضارتهم ، بيد أنه لم يأخذ ما تعلم على أنه حقيقة لا تقبل المناقشة ، بل كان يمحس ما يسمع وما يرى بعقله الذى كان يفتتح على مر الأيام .

وقد استطاع إبراهيم بتأملاته أن يربط بين نفسه وبين الكون الذى يعيش فيه ، وأن يستريح إلى التعاطف والصدقة والمحبة التى بدأت أوامرها تربط بينه وبين كل ما ينبض حوله بالحياة .

وعاد إبراهيم ذات يوم إلى الدار قبل الموعد الذى اعتاد أن يعود فيه منذ أصبح يتردد على بيت جده ، فألقى أباه عاكفا على صنع تمثال لعشتار ، بصورها وهى تقف على أسدين وتلبس جعبة السهام ، وفى إحدى يديها سلاح مقوس ، وفى الأخرى صولجان يتكون من عصا يتفرع منها سلاحان مقوسان ، فى قمة كل منهما رأس أسد . كان التمثال لا يرمز إلى الإلهة المتقلبة التى تغزى البشر بعك كئوس اللذة ، بل يرمز إلى عشتار إلهة الحرب . لوى إبراهيم شفته السفلى زراية ، فما كان عقله يسبح أن تكون امرأة ذكرا فى الصباح وأنثى فى المساء ، وأن تكون إلهة للذة وفى نفس الوقت إلهة للحرب . وعجب إبراهيم لأن هذا التمثال الذى يمثل المرأة التى لا هم لها إلا غواية البشر هو أكثر التماثيل رواجاً بين الناس ، فمحبوها لا يحصيهم العد .

رفع آزر رأسه عن التمثال وقال :

— جئت مبكرا اليوم يا بنى .

— جدى مريض يا أبت .

وذهبت إيمتالى وآزر وإبراهيم لعيادة ناحور ، فوجدوا عنده هاران وزوجه ، وقد جاء له بكاهن يرتل للآلهة أن يكون بها غضب عليه وارتفع صوت الكاهن يتلو :

— حين خلق أنو وإنليل وأيا السماء والأرض ..

وغلب إبراهيم النعاس فنام ، ولم يستيقظ إلا على صوت أمه تناديه :

- إبراهيم إبراهيم ! قم .. إنا ذاهبون .
ونفض إبراهيم وسار مع أمه ، وما ابتعدا خطوات حتى
هرعت الحارية إلى إيمتلى وقالت لها وهى تتلفت :
- لقد كثرت الصراصير فى البيت منذ أن مرض سيدى .
ولاح الخوف فى وجه إيمتلى ، ونظر إبراهيم إلى أمه وإلى
الحارية وهو مدهوش لا يفهم شيئا ، ثم قال :
- ماذا تعنى يا أماه ؟

فقال إيمتلى فى صوت خافت متهدج :
- إن كثرة الصراصير فى البيت فأل سبى يا بنى .
ولحق آزر بزوجه وابنه وقال :
- لقد اتفقنا مع الكاهن على أن يقدم فى المنجر ثلاث أضحيات
للبعول الكبار أنور وإنليل وأيا .
فقال إيمتلى :
- حسنا فعلتم .

ولم ينبس إبراهيم بكلمة وقال آزر :
- بعد أن تقدم الأضحيات ويرضى الآلهة ، يصبح أبى بارثا .
وقدمت الأضحيات إلى البعول الكبار ، وضرب الكاهن
على الطبول المقدسة وغنى تمجيدا لإنليل ، وصلى وابتهل وحرق
البخور استعطافا للآلهة ، وراح يدعوها أن تطيل أيام ناحور الصالح
ليقدم إليها القرابين والأعمال الصالحة .

وأصبح الصباح ، وخف آزر وإيمتلى وإبراهيم لعبادة المريض .

كان آزر متفائلا بعد ما أجرى من طقوس لاسترضاء الآلهة . وكانت إيمتلى شاردة تفكر في الصراصير الكثيرة التى ملأت بيت الشيخ ناحور ؛ وكان إبراهيم يجاهد ليستبين سبب الحيرة التى تملكته ، فثم سؤال يفرض نفسه عليه : لماذا يولد الإنسان ولماذا يموت ؟

وراح الثلاثة يصعدون في الدرج ليلعبوا غرفة المريض وقد لاح في وجوههم القلق ، كان آزر - على الرغم من تفاؤله الذى أبداه في الصباح - مشفقا على أبيه أن يدوق الموت الذى ينقله إلى العالم السفلى ، إلى الأرض التى لا رجعة منها ؛ وكانت إيمتلى تخشى أن يتحقق الفأل السيئ الذى أعلن عنه تكاثر الصراصير في جنبات الدار ؛ وكان إبراهيم حزينا واجبا فقد توطدت الصداقة بينه وبين جده ، حتى لتغمره السعادة ما كان معه ، وإن كان عقله يرفض كثيرا من الأساطير التى يقصها عليه .

ودخلوا على ناحور فالفوه مسجى في فراشه وقد أطبق جفنيه وعلت الصفرة وجهه . فوقف آزر عند رأسه ووقف إبراهيم عن كذب يرنو إليه وهو يأسر الوجه .

وفتح ناحور عينيه فرأى إبراهيم فأشار إليه أن يقترب ، فتقدم إبراهيم منه ، فرفع ناحور ذراعه ووضع يده على رأس حفيده ، وتذكر الرؤيا التى رآها . رؤيا آزر وقد خرج من صلبه عمود نور أضاء السماء . أحس في تلك اللحظة أن إبراهيم

هو النور الذى سيظهر القبة الزرقاء . واستشعر ناحور جهدا فأعاد ذراعه إلى جواره ، وهو ميهور النفس لا يقوى أن يفتح عينيه . وعلى الرغم من أن طقوس الكاهن وأضحياته لم يظهر لها أثر ، فقد جاءوا بكاهن آخر قال بعد أن رأى المريض :
— أريد خنزيرا من المستنقعات ، وسبعة أرغفة سوّيت تحت الرماد .

وانطلق آزر ليحضر الخنزير ، وذهبت إيمتالى والحارية وزوجة هاران ليسوّين الأرغفة تحت الرماد ، وبقي هاران مع الكاهن : أما إبراهيم فذهب بعيدا يقلب وجهه فى السماء . وعاد آزر بالخنزير ، وجاءت الحارية تحمل الأرغفة السبعة ، وقال الكاهن :

— على بالموقد والمشعل .

وجيء بالموقد والمشعل ، وذبح الكاهن الخنزير وقسمه إلى ستة أجزاء وضعها على ناحور ، وجاء بقلب الخنزير ووضعها إلى جنب فراشه ، ثم غسل ناحور بالماء المقدس .

وجيء بتمثال لمردوخ رب الأرباب ، وألقى البخور فى الموقد ، وراح الكاهن يتلو فى صوت أقرب إلى الغناء :
— الخنزير فداء لناحور .

اللحم عوض عن لحمه ،

والدم عوض عن دمه ،

اجعل الشياطين تتقبل ،

القلب الذى وضعته إلى جنب فراشه .

وامنحه إياه عوضاً عن قلبه ، ولتقبله .

وذهب الكاهن إلى الباب فأغلقه مرتين كأنما يغلقه في وجه الشياطين التي تقبلت الفداء ، ووضع السبعة الأرغفة التي سويت تحت الرماد بالقرب من الباب المغلق ، وأمر أن ترفع في الفجر عندما يبدأ الإله نانا رحلته اليومية .

وانقضت أيام ولم يبرأ ناحور من مرضه ، فجئ به عرفاء يستقروا الأواني ويرى إن كان سيشفى أو سيذهب إلى الأرض التي لا رجعة منها .

وجاء العراف وكان حليق الشعر والحية يرتدي إزاراً أبيض ، وكانت عيناه واسعتين يشع منهما بريق ، وطلب إناء به ماء وآخر به بعض الزيت .

وجيء بالإنائين ، وراح العراف يقرأ على إناء الماء ، ثم سكب فيه نقطة من الزيت . وأخذ يحدق في نقطة الزيت وفي حركتها وتشكلها على سطح الماء ، كأنما تركزت قواه كلها في عينيه .

وتعلقت العيون بوجه العراف تحاول أن تقرأ الانفعالات التي ترسم عليه ، وأن تستشف ما يرى قبل أن تنطق به شفتاه : الجارية تقف في الشرفة التي تطل على فناء الدار الداخلي ترصد وجه العراف في اهتمام وقد حبست أنفاسها ، وإيمتالي أمامها ، وزوجة العم هاران بالقرب من زوجها ؛ أما آزر فقد جلس على حافة فراش أبيه المسجى ، الذي لا يلرى مما حوله شيئاً .
ومس أذنى الجارية خفق جناحين فالتفتت نحو الصوت ،

فاذا صقر يحوم في فناء الدار ثم يرتفع وينطلق بعيدا . وخفق قلبها في خوف ، فدخل طائر جارح البيت ثم خرج منه نذير بموت صاحبه .

وقطب العراف جبينه ونهض ، ثم قال وهو يهز رأسه أسفا :
— سيموت .

وساد المكان سكون رهيب ، ولاحت الدموع في أعين النسوة ، وظهر القهر في وجه آزر . وتملك اليأس هاران ، فقد عجز الطبيب وأخفق الكاهن في إرضاء الآلهة فلم تقبل القرابين والأضحيات التي أريق دمه . وأكد المنجمون والعرافون أن أيام ناحور على الأرض قليلة ، وأنه قد آن أوان نزوله إلى العالم السفلي : إلى الأرض التي لا رجعة منها .

وجلس إبراهيم وحده في غرفة الاستقبال المواجهة لباب الدار يفكر في الحياة والموت ، وفي الطقوس التي جرت في بيت جده منذ أول يوم مرض فيه الشيخ ، وفي الآلهة الكثيرة التي توسل إليها الكهنة أن تطيل أبهم ناحور على الأرض ، وفي الموت والعالم السفلي الذي لا رجعة منه .

ومات ناحور .

ونخف أبناؤه لتجهيزه والإسراع بدفنه ، لا تكرما له بل خشية منه فإنه إن تركت جثته في الدار مدة فإن ظله الذي غادر جسده يتحول إلى روح شريرة « اديمو » تنضم إلى الأشرار ، ولا تستقر ولا تستريح طالما أن الجثة لم تدفن .

وكثر الحديث عن بيت الظلام ، البيت الذي لا يخرج منه من

يدخله . إنه مكان مسور بسبعة حوائط ، فى كل حائط بوابة عظيمة ، والمكان غارق فى الظلام كأنه ليل سرمد ، والموتى فيه يرتدون ثيابا من ريش الطيور ، ويأكلون التراب ويتغذون بالطين .

وفى بيت الظلام يسكن الحكام الذين لم يرتفعوا إلى مرتبة الآلهة ، والكهان والسحرة والأنبياء والبشر جميعا ؛ فريق تأكلهم الديدان كما تأكل الثياب الحلقة ، وفريق يملأ التراب آناهم وأعينهم وبطونهم ، بيد أن ثم فريقا يتكئون على السرر ويسقون شرابا طهورا .

وقبر ناحور ، وعاد أهل بيته يحيون حياتهم اليومية ، إلا إبراهيم فإنه ظل يفكر فى الآلهة ، وفى الأصنام التى يصنعها أبوه بيديه ويركع لها الكهنة والسحرة والمنجمون وملوك الأرض وعامة الناس ، وفى بيت الظلام ، وفى الحياة المهيبة التى يحياها الموتى حتى الصالحون منهم . وإن كانوا يتكئون على السرر ويشربون ماء طهورا .

راح إبراهيم يفكر في موت جده ناحور ، وفي الكاهن الذي تقاضى سبع أوان من الخمر ، وأربعمائة وعشرين رغيفا ، ومائة وعشرين قان من الحبوب ، ورداء وجديا وسريرا ، ثمنا لموارة جثته في التراب .

واشتغل فكره بالكهنة الآخرين الذين قربوا القرابين إلى الأصنام استعطافا للآلهة لتطيل أيام ناحور ، وأولئك الذين نظروا في النجوم وأولئك الذين استخاروا الأواني . لقد تقاضوا لقاء أعمالهم شواقل كثيرة من الفضة ، وجورا كثيرة من الشعر ، ورءوسا كثيرة من الماعز والغنم . وثار في نفسه سؤال : أيمكن أن يكون هؤلاء عبادا مخلصين لآلهة عظام ، أم أنهم إنما يتخذون من الدين تجارة ؟

- وبذرت في نفسه بذور الشك ، ولم يستطع البقاء في الدار فانطلق إلى معبد نانا يرقب أعمال رجال الدين عن كذب بعينين مفتوحتين ، فما كان يحب أن يقطع برأى قبل أن يتثبت ويتحقق . سار في شوارع أور ، في شوارع المدينة التي تتنفس الدين والطقوس ، وتتردد في جنباتها التساييح للآلهة العظام الذين يلتقون في مجتمعهم ويقررون ما يشاءون . وراح يفكر في عشرات الآلهة التي تسيطر على الكون والحياة ،

شأنها أن تبرم أمرا وتقضى قضاء أو تحكم حكما ينفذ في عبادها من البشر .

ولاح له معبد نانا وبرجه العالى . فسار والشاطىء فرأى جمعا من الناس فيهم بعض الكهنة ، فوسع من خطوة حتى بلغ الزحام فإذا الكهنة يوثقون رجلا وامرأة بالحبال ليلقوا بهما في النهر ، فقد ضبطا متلبسين بالزنا .

وألقى نفسه يتفرس في وجوه الكهنة أصحاب الرؤوس الخليفة ، وتطوف برأسه أسئلة : أهؤلاء الكهنة الذين يدفعون بالزاني والزانية إلى الماء أطهار بررة ؟ ألم يرتكب أحدهم مثل هذه المعصية ؟ أهم أهل حق لأن يدينوا الناس ؟

ولم يقتنع بما رأى فدار على عقبيه وانطلق ، فاذا به يرى العاهرات المقدسات يجلسن على جانبي الطريق المقدس . ورحالا تشع الشهوة من أعينهم يلقون في حجورهن شواقل المفضة فما يكون منهن إلا أن ينهضن ويتبعنهم !

واشتد عجب إبراهيم لهذه المفارقات : فتيات يرتكبن الفواحش باسم الآلهة فيصبحن مقدسات . وفتيات يضبطن متلبسات بالزنا فيلقى بهن في الماء . وهمس في نفسه هامس : ولكن من يلقي بهن في الماء متزوجات . وإذا بصوت يرن في نفسه : إن من يثور على الزنا ينبغي أن يثور عليه ، سواء أكانت مرتكبته متزوجة أم عاهرة .. أم تخدوعة باسم الآلهة . الفاحشة هي الفاحشة . فلا ينبغي أن تقدس إذا ارتكبت باسم عشتار .. وأن تلتطخ بالعار إذا ارتكبت باسم الشيطان .

(إبراهيم أبو الأنبياء)

عشتار ! عشتار ! كيف يمكن أن ترتفع إلى مرتبة الآلهة ؟
 إن لها في كل يوم عشيقا : تميز إله الإنبات عشيقها ، جلجامش
 البطل الإنسان عشيقها . إنها وهى الإلهه اضطجعت مع رجال من
 البشر .. لماذا لا يثور الآلهة لكرامتهم التى تهلرها عشتار كل يوم ،
 فيوثقونها هى وعشاقها بالحبال ويلقون بهم فى النهر ؟ ألم يشرع
 الآلهة هذا العقاب لمن يضبط مثلنسا بالنزنا ؟ فلماذا إذن لا يوقع على
 عشتار وعشاقها وهى ترتكب الفواحش تحت نظر الآلهة جميعا ؟
 وبلغ الفناء المقدس حيث مخازن الآلهة فوجد حركة نشيطة ،
 كان فى الفناء المقدس جمع من رجال القصر ورجال المعبد ،
 فاقترب ليشهد ويسمع .

كانت إيرادات المعبد توزع بين رجال القصر ورجال الدين ؛
 وضعت الأسلاب من الشعر والفواكه والملابس على ظهور
 الحمير . وراح كل يقبض نصيبه من الأنعام والأغنام والخنازير ،
 حتى الملك والإيشاكو الكاهن الأعظم والأوريجاللو . كان لهم نصيب
 من الهدايا التى يهبها المخلوعون فى الآلهة للمعبد .

ولكى تخرس السنة رجال الملك ورجال الإيشاكو ورجال
 الأمن ؛ راح الكهنة يوزعون عليهم الشعر والملابس والقماش
 والمعز والطيور . كان الكهنة يبذلون لهؤلاء عن طيب خاطر
 ويعطونهم عن رضا . فذلك ييسر لهم الظلم ، ويضمن لهم السلامة
 إذا فرضوا الجور على الشعب .

رأى إبراهيم بعينه ما رفض أن يراه أبوه آزر ، وسمع أمورا
 تدين الكهنة تفوق فى قسوتها ما قاله لوجال فى رجال الدين فاثار

غضب أزر حتى قال لصديقه : لولا ما بيننا من صداقة لوشيت بك ! . وهز إبراهيم رأسه سخرية : هؤلاء هم الذين يقطعون يد السارق ، ويقوم عليهم الدين !

ودخل المعبد فإذا بتماثيل ضخمة من الحجارة لمردوخ ونانا وشماش وعشتار وعشرات الآلهة الأخرى . وإذا بتماثيل للملك في مشكاة تقدم لها فروض التمجيد الإلهي ، فقد رفع الملك نفسه إلى مصاف الآلهة . وقال إنه إله الملوك جميعا .

وراح يقلب وجهه في التماثيل : إن أباه يصنع مثلها . وهذه التماثيل جميعا من صنع أناس مثل أبيه ، فمن أين لهم أن يقرروا أنها تمثل الآلهة حقا ما دام أن أحدا من البشر لم ير هؤلاء الآلهة ؟ ! وأحس في قرارة نفسه أنه ينكر هذه الأصنام . ووقعت عباد على الأغذية والأشربة المكدسة أمام التماثيل : عشتار لها ثمانية عشر إناء للشرب ، ومردوخ له اثنا عشر ، وتشرب الآلهة جميعا لبنا في الصباح . أتستطيع هذه الأحجار حقا أن تأكل وتشرب ؟ إذا كان الملك يتناول طعامه في كل معبد من المعابد : فكيف يستطيع أن يأكل في قصره مع وزرائه وحاشيته وندمائه ؟ هذه الآلهة نهمة لا تشبع ، تأكل في بابل ، وتأكل في أور . وتأكل في كارشماش (قلعة شماش) ، وسيبار . وفي كل معبد من المعابد الكثيرة المنتشرة في أنحاء المملكة ، أم أن هذه دعوى ادعاها الملوك والكهان ؟ !

وملأت خياشيمه رائحة البخور ورأى دخانه المتصاعد . وطالما رأى ذلك الدخان . ولكنه يراه اليوم سحبا تتكاثف على

عقول الناس ، وأستارا تنسدل على أعينهم .
عجب هؤلاء الرجال والنساء الذين يتقدمون من التماثيل في
خشوع ، ويذرفون بين أيديها الدموع السخينة ، ويلتمسون الرضا
من الأحجار والأوثان ؟ ! كيف آمن أبوه آزر وعمه هاران وجده
ناحور ، وآباؤهم من قبلهم ، بهذه التماثيل التي لا تملك لنفسها نفعاً
ولا ضراً ؟ !

وخرج من المعبد إلى الطريق المقدس الذي جلست على جانبيه
العاهرات ، واجتاز الباب الذي يلفظ إلى الطريق العام وهو
يتلفت ، يحاول أن ينفذ إلى سر ذلك الكون العجيب .

ومد بصره ناحية الجنوب الغربي وهو لا يدري ما يجثم وراء
ما يصل إليه بصره . لقد قال له أبوه وجده وأمه ، وقال له كل
من سألته إن هناك صحراء جرداء مليئة بالشياطين والأشباح ،
وقد أكد له الجميع تلك الحقيقة بيد أن عقله أبى أن يقتنع بها ،
فقد اهتدى عقله إلى أن كثيراً مما يقولون أساطير وأوهام .

وهنت نفسه إلى تلك الصحراء ، وتمنى أن يضرب فيها ،
أن يكشف عن وجهها اللثام ، أن يعرف أسرارها ، فقد كان
توفاً إلى استكناه حقائق الأشياء .

ورأى قافلة تتأهب للمسير بحذاء ساحل البحر الأعلى ، بحر
الشمس الغاربة العظيم متجهة إلى دلتا النيل ، فعزم في نفسه أن يخرج
يوماً — عندما يشتد عوده ويصبح رجلاً يستطيع أن يجوب الأرض —
مع قافلة من تلك القوافل ، كما يجوبها الآن شريك أبيه لوجال :
وراح يقلب وجهه في السماء ، ويمد بصره إلى البحار والأنهار

والسهول والجبال ، والحدائق التى اكتست ثوب الربيع والحقول
التي اخضرت بالزرع ، والطيور التي حومت في الفضاء ، وقطعان
الماشية والأنعام ، والناس من شيوخ وعجائز وشبان وشابات
وبنين وبنات ، فهمس في نفسه هامس : هذا الكون لا بد له من
خالق ، من إله واحد قوى قادر ، فلو كان له أكثر من إله لذهب
كل إله بما خلق ، وفسد هذا النظام البديع الذي يسود الكون .

هذه الشمس تشرق من الشرق وتغرب في الغرب ، وهذا
القمر يظهر في السماء هلالا صغيرا لا يزال يكبر حتى يكتمل بدرا
ثم يبدأ في الصغر حتى يختفي فيتم بذلك شهر ، وهذه الفصول تتابع
لا الصيف يسبق الخريف ولا الشتاء يأتي في أوان الصيف . نظام
دقيق دبره صانع حكيم لا يمكن أن يكون واحدا من تلك المماثل
العاجزة . إن لهذا الكون ربا قادرا ، ولكن من يكون ذلك الرب ؟

وانطلق وهو في رفقة ذاته يفكر ويمعن الفكر حتى وصل
إلى حقل منحه الملك للإيشاكو الكاهن الأعظم ، فرأى ثيران
الآلهة تستخدم في رى الأرض ، والكهنة يقطفون الفاكهة من
أشجار جيرانهم ويستولون عليها ، فإذا ما ظهر الغضب في أعين
أصحاب الأرض قيل لهم إن ما يؤخذ منهم إنما يؤخذ للآلهة لتبارك
لهم في أرضهم ومحاصيلهم وذريتهم ، فيزول الغضب عنهم وتتهلل
وجوههم بالبشر والحبور .

وطاف بذهنه خاطر : لابد أن تحرر عقول هؤلاء الضحايا
من عبودية الكهنة ، أن تفتح أعينهم على حقيقة ضلالتهم وفسادهم
أن يثوروا على الأصنام التي لا تنفعهم ولكن تضرهم . فباسمها

تسلب منهم أشياءهم لتمتلي خزائن الملك والإيشاكو والكهنة ،
وتفرض مخازنهم بالخيرات التي تقدم إلى مخازن المعابد عن طيب
خاطر ؛ فقد أدخل رجال الدين في روع ضحاياهم أن الآلهة قادرة
على أن تطيل أيامهم على الأرض قبل أن تبعث بهم إلى العالم
السفلى ، إلى الأرض التي لا رجعة منها !

ورجع إبراهيم إلى البيت فوجد أخويه ناحور وهاران يلعبان
في فناء الدار ؛ فلما رأياه أقبلا عليه وقال له ناحور :

— أين كنت ؟ إن أبي يبحث عنك .

— أين أبي ؟

— يصلى في محرابه .

وذهب إبراهيم إلى معبد آزر فوجده قائما يصلى وأمامه تمثال
لإله القمر ، وهو يبتهل إليه في حرارة وإيمان :

— يارب ! . يا من تمتد قدرته الوهابة بين السماء والأرض ،

يا من يجلب الغيث والمواسم ،

ويسهر على الأحياء .

يا من يعظم في السماء عالية وصيته :

ويعظم في الأرض عالية وصيته .

يا من تسبح له الأرواح السماوية والأرواح الأرضية ،
مشيئتك أنت في السماء مشرقة .

نسألك أن تكشف لنا مشيئتك على الأرض ؛

فإن مشيئتك تطيل الحياة وتبسط الرجاء

وتشمل كل كائن .

وأنت تقضى بالعدل فى أقدار الناس ،
وما من أحد ينفذ إلى سرها أو يقيس عليها .
أنت رب الأرباب تجلّ عن الشبيه والنظير .
وراح إبراهيم يتأمل فى هذه الصلاة ، أهذه صفات التمثال
الذى صنعه أبوه بيديه ؟ ! إنه لأعجز من أن تكون له قدرة ،
أعجز من أن يجلب غيثا ، أعجز من أن تكون له إرادة ، إن كان
له فى الأرض صيت فما له فى السماء قرار ولا برهان ولا مشيئة .
وانتبه إبراهيم على صوت أبيه يناديه بعد أن فرغ من صلاته :
— إبراهيم ؟ أين كنت ؟
— فى المعبد .

وتهللت أسارير الأب فقد حسب أن إبراهيم إنما ذهب إلى
المعبد ليؤدى للأرباب صلاة تطيل أيامه على الأرض . وما دار
بخلده أن الذى قاده إلى المعبد إنما هو الشك فى الآلهة وفى الملك
الإله وفى الإيشاكو والأوريجاللو والكهنة ورجال الدين .

قال الأب وهو فى طريقه إلى حيث يصنع تماثيل الآلهة :
— لقد انتهيت من صنع بعض تماثيل الآلهة ، فخذها وبعها .
فحمل إبراهيم تماثيل مردوخ ونانا وعشتار وانطلق إلى المعبد
يقلب التماثيل بين يديه فى هزء وسخرية ، ويعجب فى نفسه :
كيف يركع إنسان عاقل لهذه التماثيل التى لا تملك لنفسها نفعا
ولا ضرا ؟ كيف يعقل أن تطيل مشيئتها الحياة وتبسط لها الرجاء ،
وأن تكون لها أسرار لا ينفذ إليها أحد ؟
وقف أمام المعبد يحمل تماثيل الآلهة بين يديه ويقول :

— من يشتري من يضره ولا ينفعه ؟ . من يشتري ما يضره ولا ينفعه ؟

وبلغ نداؤه آذان الناس فراحوا يرمقونه في غيظ وعبوسهم يتطايرونهم الشرر . ، إنه يسفه أحلامهم على الملأ دون أن يخشى بطشهم ، وهم رجل باءن يضره وإذا بآخر يقول له :
— دعه لانتقام الآلهة فإنها ستأثر منه ، وسيكون العقاب الذي تنزله به رهيبا .

— لو تركناه فلتنزلن الآلهة علينا خسفا من السماء ، إذ تركنا من ينال منها يمشي على الأرض .
— إنه فتي لمّا يدخل الإيمان قلبه ، فلعل الآلهة أن تهديه .
— لا بد من تأديبه .

— إن أردت أن تكرم الآلهة فلا تدعها بين يديه . ادفع ثمنها وخذها .

— أنا لا أشتريها ممن يسخر منها ومنا .
ودار الرجل على عقبيه وانصرف وهو يرمي إبراهيم بنظرات . يتطايرونهم الشرر ، وعاد إبراهيم يقول وهو ثابت الجنان وقد هان الناس في عينيه :

— من يشتري ما يضره ولا ينفعه ؟
وضاقت إحدى العاهرات المقدسات بهذه السخرية ، فقامت إليه واشترت منه تمثال عشتار لتنفذها من المهانة . فقد عز عليها أن ينال فتي من كبرياء عشتار المتألقة دون أن يخشى أن تذله ، وقد أذلت من هو أرفع منه شأنًا ؛ أذلت الآلهة فجعلت تموز

إله الإنبات يركع تحت قدميها ، وأذلت صناديد البشر وأحرقتهم
بنار الوجد .

وقبل أن تنصرف قالت له :

— لولا أنها عطوف لأنزلت بك غضبها ، ولكن لا تطمع في
عطفها كثيرا فإنها متقلبة ، فحاذر يا فتى من تقلباتها .

وابتسم إبراهيم في هزء فقالت له :

— إن فيك غرور الشباب وتمرده ، غدا عندما تكبر تعلم
ما لذة الخضوع للآلهة ، وما لذة التضحية .

وشردت ببصرها قليلا وغمغمت :

— ما ألد التضحية !

ثم مدت إليه يدها وقالت :

— تعال معي أعلمك كيف تضحي ، كيف تتنوق حلاوة

الإيمان .

فأشاح إبراهيم بوجهه عنها ، ثم دار على عقبيه وانصرف
يحمل بين يديه تماثيل الآلهة ويحس في قلبه رضا ، فقد نفس عن
بعض ما يحسه نحو هذه الأصنام التي لا تبصر ولا تسمع .

وسار على الشاطئ ، وإذا به يرى القرات يجرى عذبا ليصب
في بحر الشمس المشرقة العظيم ، فخطر له أن يسخر من الأصنام
التي يحملها ، فهبط إلى حيث الماء العذب وغمس رموس التماثيل
في الماء وقال :

— ألا تشربون ! .

وكان لوجال عائدا من رحلته في طريقه إلى البيت فوقعت

عيناه على ما يفعله إبراهيم بآلهة قومه ، فوقف يرقبه من بعيد في
أكبار .

كان لوجال يسخر في بعض الأحيان من معتقدات قومه
ولكنه لم يفكر في أن يعلن رأيه على الملأ ، ولم يخطر له على قلب
أن ينال منها أو يفعل بها ما يفعله ذلك الفتي .

إن إبراهيم لشجاع ، فهو ينال من الآلهة على أعين الناس ،
ويحقر الأصنام وإن كان أبوه يصنعها ويعول أسرته من أثمان بيعها ،
توى أدار ذلك بخلد إبراهيم ؟ إنه ولا ريب يعي كل ما يفعل .

وظل لوجال يرقب إبراهيم في إعجاب وصوت يهمس في
أغواره :

— ليكون لك شأن مع أبيك .: وقومك .: والآلهة جميعا !

جن الليل على إبراهيم فدخل لينام ، بيد أن الوسن لم يطف بعينه . كانت الأفكار تتوافد على رأسه توافد الموج ، كان يفكر في الكون وفي القدرة التي تسيره . إن لهذا الكون إلها ، إلها واحدا لا شريك له ، وإن روحه لتنهفوا إلى معرفة هذا الإله العظيم والأنس به : كان السكون مخيما على أور ، لا همسة ولا نائمة ، وكانت الليلة حالكة الظلام فلم يكن يتسلل إلى الغرفة بصيص نور ؛ ولكن التور الذي بدأ يضيء في قلب إبراهيم كان يمكنه من رؤية ما يدور في ذهنه من أفكار في وضوح .

وتأبى النوم على إبراهيم فقام وخرج إلى الشرفة المطلة على فناء الدار ، وهب التسيم رخاء يداعب وجهه وينعش روحه ويغذى الأفكار التي تشغل عقله : إن هذا الهواء يرق تارة حتى لكأن الكون يتنفس أنفاسا ندية ، ويثور أخرى حتى لكأن الكون ينبث نارا ودخانا .

ورفع إبراهيم بصره إلى السماء فرآها زرقاء صافية ، سافرة بلا حجاب ، لا توشى صفحتها رقع السحاب : إن السماء الليلة رقيقة مشرقة ، فلو دامت لها هذه الرقة وهذا الإشراق لما نزل منها الماء ، ولجفت الأرض وماتت وحل بالناس الدمار .

إن هذا الكون حي .. إن الروح التي تسرى فيه هي روح

الإله .. وإن الأنفاس التي تردد بين جنباته هي أنفاس الرب .
وأحس إبراهيم بروحه تهفو إلى روح الرب ، وبرغبة طاغية في
أن ينوب بكل وجدانه في هذا السكون .

وعلى الرغم من السكون الشامل أحس بأن كل شيء حوله
ينبض بالحياة ، وأن ذلك النبض لا بد ينبع من حياة خالدة .
حياة عميقة ، حياة يتغلغل سرها في كل شيء . ولكن أين هي
هذه الحياة الخالدة ؟ أين هي هذه الحياة العميقة ؟ أين هو هذا
السر .. سر الحياة ؟

وراح يهبط في الدرج كالسحور تتلى بين جنبه صلاة وإن
لم تحرك بها شفتاه : « إنك في كل شيء ، في الماء الذي يتغلغل
في أحشاء الكون ، في عير الأزهار ، في نضارة الثمار ، في اخضرار
الأشجار ، في السماء ... وفوق السماء ... قلبي يعرفك ... روحى
تشعر بك ، ولكنى أريد أن أراك ... أريد أن أهتدى إليك ...
فكيف الوصول إليك ؟

وإنساب في فناء الدار وهو خاشع لا يسمع إلا الأصوات
التي تنبعث من أعماق ضميره ، وإذا بصريز متصل يعكر سكون
الليل ؛ فالتفت فوجده ينبعث من غرفة آزر التي يصنع فيها تماثيل
الآلهة ، فسار إليها وفتح بابها ولكنه لم ير في أول الأمر شيئاً ،
فقد كان الظلام ثقيلاً .

وبدأت عيناه تألفان الظلام ، فرأى ابتعاد تسعى على وجوه
الآلهة وتلحس أعينها وتدخل في آذانها .
فقال :-

— أفواه لا تنطق ، وأعين لا تبصر ، وآذان لا تسمع ،
وأقدام لا تسعى ، وتماثيل عاجزة لا تنفع نفسها ولا تغنى عن
غيرها شيئاً .
وسار حتى خرج إلى الطريق فألقى نفسه أمام الكون العريض
وجهاً لوجه . فضاء لا يحُد .. لا حواجز زائفة بينه وبين الدنيا التي
يشوى بين أحضانها .
أحس الوجود كله يسرى إلى روحه ، وفرحاً عظيماً يغمره .
فقد أخذ ظلام نفسه ينقشع ليحل مكانه نور جليل ، نور تتركه
بصيرته قبل أن يراه بصره .
وراح يقلب وجهه في السماء ليدرك الحقيقة العميقة التي تلهف
عليها نفسه ، ليكشف حقيقة الإله الذي يحس به يسرى فيه مسرى
الدم ، وأخذ يبتهل :
— يا رب ! أنا محب .. قلبي يعرفك .. روحي تشعر بك ..
أريد وجهك .. أريد أن أراك ..
وصفت نفسه وأرهفت روحه حتى لكادت أن ترى روح
الحقيقة التي حوله ، بيد أنه ما يزال يبحث عن وجه إلهه ، فراح
يعاود الابتهاال في حرارة :
— أريد وجهك .. يا رب أرني وجهك .. أريد أن أراك .
وكانت الليلة بلا قمر ولا نجوم ، ليلة من ليالي آخر الشهر ،
وكان كوكب المشتري بازغاً يتلألأ فراح ينظر إليه ويفكر فيه ،
فاذا بوجود فياض مملأ وجدانه ويغمر روحه ، وإذا بطمأنينة عجيبة
تغشاه فقال في فرح :

— هذاربى !

وخيل إليه أنه اهتدى إلى مفتاح الأسرار المغلقة ، أسرار الحياة الخالدة . الحياة العميقة ، ألم يسفر له الإله عن وجهه !

ورفع عينيه إلى السماء وبين جنبه فرح فياض ، وكادت الحكمة تستقر في قلبه فقد اهتدى إلى الإله وعرف طريق الوصول إليه . بيد أن نبع سروره غاض فجأة ، ونضبت الحكمة قبل أن تستقر في سويداء قلبه . فقد اختفى الإله من رقعة السماء ، وتركه في بيداء الحياة وحده بلا سند ولا معين .

أفل الإله . أيكون إلها ذلك الذى يأفل ؟ لا .. إني لا أحب الآفلين .

ودار إبراهيم على عقبه وكر راجعا إلى الدار وما تسرب اليأس إلى قلبه . فقد غشيه الإشراق وانسل نور الإله إلى وجدانه ، فإن كانت عيناه عجزتا عن إدراك كنهه ، فإن إلهه الذى يحبه والذى تعلق به فؤاده لن يتركه في حيرته يبحث عنه دون أن يجده ، فإن الحب لا يكتمل إلا في فناء المحب في المحبوب .

ودخل إلى فراشه ونام ، ولكن نفسه كانت متيقظة تجاهد أن ترى وجه إله الكون في وضوح ، فإن كان سنا الكوكب قد بهر عينيه عن الحقيقة الخالدة زمنا حتى أفل فكفر به ، فالحقيقة العميقة لا تزال تخفق بين جنبات الكون وإن لم يهتد إليها . إنها موجودة وإن لم يضع يده عليها ، كل ما في الحياة يعلن عن بديع صنعها ، عن قدرتها ، عن مشيئتها .. فإن خدع بنور الكوكب الليلة فإنه سيعاود البحث حتى يجدر رب الأرباب .

واستيقظ من نومه وخرج إلى الشرفة المطلّة على فناء الدار
والتي يستطيع منها أن يمد عينيه إلى السماء ، السماء التي انجذب إليها
فراح يتأمل فيها كما يتأمل في كل ما تصل إليه عيناه ، فأحس
تناسقا مع كل ما حوله ، وتعاطفا مع الكون العظيم . إنه ينهب
الوجود بروحه ويستشعر زحابة الحب التي تملأ جوانحه ، بيد أن
البذرة التي بذرت في وجدانه لم تتحول بعد إلى نبتة روحية تسمو
إلى ما فوق الطبيعة والجهنم ، وإن زيت نفسه الذي يغذى أفكاره
لم يتحول بعد إلى نور إلهي فياض .

إنه لا يزال مقيدا بأغلال الطبيعة التي يثوى في أحضانها .
مشدودا بذاته المحصورة بين السماء والأرض ، وإن روحه لا تزال
في طريق التحول إلى نور طاهر يستطيع أن يبدد الظلام عن الحقيقة
الخالدة .

وأخذ يقلب وجهه في كل ما حوله : السماء .. السحاب ..
الشجر .. الطير .. عنبز الحقول .. ماء النهر الرقراق .. إن هذه
كلها رسل الخالق إلى ضميره . إنها تملؤه بالحنين إليه . إنه على
وشك أن يصل إلى غاية الوجود ، بيد أنه ما يزال سمجج فكرة ..
فكرة رؤيته وجه الإله .

وهبط في الدرج . وكل ما حوله يجذبه إليه ويملأ نفسه بالفرح ،
وما كان يعكر اكتمال نشوته إلا اللهفة على أن يهتدى إلى الإله
الذي يبحث عنه . وانساب في فناء الدار خفيفا كالطيف . يحس
أنه ولد من جديد ميلادا أعظم من ميلاده يوم وضعت به إيمتالي منذ
سنين .

ووصل إلى معبد البيت الخاص ، وبلغ سمعه صلوات أبيه وأخويه ناحور وهاران ، وعجب في نفسه كيف يركع أبوه وأمه وناحور وهاران لتمثال صنعه آزر بيديه كانت الصراصير منذ قليل تسعى على وجهه وهو عاجز أن يبعدها عنه .

لقد هزمت نفوسهم أرواحهم وطمست عقولهم . لأنهم ضحايا زيف حجب عنهم لب الحقيقة وحطم التناسق بينهم وبين الكون . لقد استبدت بهم تقاليد الأجداد فأطفأت النور الباطني الذي ترى به البصائر رسل الخالق في زفيف الهواء ورفيف أوراق الشجر . في السحر . في الشروق والغروب .

لقد اهتدى إلى أن عبادة التماثيل ضلال مبین ، وأن لهذا الكون العريض ربا ينشرح صدره كلما استشعر وجوده في أعماقه ، ويتهلل بالفرح كلما امتزجت روحه بروح الحياة التي تضمه في حنان إلى صدرها ، فإن كان لم ير وجه الله بعد فإنه في الطريق إليه .

وتحرك حبه الفياض لأمه وأبيه وأخويه فسأه أن يتركهم في ضلالتهم يعمهون ، ودفعه ذلك الحب إلى أن يقتحم المخاطر لينقذ أحب الناس إلى قلبه . ليخرجهم من الباطل إلى الحق ، وهل هناك خطر أعظم من تسفيه العقائد ورفع معول الهدم في وجه الدين ؟

وكانت الشمس تغمر المعبد كله إلا أن إبراهيم كان يراه غارقا في الظلمات ، وكان آزر وأهل بيته يحسبون أنهم أقرب ما يكونون إلى الحقيقة الخالدة .. إلى رب الأرباب مردوخ ، بيد أن إبراهيم كما يراهم يخطون في مستنقعات الباطل . لقد طهروا أنفسهم بالماء

قبل أن يقفوا بين يدي أصنامهم ، غسلوا أجسامهم به ولكنه لم
يمس أرواحهم ولم ينظفها من أدرانها . ألا ما أجمل الاغتسال
إن أحسن المغتسل أنه بالماء الطاهر إنما يغسل روحه .

ودخل إبراهيم المعبد وتقدم إلى تمثال الإله وهو يستشعر ألما ،
ولم يجعله الألم ينكص على عقبيه فقد عرف أن السعادة ليست في
اجتناب الألم بل في تحمله من أجل من فاض قلبه بحبهم .

وانزع الإله من مكانه وألقى به بعيدا ، فإذا بصيحات إنكار
تنبعث من كل الأفواه ، وإذا بالفزع يرتسم على الوجوه . وإذا
بوجه إيمتلى يمتنع وقلبا يخفق في رعب واهلح . كانت في فزع
من أن يحل غضب الآلهة جميعا على ابنها الآبى من حظيرة الإيمان !
وهرع آزر إلى التمثال والغضب يكاد يفجر صدره ويكتم
أنفاسه ، وراح يمسح التمثال في خوف ويقول لإبراهيم :

— أجننت ؟ ماذا فعلت أيها الشقي ! لتزلن الآلهة غضبها
عليك .. إني برىء مما فعلت ..

وذهب آزر ليعيد تمثال مردوخ إلى مكانه ، إلا أن إبراهيم
ألقى بتمثال نانا على الأرض وهو يقول :

— ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟

فقال ناحور في غضب :

— إنها آلهتنا يا إبراهيم !

فالتفت إبراهيم إلى أبيه الغاضب وقال :

— يا أبت ، لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك

شيئا ؟ !

(إبراهيم أبو الأنبياء)

فقال آزر في غضب :

— وجدنا آباءنا لها عابدين . أرأغب أنت عن آلهتنا يا إبراهيم ؟
— أنا برىء مما تعبدون .

فدنت إيمتالى من ابنها وقالت :

— يا بني هذه آلهتنا التى نضرع إليها كل يوم لتعطينا الخبز
الذى نأكله ، ولولاها ما نصب ملك ولا ولد كاهن أعظم ؛
ورأى آزر أن ينضم إلى زوجه فى نصيح ابنه الذى أتى أمرا إداً ،
وأهان الآلهة دون أن نخشى بطشها فقال :

— ولولاها ما جادت السحب ولا هطلت الأمطار من السماء ،
ولا خرجت النباتات من الأرض ولا فاضت الأنهار بالماء .
— لأنها يا أبت من صنع يديك ، أنت ربها ، فكيف صارت
يا أبت أرباباً لك ؟

فقال آزر فى هدوء لينزع من رأس ابنه الفكرة الخاطئة التى
استقرت فيه ، ويمحو من قلبه ظلال الشك التى رانت عليه :
— لأنها يا بني رمز لمن رهبت وخشيت تضاهايان السماء ، وظله
منتشر على جميع الأقاليم ، وتساميه يبلغ عنان السماء . لأنها رمز
لمن يحمل إليه السادة والأمراء الهدايا والقرابين المقدسة ، وقيمون
له الصلوات ، ويتلون له الدعوات والتضرعات .

وتناول إبراهيم تماثلاً من تماثيل الآلهة وحطمه بين يديه وقال :
— ألا ترى يا أبى أنه لا يملك لنفسه نفعا ولا يدرأ عن نفسه
الهُوان ؟ ألا ما أحقر ذلك الإله الذى أدق عنقه بيدى .

فقال إيمتالى فى رعب :

— ٩٩ —

— صه ، صه يا إبراهيم حتى لا تسمعك الآلهة فتبعث بك إلى العالم السفلى ، للدود وعذاب الهون .

فقال إبراهيم ساخرا :

— أولم تسمعى بعد ؟

وأشار إلى أذنى مردوخ الكبيرتين اللتين ترمزان إلى الحكمة :

— وما فائدة هاتين الأذنين الكبيرتين إن كان لا يسمع ؟

وهاتين العينين الواسعتين إن كان لا يرى ؟ وهاتين الشفتين إن كان لا ينطق ؟ وهذا الأنف إن كان لا يشم ؟ ..

والتفت إلى أمه وقال :

— لا تراعى يا أماء فأهتكم أهون من أن تنالنى بسوء .

فصاح ناحور ليرضى أباه وأمه :

— كنى يا إبراهيم ، فأهتتنا قادرة على أن تحيلك حجارة .

فقال إبراهيم فى مرارة :

— عجبت لمن يرى النور ويصر على أن يغمض عينيه على

الظلام خشية أن يبهره النور ، ليست أهتكم على شىء . فإن كانت

لها قدرة ومشية لكنت أول الراكعين لقدرتها الساجدين لمشيئها ،

ولكنها أعجز من أن يكون لها شىء . . .

فقال آزر ولم يتألى وأخواه :

— إنها آلهة آبائنا وسنعبدها يا إبراهيم ! وجدنا آباءنا لها

عابدين .

قال وهو ينظر إليهم فى إشفاق :

— لقد كنتم وآباؤكم فى ضلال مبعين .

هجعت الكائنات وراح الكون في سبات ، إلا إبراهيم كان
شاردا يفكر في ملكوت السماء .
ودخلت عليه أمه وقالت :
— ألا تأكل يا إبراهيم ؟
فقال في اقتضاب :
— شكرا لك يا أماه .

إنه لم يذق شيئا منذ الصباح فقد عزفت نفسه عن الطعام والشراب
إنما يريد غذاء لروحه ، ورثا لظمئه إلى الحقيقة . إنه يطمع
أن يتجلى له الإله .

ووضعت أمه المسرجة عن كذب منه ، وكانت آتية من فخار
تسبح في وسطها فتيلة طافية على الزيت ، فراح نورها يتراقص
على الجدران .

ولم يحفل إبراهيم بالنور الذي غمر المكان ، وإنما كان يرقب
شروق النور في قلبه ، كان يبحث عن النور الإلهي في كل
ما حوله : كان يفتح عينيه وفؤاده وذاته ليرى جمال الذات
الإلهية ، ليرى أنوار التجليات .

إنه يتحرق شوقا إلى معرفة كنه الإله .. إلى الوصول إلى جوهر
الحقيقة ، إلى الوصول إلى الاستقرار والطمأنينة والسلام . إنه

لا يطبق البقاء داخل البيت ممدداً في فراشه بغير عمل ؛ إنه يتلف إلى الخروج إلى الدنيا الواسعة ليغترف من كنز الوجود فيزيد ثروته روحه ، ليعتبر عن المفتاح المقدس الذي يفتح له أسرار السماء . فتبتدى لعننه الحقيقة سافرة ناصعة .

وهب من فراشه وهو مغمى بإحساسات زاهرة بالإيمان ،
إلا أنها إحساسات يشوبها قلق ، قلق من لم يقبض بيديه بعد على
مفتاح الأسرار الذى يفتح به عالم النور . وملوكوت السماء .

وذهب يغتسل ليظهر بدنه ويظهر روحه ، فقد كان من فرط إيمانه يحس أن الماء يغسل وجدانه . وأسبغ الاغتسال فخرج نقي السريرة سلم القلب ، يعاود البحث عن الله .

وثوى في أحضان الكون وألقى إليه السمع ومد إليه البصر
وفتح له القواد ، فإذا به يحس أن كل شيء حوله حتى تخفق بين
جنبيه روح ، حتى الأرض التي يطأ أديمها تنبض بالحياة . حتى
الجبال الشامخة المجللة بالسحر من حوله تعكس اللمسة الإلهية كما
تعكسها كل الكائنات . إن الروح التي تسرى فيه لكاروحي التي
تسرى في كل ما حوله : في الشجر والماء ، في النسيم والسماء ،
وخشم يصفي إلى الكون ويتلقى في فرح كل ما يوحى به إليه .

وفاضت نفسه بالنشوة وهز وجدانه ما في الكون من جبال ،
وأصبح لكل ما يفتح عليه عيناه معنى جديد ، معنى روحى لم يكن
يدرك سره قبل أن ينظر في نفسه وفي كل ما حوله . وتهلل بالفرح
لهذا التناسق العجيب بين روحه وروح العالم الذى يحتويه في أحضانه
وشعر كأنما صيغ من رقة ، كأنما أصبح روحا ههنا ههنا شماء

انطلقت من سجن النفس تهم في السموات . وتملأ البصيرة بجمال ذات الله .

وراح يتلفت مبهورا وكل خلجة من خلجات نفسه الزكية تقول في تسبيح :

— ربنا ما خلقت هذا باطلا .

وكاد أن يضع يده على كنز الوجود ، أن يرفع الأستار المسدلة على بصيرته فيرى وجه الحقيقة العميقة ، الحقيقة الخالدة ، الحقيقة الأزلية ؛ بيد أنه عاد للفكرة التي استولت عليه فقال في ابتهاج :

— يا رب أين أنت ؟ أريد وجهك .. أريد أن أراك ..
يارب تجلّ علىّ .

ورفع بصره إلى السماء ، وكان القمر في تمامه يرسل ضياءه فيغمر الدنيا بنور عذب ساحر ، ويبعث في كل ما يلمسه روحا تفيض بالصفاء ، راح ينظر إلى القمر وهو مأخوذ . إنه نفس القمر الذي رآه منذ أن رفع عينيه إلى السماء ، ولكنه الليلة يرى فيه شيئا جديدا لم تكن تدركه بديهته قلبه من قبل . إن ما كان يبحث عنه هو هذا السناء .. وهذا التألق .. وهذا النور .. وهذا السمو ، ها هي ذى الحقيقة الأزلية تتجلي لعينيه ، لقد عثر على سر الوجود الحقيقي بأن يغنى روحه بكنوز من الفيض الإلهي ! وتهلل بالفرح فقد حسب أنه اكتشف كل بهاء العالم ، وأنه اهتدى إلى الإله الحق ، وأن السلام عرف طريقه أخيرا إلى قلبه .

وراح يرنو إلى القمر في خشوع كأنما هو في صلاة ، وكل

خلجة من خلجات نفسه ، وكل خفقة من خفقات قلبه ، وكل زفرة من زفرات روحه ، وكل نبضة من نبضات عقله تقول : « عرفت الإله ! عرفت الحقيقة الأبدية التي يبدد نورها ظلمات النفس ، وتمد الأرواح بالنور الإلهي الفياض » .
وراح يبتهل في حرارة :

— يا رب ارض عني .. إني أحبك فامنحني يا رب حبك .
إني أريد أن أرى بك ، وأن أسمع بك ، وأن أنطق بك ، وألا أسعى إلا في طريقك ، وألا أحب إلا فيك ، وألا أبغض إلا من أجلك .

يا رب إنك قديم جديد ، إنك الليلة شاب . ومن قلبك ينبثق الشباب الخالد ، فأمدني يا إلهي بالقوة ، وأيدني بروح من عندك ، ما دمت يا إلهي قد رفعت الحجاب عن عيني . وفرشت طريق بالنور .

لقد بذرت في روح إبراهيم بذرة الإيمان ، بذرة الحقيقة العميقة ، بذرة الحقيقة الخالدة ، بذرة الحقيقة الأبدية .. فإن كان اتجه إلى القمر فإن البذرة لا تنم عن نوع الشجرة ولا طعم الشجرة ، إلا بعد أن تنمو وترعرع وينضج الثمر .

إن بذرة الإيمان الحق ، بذرة معرفة الله القادر بذرت في ضمير إبراهيم ، ولن تكشف عن حقيقة جوهرها وكنوز معدنها إلا بعد أن تتغلغل جذورها في أعماق روحه . وتنمو وتفرع في السماء ، وترتفع إلى ما فوق الطبيعة والحنان .

— يا رب أيقظ روحي ، وابعث شعاعك المقدس ينير ظلام

نفسى ، ويسرنى يا إلهى لأن أعكس نورك ، وأن أنفذ فى الأرض
مشيئتك .

واختفى نور القمر فجأة فخفق قلب إبراهيم فزعا ، ورفع
عينيه إلى السماء ليرى ما غشى وجه الإله ، فإذا بسحابة داكنة
تحول بين القمر وبين أن يبعث نوره إلى الأرض .

واستولى القلق على إبراهيم ، وعرف طريقه إلى قلبه مرة أخرى
بعد أن حسب أن السلام قد استقر فيه ، وراح يقاوم ظلال الشك
التي رانت عليه . أخذ يقنع نفسه أن نقاب السحاب لا يضير الإله ،
فهو وإن كان حجبه عن الأرض فإنه ما يزال يتألق فوق السحاب
بنوره وجلاله وسناه .

ومر بعض الوقت وإبراهيم يرنو إلى السماء فى قلق ورجاء ،
حتى إذا انقشعت السحب ورأى القمر بازغا قال :
— هذا ربى .

وانقلب إلى أهله مسرورا ، فقد حسب أنه اهتدى إلى منبع
النور ، إلى نور النور ، إلى القديم الجديد ، إلى الحقيقة الأزلية .

* * *

وخرج ناحور وهاران يحملان تماثيل الآلهة التي صنعها آزر
بيبعانها أمام معبد نانا ، وكانا سعيدين بعملهما ، فقد كانا ينسلان
بين الفينة والفينة إلى حجرات المعبد المنعزلة يصغيان إلى الموسيقى
التي تلتقها فتيات المعبد على أيدي الكاهنات ، ويسعدان بالأنغام
الشجية المنبعثة من المزامير والأبواق ، والدفوف والعيان ،
والطبول والصنوج . وكانا غالبا ما يمزحان مع العاهرات المقدسات ،

بيد أنهما لم يستنكرا عملهن كما فعل أخوها إبراهيم ، فقد غرس في قلبيهما حب فتيات المعبد والنظر إلى ما يفعلن نظرة إجلال ، فهن إنما يضحين بأجسادهن في سبيل الآلهة ، في سبيل هدف سام ! وخرج إبراهيم يرعى الغنم لياكل من جهده ، فقد أدرك ببليهة قلبه أن المال الذي يكسبه أبوه من بيع تماثيل الآلهة مال حرام ، وقد عزم ألا يدخل نجوفه مأكل من حرام ، بعد أن اهتدى إلى نور الحقيقة الخالدة .

وترك إبراهيم الغنم ترعى في المروج الخضر وراح يتلفت في الكون وهو مفعم بالفرح ؛ كان كل ما حوله يسبح بحال ذات الإله . لكأنما الزنابق البيض خلقت من نوره ، وكأنما النوار الأصفر الذي يمتد حتى الأفق يمنح النفس إشراقه ، وكأنما تلك الخضرة الزاهية التي تكسو الأرض وبينها البنفسج الأزرق والورد الأحمر حلة سندسية موشاة بيواقيت وزبرجد ومرجان . كل هذا التناسق في الألوان إنما يسبح للفنان المبدع الذي ينبغ في كل ما يبدع من روحه وجماله .

واتسعت نظرة إبراهيم ونما إدراكه ورحب أفقه ، فكان يرى الجمال في كل ما تقع عليه عيناه ؛ لم تصبح الألوان المتناسقة هي كل ما يحرك سروره ، بل صار كل ما في الدنيا حبيبا إلى قلبه : الأرض الجرداء .. الجبال الصماء .. الريح الصرصر .. الإعصار الجبار .. قيظ الصيف وقر الشتاء .. موج البحر وسيل السحاب .. حتى الموت لم يعد يخشاه ، فقد أحب إله من كل قلبه ، فأحب كل ما جرت به مشيئته وكل ما خلق من كائنات

في الأرض أو في السماء .

تحررت روحه وانطلقت من سجن النفس فاستقت آفاق
رويتها ، أحست أن الكون ليس هو ذلك الجزء الضيق من الدنيا
الذي تراه عيناه ، وتسمع ترددات أنفاسه أذناه ، وتطويه قدماه ؛
إنما الكون رحيب واسع زاخر بقدرة الإله ، فلأن عجز عن أن
يراه وعن أن تحتويه في فواده ، فإنه لم يعجز عن أن يحبه وأن
يتناغم معه ، وأن ينعم بالسرور لذلك النبض الحى السارى في كل
ما حوله .

وبصر بشاة صغيرة ، بيضاء جميلة ، تثب في فرح بين
القطيع ، وتمرح في الخلاء ، وتسرى في الكون سريان الروح .
كانت في وثوبها آية ، وفي مرحها آية ، وكان بريق الفرح الذي
يشع من عينيها آية ، وانفعال القطيع بمرحها ومشاركته إياها في
حبورها آية .

وهب النسيم ينفخ في مزامير الطبيعة ويداعب أوتار عيدانها
وينقر في رقة دفوفها ، فبدأ كأنما الكون جميعه يعزف للحنا
علويا ، فتهللت نفس إبراهيم بالفرح وأفعم بالنشوة ، فالحياة
ترقص من حوله .

وراح يرقب اللوحات التى يبتدعها الفنان الأعظم على صفحة
السماء ؛ إنها لوحات رائعة لا تعرف الجمود ولا يدب فيها الفناء .
إنها حية متجددة نابضة بروح الإله .

إنه يرعاها منذ شروق الشمس حتى غروبها ، ويرعاها في
فحة الليل وتألج النجوم وبزوغ القمر . ويرعاها في الصيف

والشتاء والربيع والخريف ، ويرعاها والسماء صافية الأديم ثم وهى
ملبدة بالغيوم ، ويرعاها والهواء يهب رخاء ثم والرياح تعصف ،
ويرعاها والطبيعة تنفس أنفاسا رقيقة عطرة ، ثم وهى غاضبة
ناثرة . إن هذه اللوحات فى هلوئها وثورتها ، فى إشراقها وتجهمها ،
فى نورها وظلمتها ، إنما تسبح على الدوام بمجد الإله !

وخشع إبراهيم وحنى رأسه لعظمة الخالق ، وراحت مشاعره
تردد صلاة عميقة حارة ، صلاة لم تجر على لسانه فقد كانت
الألفاظ أعجز من أن تعبر عنها أو ترتفع إلى نبضها .

كان نور الإيمان يتسامى من قلب إبراهيم إلى السماء ، وكان
نور الإله ينسكب من فوق الكون كله فى قلبه لينير له طريق
الوصول إليه .

أحس إبراهيم رحابة واتساعا فى بصره وبصيرته ، فى قلبه
ووجدانه ، وانطلقت روحه حرة ترفرف فى كل مكان . وتسمو
وتتسامى حتى لتكاد تتجاوز المكان وتمحو الزمان من حسابها .
حطمت روحه كل القيود التى تشدها إلى الأشياء والكائنات
إلا ذلك القيد الحديد الذى ربطها بروح الكون ، بالحقيقة الخالدة ،
بالحقيقة الأزلية : قيد المحبة الذى تهلل له نفسه بالفرح .

وغمرته أنوار التجليات وإن كان المساء قد أظلم دون أن
يحس بالظلام الذى تلفم به الكون ، وأشرق النور فى قلبه وإن
غابت الشمس وذاب الشفق فى سواد الرداء ، واستمر فى السجدة
الطويلة التى سجدتها روحه إلى أن أحس حركة الغم من حوله ،
فأفاق من وجدته وعاد إلى الأرض من رحلته الروحية التى حلقت

به فوق السماء ، عاد لينعم بالأنس وغذاء الروح ، ويرى الحقيقة
التي تبلجت لعيني بصيرته كفلق الصبح أو كرائعة النهار . .

وتلفت حواليه فإذا الليل البهيم قد جثم على صدر دنياء التي
تحدها جبال مغير وأرض أور وبحر الشمس المشرقة العظيم .
ونظر إلى غنمه فألفاها تحن إلى الأرض ويداعب أعينها النعاس ،
فتحركت شفقتة وود لو يمرر يد الحنان على ظهورها وأن يضمها
إلى صدره ، فقد أحب فيها اللمسة الإلهية التي وهبتها الحياة .

وسرى هو والغم الوديع في ملكوت الله ! كان الغموض قد
انجلى عن روحه ورفعت الأسجاف عن عيني بصيرته ، بيد أن
عقله كان ما يزال يلح في رؤية وجه الإله . فإن بذرة الإيمان التي
بذرت في أعماقه قد بدأت تنمو وتمتد جذورها ، وتتفرع غصونها ،
وترعرع أوراقها ليتفياً ظلها الضمير والبصيرة والوجدان ،
أما عقله فقد كان ما يزال يحجب جوهره كلف من غموض ،
لا يلبث أن يتبدد يوم يكتمل نمو شجرة الإيمان .

ورفع عينيه إلى السماء يبحث عن القمر ، لقد رأى الحقيقة
الأزلية ببصيرته ، وكادت روحه أن تتحد مع روح العالم في
صلواته وابتهالاته وسجود وجدانه لخالق الكون والجمال . ورأت
عيناه جمال ذات الإله في الورود ، وفي الزنابق ، وفي الأشجار ،
وفي سربان النسيم ، وفي هبوب الرياح ، وفي نفسه ، وفي كل
ما حوله ؛ بيد أن عينيه كانتا ما تزالان تتطلعان إلى القمر استجابة
لنداء العقل الذي لم يغتسل بعد كاغتسال الروح في فيض النور .

لم يكن القمر في تمامه بل كان ينحدر نحو النقصان ليعود إلى

المحاق وقد فقد كثيرا من سحره ورونقه . وإن تأثره الذى ملأه
بالفرح ليلة اكتماله بدأ يضعف . إنه متقلب لا يستقر على حال ،
أمكن أن يزدهر الإله ويذبل كما يزدهر النوار ويذبل ؟ أمكن
أن يموت الإله ويولد كما يموت الزرع ويولد ؟ أمكن أن يكون
إلهًا ذلك الذى لا يتحكم فى إرادته بل يخضع لإرادة أخرى تكتب
عليه الاختفاء والظهور ؟ !

خيل إليه أن القمر هرم فسرى فى نفسه الكدر ، لقد اطمأن
إليه وحسبه الشباب الدائم وكنز الوجود ، فإذا الشباب تعبت به .
الليالى وإذا كنز الوجود يغيض .

وعكرت الحقيقة التى تبدت لعينه صفو السلام الذى عاش
فيه . إنها حقيقة مرة ، ولكن على الرغم من مرارتها فإن فيها طعم
الحقيقة .

وعاوده القلق ولكن لم يدب إلى قلبه اليأس ، إذ كيف
يعيش اليأس مع النور الإلهى الذى تجلى لروحه وراح يزحف
ليغمر حسه ويبهز عقله بسناه !

ظل يرنو إلى القمر ، إلى من هلك له عقله ليلة زعم وهمه أنه
اهتدى إلى الحقيقة الخالدة : « عرفت الإله ! عرفت الحقيقة
الأبدية التى تبدد ظلام النفوس وتهدى الأرواح إلى النور الإلهى
الفياض » فأحس تضائلا ، فمن حسب أن نوره يبدد ظلام
النفوس لا يقوى على أن يبدد ظلام الليل من حوله . فكيف يقوى
وهذا حاله على أن يهدى الأرواح إلى النور الفياض .
لقد ركن إلى عقله يسأله ويستخبره ويطلب عنده النصيح

— ١١٠ —

وإن لم يفتن بعد إلى حقيقة كامنة في نفسه ، حقيقة أن بديهية القلب أصدق من بديهية الذهن ، وأن بصيرة القلب أحلّ من بصر العقل الذى تعوق انطلاقه الحواجز والسلود .

وما انفك يرصد القمر وفي عقله إنكار ، وإن يكن في قلبه نور يبهز نور الهلال الذى كان يذبل ويذبل . فلما أفل القمر قلب إبراهيم وجهه في الكون وقال :

— لن لم يهتدي ربي لأكون من القوم الضالين .

جلست سارة تزين وتناهب لأهم حدث في حياة كل فتاة ،
فالليلة يقدم إبراهيم ابن عمها آزر لخطبتها . كانت سعيدة يترقرق
في عينيها الحميلتين الأسرتين الفرح ، وتراقص على شفتيها إشراقة
تعكس إشراقة روحها . وكانت جاريتها عن كذب ترقبها في غلونها
ورواحها مبهورة بجملها الفتان ، فما كانت تمتد عينان إلى سارة إلا
وتسحران بجملها الذي تخشع لجلاله القلوب .

لقد شغف سارة ابن عمها الفتى حبا ؛ كان رقيق القلب
وديعا ، راجح العقل مستقل الرأي ، عزوفا عن اللهو الذي ينجس
فيه شباب أور ؛ فما كان يوم الحانات التي تنتشر في أحياء المدينة
ويتصاعد منها صياح السكارى ، وصراخ صاحبة الخان وهي تصر
أن يكون ثمن خمورها شواقل من الفضة لا أجوارا من الشعر ؛
وما عرف عنه التردد على فتيات المعبد المقدسات فما كان من
المؤمنين بعشثار وفسقها .

انطبعت صورة إبراهيم في قلب سارة واستولت على خيالها ،
فقد كان إبراهيم ربعة في الرجال : ناصع الحبين أدعج العينين ،
مسترسل الشعر تزين وجهه لحية . كانت العين ترتاح إلى صورته .
أما ما كان يجذب العيون والقلوب إليه جميعا فجمال روحه وحسن
منطقه ورجاحة عقله . وطاق بذهن سارة ما كان بينه وبين أبيها

هاران من مساجلات فتهللت بالفرح . كان قوى الحجة يميل إلى
السخرية وإن كان لا يقول إلا الصدق ، وكان لا يخرج من نقاش
إلا وقد بهر السامعين بقوة بيانه وسلامة حججه .

وأحست في أعماقها أنه سيكون لها ولإبراهيم شأن وأن
زواجهما سيكون مباركا ، فهو زواج لم تسعد بمثله أور : زواج
الحلم الساحر الرائع الأخاذ ، بالعقل الراجح والروح القوية
والعزيمة الصادقة .

وراحت أم سارة تجعد شعر سارة من أمام ليطموج فوق
جبينها ، وترسل ذوائبه لتتدلى على صدرها ، وكانت تتطلع إلى
ابنتها مزهوة ترقص النشوة بين جوانحها ، ولم تستطع أن تكتم
إعجابها بجمالها فقالت :

— كان مباركا اليوم الذى أطلقنا عليك فيه اسم سارة :
أعرفين يا حبيبتي ما معنى سارة ؟
فقلت سارة وهى تبسم :
— معناها أميرة .

فقلت الأم وانعكست فرحتها على وجهها :
— أنت أجمل من أية أميرة فى قصر أى ملك .
فقلت سارة وابتنست عن لؤلؤ نضيد :

— ولكنهن نبيلات يا أماه !

فقلت أمها فى حماسة :

— لآنت أنبل منهن جميعا .

وراحت الحارية تعد ثوب سارة ؛ كان لباسا كاملا ذا أكمام

طويلة وتنورة فضفاضة ذات حواشي مزركشة ، وراحت تستخرج
الحلى من صناديقها : كانت قلائد وأطواقا وأساور وخلائيل .
وأخذت الحارية تغنى فى غدوها ورواحها بصوت جميل :

أيها العروس الحبيب إلى قلبي .

جمالك الباهر حلو كالشهد .

أيها الأسد الحبيب إلى فؤادى .

أسرت مهجتي ، فدعنى أقف بين يديك وأنا أرتجف من
الخوف ، أملأ عيني بجمالك الفتان ،

وأمد إليك أناملئ . فمسك أشهى من الشهد .

إن قلبك متعطش إلى الحب . وأنا أعرف كيف أدخل إليه
السرور ،

وروحك تنشد البهجة ، وأنا أعرف كيف أبهجها .

أنت مولاي ! أنت إلهى ! أنت سيدى !

نم فى بيتنا يا حبيبى حتى انبلاج الفجر .

وسيطر السكون وامتلات القلوب بالنشوة . وهامت الأرواح
فى عالم السحر . حتى انبعث دموع الرقة من عيني الأم ونظرت
إلى الحارية فى إعجاب وقالت :

— صوتك رائع ينفذ إلى القلب ويستقر فى الأعماق .

فقال الحارية وقد شردت ببصرها :

— كانت أمنيئى أن أغنى لإلهنا نانا العظيم ، سيدنا وحامينا .

— وما الذى حال بينك وبين تحقيق أمنيئتك ؟

فقال الحارية فى أسى :

(إبراهيم أبو الأنبياء)

— دين كان على أبى ، فقد عجز أن يسدد ديننا اقترضه
فتنازل لدائنه عنى فباعنى فى السوق .

وسمعت فى فناء الدار جلبة ، فقالت سارة فى اضطراب :
— جاءوا .. جاءوا يا أمه !

فهرعت الجارية إلى الشرفة تنظر وقالت :
— هؤلاء مزارعون جاءوا لمقابلة سيدى .

واتجه المزارعون إلى الغرفة الواسعة القائمة فى مواجهة باب
الدار ، ودخلوا على هاران وحيوه باسم مردوخ والآلهة جميعا ،
كانوا سعداء فقد كان الحصاد مباركا والمحصول وفيرا .

وبدأ الذى شاركه هاران على مزارعة أرضه يتحدث ، قال :
— لقد زاد نصيبك هذا العام الثلث عن نصيبك فى العام
الماضى .

فقال هاران وهو مسرور :

— هذا بركة الآلهة ثم بركة جهودك .

— الواقع أننا أنفقنا على الأرض ولم نبخل ، فقد أجرنا خمسة
رعاة ليرعوا أغنامنا ومواشىنا وأعطينا كلا منهم ثمانية أجوار من
الشعير ، وأجرنا بعض الثيران لدرس القمح ، وإن القانون حدد
أجر الثور بعشرين قا فى اليوم إلا أننا لوفرة محصول هذا العام
دفعنا عن الثور واحدا وعشرين قا .

فقال هاران وهو جذلان ، فالיום يوم مبارك جاءه فيه شريكه
يدفع له نصيبه فى الزراعة ، وسيأتى ابن أخيه إبراهيم ليخطب
سارة :

— لا بأس .. لا بأس أن نزيد في الإنفاق ما دام أن الإيراد يزيد .

فقال الشريك منشرجا :

— وأجرنا عربات تجرها الثيران . ودفعنا في العربة والثور وسائقهما مائة وثمانين قافى اليوم .

— أليس هذا كثيرا ؟

— هذا ما حدده القانون يا عزيزى هاران .

والتفت الرجل إلى أحد الرجال الذين جاءوا معه وقال :

— مع صاحبي هذا كل الحساب ، فقد دونا فى الألواح ما غلته الأرض وما أنفقناه وما بعناه وقبضنا ثمنه ولم نهمل قافى واحدا ، وتشهد الآلهة على ذلك . وكتب مردوخ الخراب على من خان أو دلس .

وساد الصمت برهة ثم قال شريك هاران :

— إن الضرائب التى ندفعها باهظة والعشور كثيرة . فلو استطعت أن تحصل من الملك على لوحة إعفاء من الضرائب والعشور ومن نصيب الملك فى المراعى وباكورة المحصول والحشيم وتسخير الرجال والحيوان والعجلات . فستزيد أرباحنا كثيرا .

— أرباحنا لا بأس بها ، فلماذا نطمع فى المزيد ؟

— إننا لو اقتصرنا على إقراض أموالنا بفائدة عشرين فى المائة كما يحدد القانون ، لحصلنا على ما نحصل عليه الآن . ولوفرنا ما نبذله من جهد وعرق ومخاطرة .. إن لوحة الإعفاء من الضرائب والسخرة تحقق غاية أمانينا .

— ١١٦ —

- ولكنى لا أعرف أحدا في القصر .
- مين من الفضة يفتح لك أبواب القصر .
- والإيشاكو ؟
- يكفى نصف مين من الشعير ليرضى الإيشاكو والكهنة .
- فشرد هاران قليلا وقال :
- ساء حاول .
- لوحة الإعفاء من الضريبة تستحق أكثر من المحاولة .
- وظهر على الرجل أنه تذكر شيئا فقال :
- ولم أحدثك عن الأرض البور ، فسينتهى إصلاحها هذا العام ويتم تنظيم الري وإقامة الخزان بها ، وسنضع عليها أحجار الحدود لتخفق فوقها جاية الآلهة وتصبح ملكا لنا بحكم القانون .
- فقال هاران :
- هذا صحيح ، فالأرض البور حق لمن يستغلها أولا .
- وسنسجلها هذا العام في لوحات الملكية ونضع اللوحات في المعبد .
- معبد نانا .
- كما تشاء ، وإن كنت أنا من عباد عشتار .
- فابتسم هاران وقال :
- كيف حال الأمن في المنطقة ؟
- لم تقطع إلا يد واحدة ، فقد سرق بعضهم شيئا من الخنطة وضبط فحكمت عليه المحكمة بقطع يده ، وسرق آخر بقرة فحكمت عليه المحكمة بدفع عشرة أمثال ثمنها ، فلما عجز عن

السداد حكمت عليه أن يظل مربوطاً بالأرض كالماشية .
وما قام الفلاحون وانصرفوا حتى سمعت جلبة في فناء الدار ،
فخرج هاران من حجرته ينظر ، وأطلت سارة وأمها والحواري
من الشرفة فرأوا رجلاً يسوقون بقرتين وثلاث خراف ويحملون
سلالاً بها دواجن وأسماك وبلح وتين وفطائر وجار نخيل .
وسرى الهمس بين الحواري : إنها هدية إبراهيم لسارة ..
هدية تليق بأمة .

وسمعت الأم الهمس فقالت :
— وأين من سارة الأميرات ؟
ودخل فناء الدار إبراهيم وآزر وإيمتلى وناحور وهاران ،
فقال إحدى الحواري وهي تمد عينها إلى إبراهيم :
— إنه فتى يأخذ بمجامع القلوب ، ما رأيت إلا وتفتحت له
نفسى .

ولحظتها الأم بنظرة زجر قاسية ، فقد سرى الهمس بأن
جارتها لم تولد لأبوين من الرقيق ، بل ضبطها زوجها متلبسة
بالزنا فباعها يبيع الإماء بعد أن سلب حريتها عوضاً عن روحها .
وهرع هاران لاستقبال أسرة أخيه وصافحهم جميعاً . حتى
إذا بلغ هاران الصغير قال له :

— وأنت يا سمّتي العزيز متى تنزوج ؟

فقال هاران الصغير وهو يبتسم :

. — الآن إن شئتم ما دام أبي سيدفع لى « الترهاتو » . إلى
أعمل مع أبي وأستحق أن يدفع المهر عني ، ولن أقول كما قال

إبراهيم : إني أريد أن أتزوج بجهدى وعرق جينى فلن أقبل أن يدفع مهرى من حرام .

فقال هاران فى صوت خافت :

- حرام !

فقال ناحور ليوضح الأمر :

- إن إبراهيم يعتقد أن الأموال التى نكسبها من بيع تماثيل الآلهة حرام .. فلا يدخل جوفه طعام اشترى بمال حصلنا عليه من بيعها .

وقال هاران الصغير دون أن يأبه للنظرات التى تصوبها أمه إليه :

- لم يدخل فى « الترهاتو » الذى سيدفعه شاقل واحد حصلنا عليه من بيع تماثيل الآلهة .

وصعدوا فى الدرج إلى الطبقة العليا حيث كانت سارة وأمها والحوارى ، وكان إبراهيم صامتا وإن كان فى قرارة نفسه راضيا عما ثرثر به ناحور وهاران الصغير ، فقد كان يحب أن يعرف عمه أنه كفر بالأصنام جميعا ، وما كان يجب أن يكتم عنه مثل هذا الأمر الخطير وهو يتقدم لخطبة ابنته .

وبلغوا الشرفة فحضت إليهم الأم تستقبلهم بالترحيب والقبلات ، وقادتهم إلى حيث كانت سارة تتألق كالبدر . ونظرت إليها إيمتلى طويلا فأحست كأن روحها ترشف كل ما فى الكون من جلال ، فالتفت إلى إبراهيم وقالت :

- أنت سعيد الطالع يا بنى ترعاك الآلهة .

فقال هاران وهو يتسم :

— قال لى أبى مرة : « إن ابن أخيك هذا مبارك يا هاران » ،
ومنذ ذلك اليوم تفتح قلبى لإبراهيم .. لقد كان أبى يعرف كثيرا
من الأسرار .

وتذكر آزر قول أبيه بيد أنه عجب فى نفسه كيف يكون
مباركا ذلك الذى يسفه الآلهة جميعا ولم يركع لها أبدا ، وشخص
ببصره إلى السماء وهمس فى حرارة وابتهاال :

— إلهى مردوخ ! إلهى نانا ! أيتها الآلهة جميعا ! ارفعى
مقتك وغضبك عن إبراهيم ، واجعليه مباركا مصداقا لما رآه أبى فى
المنام وفى النجوم وفى أكباد الضحايا .

ولم ينشرح صدر آزر لذلك الابتهاال فقد تذكر أن الآلهة
خرت على وجوهها يوم نظر أبوه فى كبدة الشاة ، وتذكر أن
إبراهيم طوح بتمثال مردوخ وتمثال نانا وتمثيل الآلهة الأخرى
مرات ومرغها فى التراب ، ولن يكون هذا إلا نذير سوء .

وبدأت مراسيم الخطبة فوضع إبراهيم اثنى عشر شاقلا من
الفضة فى صفحة وقدمها لعمه . فتناول هاران « ترهاتو » ابنته
وهو سعيد ، وما كان يهمه إن كان إبراهيم وضع شاقلا واحدا
أو عشرين شاقلا ، وما كان الأمر يختلف إن لم يدفع صدقا على
الإطلاق : فقد كان فرحان لأن سارة ستزوج إبراهيم وما كان
يدرى سر ذلك الفرح .

وتأهب الكاتب ليسجل واجبات للزوجة وحقوقها : فسأل
إبراهيم :

— ١٢٠ —

— ماذا تريد أن تذكر في واجبات الزوجة ؟

فقلت إيمتلى :

— إن سارة تعرف واجباتها جيدا ، فليس ثم ضرورة لتسجيل واجباتها .

فقال الكاتب :

— كل عقد لا يحدد فيه الزوج واجبات زوجه باطل .

فقال آزر :

— اكتب في العقد ما يكتب في مثل هذه المناسبات : أن على الزوجة أن تصون العرض ، وترعى البيت ، وتطيع الزوج .

أخذ الكاتب يكتب وقد تعلقة بقلم القصب العيون ، كان يكتب على ألواح من طين طرى تجفف في الشمس ثم تحفظ في سجلات المعبد . وكان إبراهيم ينظر وقد عزم على أن يحفظ العقد في أى مكان إلا في معابد الأصنام التي لا تملك لنفسها نفعاً ولا تدفع عن نفسها ضراً .

وانتهى الكاتب من كتابة واجبات الزوجة فالتفت إلى هاران وسأله :

— هل نثبت في العقد « شريقتو » الذي تدفعه لسارة ؟

فقلت أم سارة :

— نثبت البائنة بالتفصيل ونؤكد حقوق الزوجة .

والتفت الأم إلى هاران وقالت :

— أمل عليه تفصيلات الـ « ترهاتو » يا هاران .

فاعتدل هاران وأخذ يملئ :

— ١٢١ —

— مين من الفضة ، وعبدان ، وسرير أكادى ، وطست من نحاس .. :

وقالت أم سارة :

— واكتب أن للزوجة أن تتصرف في أملاكها دون موافقة زوجها ، ولها أن تباع عبيدها .

فالتفت هاران إلى آزر وقال :

— إنها مجرد إجراءات وإلا بطل عقد الزواج .

فقال آزر وهو يتسم :

— أعرف يا عزيزى هاران ، وقد كتب مثل هذا العقد يوم خطبت إيمتالى وهو محفوظ في سجلات معبد نانا .

وقال إبراهيم في هدوء :

— أما عقد زواجى فلن يحفظ في المعبد .

ولاحت الدهشة على الوجوه ، وقال إبراهيم :

— فليحفظه عمى مع وثائقه .

وذهب روع أم سارة فقد خشيت أن يطلب إبراهيم أن يحتفظ بالعقد عنده ، فتضطر أن تعرض عليه مما قد يعكر صفو الليلة ، ولم تشغل سارة رأسها بهذه التفاصيل فقد كانت سعيدة فرحة لأنها ستصبح زوجة لابن عمها الذى شغفها حبا واطمأنت روحها إلى روحه .

وانتهت مراسم الخطبة ، وقفل آزر وإيمتالى وأبناؤهما عائدين إلى دارهم وصدى غناء الجارية يتردد في الفضاء وفي جوف سارة :
أنت مولاي ! أنت إلهي ! أنت سيدى !

نم في بيتنا يا حبيبي حتى انبلاج الفجر .

ولم ينم إبراهيم في بيت عمه حتى انبلاج الفجر بل سار بجانب أبيه صامتا يفكر فيما قالت له امرأة عمه : « أريدك يا إبراهيم أن تبنى بيدك بيتا لسارة ، فإن البيت الذي نبنيه بأيدينا ونرفع قوائمه بعرقنا وانبهار أنفاسنا ، مثل هذا البيت نحبه وتهفو إليه قلوبنا : إن سارة هي أعز ما نملك يا إبراهيم ، وهي ودیعة غالية أحب أن تضعها في بيت تحبه ويتعلق به فؤادك » .

ورن في أذنيه صوت أخيه هاران وهو يقول لها : « اطمئني يا امرأة عمي فإن إبراهيم بئاء ماهر ، وسينى لها البيت الذى تشتتیه نفسك » .

وابتسم إبراهيم ، وابتسم آزر فقد حسب أن زواج ابنه من ابنة أخيه الحميلة الأسرة سيصرفه عن العيب فى الآلهة وعن تسفيه أحلامهم :

وبلغوا الدار فإذا نار مشبوبة ؛ فاستبقوا ينظرون فوجدوا النار تلتهم أصنام الآلهة التى صنعها آزر ، فهرع آزر وإيمتالى وناحور وهاران إلى الماء يطفثون النار ، ووقف إبراهيم ينظر وعلى شفثیه ابتسامة زراية . فلما أحمدا النار وأفرخ روعهم دنا إبراهيم من أبيه وقال :

— يا أبت ! إن النار أحق من أصنامك بهادتك لأنها تحرقها .

فاربد وجه أبيه وقال له فى حتى :

— ولماذا لا تعبدها أنت ؟

فقال إبراهيم فى هدوء :

— ١٢٣ —

— لأن الماء يحمدها .

ووضحت الحقيقة الأليمة لآزر ، فقد أوهمه قلبه أن زواج
إبراهيم من ابنة عمه الحفيظة سيشتغله عن العيب في أصنامه ، وإذا
الأحاديث تؤكد له أن ابنه لن يرعى عما هو فيه ، بل إن سحريته
تغن الآلهة ستزداد ضراوة على مر الأيام .
ووسع آزر من خطوه وانطلق لا يلوى على شيء ، وإن كان
يخس في فيه طعم المرارة التي سرت في روحه .

جلس إبراهيم وسارة يتناولان فطورهما ، وكان يرنو إليها وهو مغمم بالنشوة فعجاها الآسر يدغدغ الحواس ويملأ الجوارح بهجة ، بيد أن روحه كانت ظمأى إلى جمال آخر لا يسمو إليه كل ما فى الكون من جمال ، كانت روحه تهفو إلى جمال ذات الله .

وتناول إبراهيم لقيات يمين صلبه ثم كف عن الأكل ، فقالت له سارة :

— أنت لا تأكل !

فابتسم ولم يقل شيئا ، فقاء اهتدى بتجاربه إلى أن من أكل بشهوة نفس أعمى الإله عين قلبه عن رؤية تجليات حقيقة الوجود .. إنه أحب سارة بكل خلجة من خلجات نفسه ، بكل جارحة من تجوارحه ، بكل رفرقة من رفرقات روحه ، إلا أن الحب الذى يكنه للإله يفوق كل حب خفق به قلبه ، إنه يبعث فى روحه سرورا فياضا مملأ أقطار نفسه بالبهجة والإشراق ، بالفرح الصافى الذى يفوق كل ما فى الوجود من أفراح .

وقام يغتسل لينطلق فى ملكوت السماء قاصدا الله ، ساريا فى طريقه ، مبتهلا إليه أن يسفر له عن وجهه ، حتى يطمئن قلبه بمعرفة حقيقة السلام . وأسبغ الاغتسال كأنما يريد أن يذيب جسده

وأن يفنى بشريته ، لتنتلق روحه حرة تسبح في بحر النور حتى
تلتقي بالجوهر المنير ، بنور السموات والأرض .
وودع سارة وغادر البيت المتواضع الذى بناه لها بيديه ؛
خرج إلى الكون العريض يسوق غنمه ويرانه وأنعام زوجته ، وقد
شغل عنها بكنوز قلبه وغنى نفسه ، والصلة التى بدأ يحسها بين
روحه وروح الوجود :

ورأى أشجار النخيل باسقة يعبث الهواء بسعفها وتدلل منها
أعذاق البلح كعناقيد اليواقيت . لقد رأى أشجار النخيل مذ فتح
عينه للنور ، أما في هذه اللحظة التى تفتحت فيها عيون قلبه فانه
يراه أنوار الإلهية تبهر الروح . وراح يتلذذ حواليه وهو مشلوه ،
فقد تحول الكون جميعه إلى ألواح يخطط فيها الإله بقلمه آيات
إبداعه وحسن تخطيطه .

وولى وجهه قبل المشرق فرأى الشمس ساطعة ترسل أشعتها
إلى الكون فتغمر الأرض والسماء بالنور . وحاول أن يطيل إليها
النظر فعشيت عيناه . إن الشمس عظيمة جليلة لا يقوى على
ضوئها بشر . إن الشمس ترنو من عليائها في كبرياء إلى الأرض ،
 وإلى الناس ، وإلى كل الوجود . إن الشمس سر الوجود ، كنه
الحياة ، ذات الذوات ، روح الأرواح ، بأمرها تدب الروح في
كل ما يخفق بالحياة . فلما رأى الشمس بازغة قال :

- هذا ربى ! هذا أكبر :

وسار حتى بلغ سفح الجبل وهو يفكر في روحه التى تسرى
بين جنبه ، إنها ظل نور السر الذى يبحث عنه . أيمكن أن تكون

هذه الروح من جوهر الشمس ؟ إنه يحس أن قلبه يتفيا ظل حقيقة
أزلية ، أحقا أن الشمس هي هذه الحقيقة ؟ إنه اهتدى إلى أن لهذا
الكون ربا ، أ تكون الشمس هي ذلك الرب ؟

وراح يصعد في الجبل ، إن الصعود والهبوط لا يقربانه من
الإله الذي عرفه قلبه ورأته روحه . إنه يحس أن ذلك الإله قريب
منه أقرب من الشمس ، وأن محبته لطيفة ألطف من محبة الشمس ،
وأنه في ارتفاعه يرتفع فوق الشمس ، وأن شروق نوره في القلب
يفوق كل أنوار الكواكب والأقمار والشموس .

وظل يرقب الشمس من فوق الجبل وهي تنحدر نحو الأفق
إن الشمس تغرب ولكن نور الإله الذي رآه قلبه لا يعرف
الغروب . إن الشمس تغوص في الأفق البعيد ولكن نور الإله
الذي تجلى لبصيرته ينبثق بالرحمات . إن الشمس تختنق وتموت
ولكن الإله الذي تجلى لروحه حي لا يموت .

وراح قلبه يخيا بنور الكشف عن سر الحق . إن الله الذي
يبحث عنه ليس هو الكواكب ولا القمر ولا الشمس . إنه
لا يمكن أن يكون مردوخ أو نانا أو شماش أو أية ظاهرة من
ظواهر الكون . إنه فوق الكون جميعه ، ومشيته فوق كل مشية .
فالكواكب والقمر والشمس لا تملك مشيتها ، إن الله هو خالقها
وهو الذي فرض عليها مشيتها وسخرها وقلدر منازلها .

وراح ينظر من فوق الجبل فرأى الكون لأول مرة يخفق
بالروح الحق ، بالروح الأزلية ، بالروح التي خلقت من سواطع
جمالها وأنوار جلالها كل شيء .

إن رب هذا الكون واحد لا إله سواه ، عظيم له ما في السموات وما في الأرض ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، هو روح الحياة وسر الأسرار ، فإن كانت أضرار الأزل احتجبت عن العقول فسبحات الحلال سترت عنه الأبصار . إنه يدرك كل شئ ولا تدركه العيون .

وجاشت نفس إبراهيم بالرضا وانشرح صدره للإيمان وتألق نور الله على رياض قلبه .. فإذا الكون جميعه ، الكون الذى كان غائبا عنه بالانسجام مع روح الوجود ، يصبح فى لحظة ألسنة ناطقة بوحداية الله ۞

كان إبراهيم فوق الجبل لا يكاد يرى ، إلا أنه كان كإنسان العين صغيرا وجوده كبيرا شهوده ، كان ذرة فى الكون إلا أن اللمسة الإلهية التى مست روحه جعلت الوجود كله يثوى بين جنبيه ويخفق به فؤاده ۞

ولف الظلام مدينة أور ، وسكنت الوحشة جبال مغير ، وجثم على المكان سكون أشبه بسكون الرموس يجعل الخوف ينزع الأفتدة من الصدور ، إلا أن إبراهيم كان ممثلا أنسا ، فقد تناسق مع كل ما حوله وأصبح يرى كل شئ بوضوح بعد أن أنار الله له السبيل وهداه إلى الرشده .

وخشع إبراهيم وراح يناجى ربه وينفث زفرات قلبه . ثم سجد وعبراته تجرى على خديه وراح يبتهل ويسأل الله أن يريه وجهه ليطمئن قلبه .

غمر المكان نور ، وهبت نسائم رقيقة تحمل الرحمة ، وسرى

في الوجود همس شخى يشرح الصدور كأنه تسبيح الملائكة ،
وبدا أن الأرض تتأهب لاستقبال وحى السماء . وألقى في روع
إبراهيم أن سيلقى ربه ، ففاضت عيناه بالدمع وثبت فؤاده وأرهف
حسه وشرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه .

وانجابت عن قلبه الغشاوة وجاءته البينة من ربه فرأى في
وضوح مبين أنه ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء
حجاب ، وأنه لو تجلى الله للجبل لجعله دكا ، فخر ساجدا .

وشعر بوحي السماء يصب في صدره والحكمة تملأ جوانحه
وأنه يسمع في وضوح ما يوحى إليه : **إني أنزلنا القرآن أنزلنا**
فأعبدني وأقم الصلاة لذكري .. إنه أنا الله العزيز الحكيم .. إني
أنا الله رب العالمين .. ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا ، إن
الله غفور شكور .. إن الله يعلم غيب السموات والأرض وهو
الرازق ذو القوة المتين .

قل إني أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ . قُلْ إني أَخَافُ
إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلْ إني نَهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَائِمِرُونَ أَعْبُدْ أَهْمَا الْجَاهِلُونَ .
قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا . قُلْ إني لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا
وَلَا رَشَدًا .. قُلْ يَا أَهْمَا النَّاسِ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . وَإِنْ جَادِلُوكَ
فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ .

قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل
أفلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ،
سيقولون لله قل أفلا تتقون ؟ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو

يجبر ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله . قل فأتاني
تسحرون ؟

وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين .

وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين .

قل سبروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق .

قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين .

قل إنما أنا نذير وما من إله إلا الله الواحد القهار .

قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم .

قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله

غير الله يأتاكم بضياء أفلا تسمعون ؟ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم

النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتكم بليل تسكنون فيه

أفلا تبصرون ؟ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه

ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون .

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات

والنور .. وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسباناً .. جعل لكم

الأرض قراراً والسماء بناء .. الذي جعل لكم من الشجر الأخضر

نارا .. لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه .. ليذكروا اسم الله

على ما رزقهم . الحمد لله رب العالمين .

له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ..

وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون .. له ملك

السموات والأرض يعي ويميت وهو على كل شيء قدير .. فسبح

بحمد ربك وكن من الساجدين .. ومن الليل فسبحه وأدبار السجود .

(إبراهيم أبو الأنبياء)

واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار .. ومن
آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى .. وتوكل على الحى
الذى لا يموت .

إن هذا هو حق اليقين ، فسبح باسم ربك العظيم :
وراح إبراهيم يقلب وجهه فى ملكوت الله وهو مغمم بالفرح
وقد ذهب عنه الحزن ، وظل ينظر وهو مسحور بكنوز الحكمة
التي أريقت فى فؤاده ، وهو مبهور بالنور الإلهى الذى تجلى عليه
ونعد إلى قلبه وسكن فيه ليشرق دائماً بالنور ، فقد هداه به سواء
السييل .

ومرت لحظات مفعمة بالبركات فأحس كأن كل حلالة
الوجود سرت فى وجدانه ، وأن سلاماً أفرغ عليه ، وأن سكينة
أنزلت على قلبه فازداد إيماناً وتسليماً .

ولما أفاق رفع وجهه إلى السماء وقال :

— سبحانه تبت إليك وأنا أول المؤمنين .

دخل الإيمان قلب إبراهيم وحبه الله إليه وزينه فى فؤاده ،
فإذا كل شيء مشرق غارق فى النور وإن كانت الليلة حالكة السواد
لم يبرز فى سماءها نجم .

وهم بأن مهبط فى الجبل مطمئن النفس قرير العين مفعما
بالسرور ، فقد أوحى إليه ما أوحى خالق الكون والناس ، وحاكم
الكون والناس ، من له ما فى السموات وما فى الأرض الواحد
القيهار ، بيد أنه رأى شيئاً هائلاً معلقاً بين السماء والأرض ،
فرجف قلبه واستولى عليه خوف شديد ، وزاغ بصره وأحس

أنه يسبينهار .

و فر لا يلوى على شيء وراح يعدو ويلهث ، بيد أنه كان يرى ذلك الشيء أينما يولى وجهه معلقا بين السماء والأرض . ولم يدر أين المفر وذهل عن نفسه بذلك الفزع الذى سلك إلى وجدانه واستبد بكل جوارحه وكل خلجة من خلجات نفسه :

ووضح لعينه ذلك الشيء الذى كان يراه أمام عينيه أينما يوجه بصره ، وسمعه يقول له فى وضوح :

— أنا جبريل رسول رب العالمين إليك ، وأنت إبراهيم رسول الله .

وزاد فزع إبراهيم حتى كاد يموت من الخوف ، وإذا جبريل يقول له :

— أنا رسول ربك إليك ، وأنت خليل الرحمن .

وحاول إبراهيم أن يصرخ ، أن ينفس عن ذلك الخوف الذى استبد به وكاد يكتنم أنفاسه ، بيد أنه لم يجد صوته فأخذ يجرى هنا وهناك وهو حائر لا يدرى ماذا يفعل :

ورن صوت جبريل مدويا فى الفضاء :

— أسلم :

فخر إبراهيم ساجدا وقال :

— أسلمت لله رب العالمين .

واستمر فى سجوده ، ثم رفع رأسه ونظر فلم ير إلا السماء وجبال مغبر وأور الخاشعة فى الظلام ، أور التى لم يبلغها بعد النبأ العظيم . واستشعر قوة عظيمة تسرى فى روحه ، فإن الله يؤيده

— ١٣٢ —

بنصره ومن ينصره الله فلا غالب له ، إنه سيبليغ رسالات ربه
ولو كره الكافرون :

وإندفع من فوق الجبل وهو يقول :
— يا قوم ! إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي
فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين .

السجر يتنفس في هدوء ، والناس نيام ، والأحلام تطوف بالدور ، وكل كائنات الوجود تسبح بحمد الله إلا البشر ، فما كان من البشر أحد في تلك اللحظة يسبح باسم ربه العظيم خلا إبراهيم ، كان يصلي لله في حرارة وقد انهمرت من مآقيه الدموع .

وطفق إبراهيم يبتهل وينوح ويتأوه حتى بلغ أصواته مسامع سارة ، فنهضت من فراشها وذهبت إليه ووقفت ترقبه في دهش ، إنه يركع ويسجد ويصلي صلاة لم تسمع بها من قبل . إنه يصلي دون أن يكون أمامه تمثال من تماثيل آلهة القوم ، ويدعو لها واحدا دون أن يذكر معه سائر الأرباب ، يفعل ذلك وقد غاب عن كل ما حوله وبدأ عليه أن وجوده كله ذاب في ذلك الإله .

ووقفت لا تبدي حراكا فقد أخذت بذلك الخشوع الذي ران على المكان ، وذلك الصفاء الذي ما كان لها به عهد من قبل .

لكنم ذهبت إلى المعابد ، وصعدت أبراج الآلهة ، وقدمت القرابين ، وألقت سمعها إلى الإيشاكو والكهان ، وتلقت الصلوات ، بيد أنها في كل ما كان بينها وبين الآلهة والكهان لم تحس مثل ذلك الصفاء ولا ذلك النور الذي غمر المحراب ، قبل أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .

فلما قضيت الصلاة وآتم إبراهيم تسبيحه دنت منه وقالت :

— ماذا تفعل ؟

فقال في هدوء وأثر الدموع في عينيه :

— أصلى لله .

— أإله غير مردوخ ونانا وشماش وآلهتنا العظام ؟

— إله لا شريك له في ملكه ، سخر لنا ما في السماء وما في

الأرض جميعا .

فقال في إنكار :

— ومردوخ ونانا وشماش وعشتار والآلهة الأخرى ؟

— سخر الشمس والقمر والكواكب والنجوم ، كل يجري

لأجل مسمى ، ذلكم الله ربنا .

— من علمك هذا يا إبراهيم ؟

— هداني ربي إلى صراط مستقيم ، دينا قبيحا .

— ومن أدراك أن ربك هداك إلى هذا الدين ؟

فقال في إيمان عميق :

— إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي ، وقد بعثني رسولا لأدعو

الناس لعبادته وحده ، وإنى أدعوك إلى الله الذى لا إله إلا هو .

— أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ؟

— إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، لما جاءني

البيانات من ربي .

— أإله واحد لكل هذا الكون ؟ وقد كان لنا إله للقمر ،

وإله للشمس ، وإله للمشتري ، وإله للقضاء ، وإله للعطف

والحبة والحرب ، وآلهة كثيرة تطيل أيامنا في الأرض ؟ !

— ١٣٥ —

- أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار !
- كيف يكون في السماء وفي الأرض إله واحد ؟
- لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله .
- إله فوق الشمس وفوق القمر وفوق الكون ؟
- إنه خالق الكون والناس ، وحاكم الكون والناس ، ومنه الأمر والنهي ، وإليه المرجع والمآب ، رب السموات والأرض ، الإله الأحد الذي لا إله غيره .
- أيدير كل شيء وحده ؟
- يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون .
- أو سنلقى ربك يا إبراهيم ؟
- بعد أن نذوق الموت .
- بعد أن نذوق الموت نزل إلى الهاوية ، إلى الأرض التي لا رجعة منها .
- الموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون .
- أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟
- وربى لتبعثن ولتنبؤن بما عملتم ، فالיום لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون .
- وما جزاء من يؤمن بربك ؟
- وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار .

— ١٣٦ —

— وما جزاء من يكفر بربك ؟

— مأواهم جهنم كلما خبت زادهم الله سعيرا .
ونظرت إليه في دهش ، فإن ما يقوله يختلف عن كل ما سمعته
من الكهان ورجال الدين . إنه شيء جديد ، شيء يسمو فوق
الكون ، يجعل الإنسان أعظم من الكون ، إنه فتح مبين وإن كان
يسفه أحلام الآباء والأجداد .

وقالت : من علمك هذا يا إبراهيم ؟

— هذا ما علمني ربي إنني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله .
ودنت منه وقالت وهي تجهد أن تنهل من فيض النور الذي
يشع من عينيه ووجهه :

— أحق هو ؟

فقال إبراهيم في حماس :

— إى وربى إنه الحق .

وطمع في أن تؤمن بالله ورسالته فقال لها :

— استغفرى ربي وتوبى إليه ، إن ربي قريب مجيب .

— أسمعنى إذا دعوته ؟

— ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم ،
يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ، وعنده مفاتيح الغيب
لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، ويعلم ما يلج في
الأرض وما يخرج منها ، ويعلم خائفة الأعين وما تخفي الصدور .

— لا أدري ماذا أفعل يا إبراهيم ؟

— اشهدى بالحق يا سارة ، شهد الله أنه لا إله إلا هو .

— ١٣٧ —

- أتريد أن أشهد أن لا إله إلا الله ؟
- وأن إبراهيم عبده ورسوله ، أريد أن يطهر الله قلبك ، وأن يهديك الله ويشرح صدرك للإسلام .
- أرني الله قبل أن أشهد ، كيف أشهد بالحق ولم يقع بصرى عليه ؟
- ربي لا تراه العيون ولا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .
- لن أشهد قبل أن أرى وجهه .
- فله المشرق والمغرب فأثينا تولوا فثم وجه الله ، لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه . اشهدى يا سارة بالحق أغير دين الله تبغين ؟ أسلمى يا سارة فمن أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه جنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .
- وما زال ينفث حقيقة الله فى روح سارة ليشعل الإيمان فى قلبها ، ليبهز نور الحق ظلام نفسها ، لتحس تجلى الله فى ذاتها .
- ولم تلبث سارة أن أحست غشاوة الظلمات تنشق عن قلبها ، وأبواب الحياة الروحية تتفتح لها ، ونفحات إلهية تهب عليها .
- وأنوار التجليات تضىء ما بين جنبيها ، والنور الإلهى يفيض حتى يغمر عقلها . لقد أراد الله لها الهداية فشرح صدرها للإيمان .
- وشخصت ببصرها إلى السماء وكانت جميلة رائعة الحسن تبهر ملاحظتها العيون ، بيد أن جمال الروح الذى سربلها أزرى بكل جمال حسى وكل حسن يفهم الجوارح بالبهجة والنشوة .
- وقالت :
- رب ! إني ظلمت نفسى .. أشهد أن لا إله إلا أنت وأن

إبراهيم عبدك ورسولك .

وأسلمت مع إبراهيم لله رب العالمين .

وخرج إبراهيم لينذر قومه من قبل أن يأتهم عذاب مبين ،
ورأى أن ينذر عشيرته الأقربين ، وهل هناك أقرب إليه من أبيه
وأمه وإخوته ؟ فانطلق إلى بيت آزر ليقول لآله : إن أنا إلا نذير
وبشير لقوم يؤمنون .

وبلغ الدار واتجه إلى حيث كان أبوه يصنع آلهته فلم يجده ،
وعلم أنه خرج وأن ناحور وهاران ذهبا إلى معبد نانا ليبيعا تماثيل
الآلهة التي صنعها آزر .

وقصد إلى حيث كانت أمه . صعد في الدرج الداخلى إلى
الشرفة التي تطل على فناء الدار ، وسار حتى دخل على إيمتلى
فحياها في رقة وقال :

— يا أماه ، إني أدعوك إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

— وأهنتنا يا إبراهيم ؟

— إنما تعبسون من دون الله أوثانا ونخلقون إفكا .

— ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .

— أتعبسون ما تنحتون ؟ يا أماه اعبدوا الله واتقوه ، إن الذين

تعبسون من دون الله لا يملكون لكم رزقا .

— أنهنانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟

— يا أماه أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ، تعبسون من دون الله

ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا .

— ألا تخاف غضب آلهتنا يا إبراهيم ؟

— وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ؟ يا أماه إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم .

— أأنهانا يا إبراهيم أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ وإننا لنرى شك مما تدعونا إليه مريب .

— يا أماه إن هذا هو الحق اليقين .

— يا بنى إننا فى ريب مما تدعونا إليه . وجدنا آباءنا يعبدون مردوخ ونانا وشماش وآلهتنا الأخرى ، وسنعبد ما وجدنا آباءنا يعبدون .

— يا أماه ما تعبدون من دون الله إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم .

— وجدنا آباءنا لها عابدين .

— لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين .

— يا بنى إني أخاف عليك غضب الناس ، فدد ما أنت فيه وثب إلى رشدك وعد إلى دين آباءك .

— يا أماه أأشترى الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ؟ يا أماه أأخشى الناس والله أحق أن أخشاه ؟ يا أماه إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم .

— يا بنى استمع إلى نصحنى ، إني أخاف أن يتخطفك الناس . أخاف أن يبطش بك النمروذ .

— يا أماه إني أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين .
يا أماه توبى إلى الله واستغفريه من قبل أن يأتى يوم تجادل فيه

كل نفس عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت ، يوم تشهد عليكم
ألسنتكم وأيديكم وأرجلكم بما كنتم تعملون . يا أماء قولى لى تبت
إليك وإنى من المسلمين !

— يا إبراهيم لن أتبع إلا ملة آبائى ، ولن أعبد إلا ما كانوا
يعبدون .

يا إبراهيم أعرض عن هذا لكى لا يكون عليك حرج ،
ولكى تنجو من عذاب النمرود وجنوده .. أفلا تتدبر ؟ يا إبراهيم
إننا نخاف مما تدعو إليه . نخاف أن يضطهدنا الناس وأن يعذبنا
النمرود وأن يحل بنا غضب الآلهة ، وإننا برءاء مما تدعو إليه .
— وأنا برىء مما تعملون .

ودار على عقبه وهو يقول :

— حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وعلى الله فليتوكل
المتوكلون .

وهبط فى الدرج وهو حزين ، كان يريد أن يهدى من يحب
وما كان فى الوجود أحب إليه من أمه ، بيد أن الله لم يشأ لها
الهداية فأعرضت عن ابنها وأبت أن تصدق أن ما جاء به هو الحق
من عند الله العزيز الحكيم .

وسار فى الدار ، وبلغت أذنيه أصوات من غرفة أبيه فقد
عاد آزر ليصنع أصنامة ، فهرع إليه إبراهيم وقال :

— يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟
يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا
سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا .

— ١٤١ —

يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا .
قال :

— أراغب أنت عن آلهي . يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك
واهجرني مليا .
قال :

— سلام عليك سأستغفر لك ربّي إنه كان بي حفيّا ، وأعزّل لكم
وما تدعون من دون الله وأدعو ربّي عسى ألا أكون بدعاء ربّي
شقيّا .

تزوج ناحور ملكة أخت سارة ، وتزوج هاران وولد له ابنه لوط . ولم يكتف ناحور بزوجه بل رأت امرأته أن تعطيه جاريتها « روما » لتكون له أمة ، فالقانون والتقاليد تقرر منح الزوجة جاريتها لزوجها لتكون له محظية ، وقد كتب ناحور في لوح الزواج أن على روما أن تغسل قدمي زوجته الأولى ، وأن تحمل لها مقعدها إلى معبد الإله :

وكان للزوجة الأولى أن ترد الجارية إلى مرتبة الإماء إن حاولت منافستها في حب زوجها ، بل كان لها حق بيعها ما لم تصبح أما ، أما إذا ولدت طفلا فلها تحرر . وقد أنجبت روما ذرية لناحور فاستحال على ملكة زوجته الأولى أن تردها إلى مرتبة الإماء أو أن تبيعها في السوق ببيع الرقيق . وبقي الشرط الذي نص عليه في عقد الزواج ، فكانت روما تغسل لها رجلها وتحمل مقعدها إلى معبد الإله نانا .

ورزق ناحور ولدا وبقي إبراهيم بلا عقب ، فإن سارة لم تنجب له ولم يأت الزواج بشمرته الطبيعية : وكان إبراهيم يستطيع أن يطلق سارة ويدفع نصف مئة من الفضة ، أو يتخذ زوجة من المرتبة الثانية ، زوجة يشتريها من السوق أو جارية من جوارى سارة تهبها له ، ولكن إبراهيم لم يفكر إلا في الطلاق ولا

فى اتخاذ محظية وإن كان القانون يمنحه ذلك الحق وإن كانت تقاليد القوم تقره وتباركه ، فقد كان يحب سارة حبا جما وما كان يقدم على شئء يتخذه كبرياءها :

كان إبراهيم يحن إلى الولد ، وكان التبنى شائعا فى بابل فتبنى لوطا ابن أخيه هاران واتخذه ولدا ، وراح يلقنه منذ نعومة أظفاره عقيدة أن لا إله إلا الله الواحد القهار ، وأن إبراهيم عبده ورسوله . وذات يوم خرج إبراهيم إلى معبد نانا يعظ الناس ويدعوهم إلى الله كما اعتاد أن يفعل منذ أمر أن يبلغ رسالات ربه ، ولكنهم أعرضوا عنه ووضعوا أصابعهم فى آذانهم وصدوه عن دعوته مستهزئين به وبإلهه الذى يدعوهم إليه .

فتركهم وسار فى شوارع أور بين منازل الأغنياء التى بنيت من الآجر ودكاكين الصباغ الذين حذقوا صناعة الذهب والفضة ، حتى إذا اقترب من النهر ، رأى التجار فى غلو ورواح وقد شغلوا بدنياهم عن آخرتهم ، فالسفن ترسو فى المرفأ يفرغ منها ما ورد عليها من أخشاب لبنان وخيرات البلاد الأخرى ، ويحمل إليها غلات العراق من القمح والبلح فتنتقل بها إلى بلاد بعيدة ، وراء بحر الشمس المشرقة العظيم .

ورأى إبراهيم أن يذهب إلى هؤلاء التجار وأن يدعوهم إلى الله ، فانطلق حتى جاءهم وقال لهم :

— إني لكم نذير مبين .. إني أدعوكم إلى الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، وويل للكافرين من عذاب شديد ، الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصلون عن سبيل الله

— ١٤٤ —

ويبغونها عوجاً ، أولئك في ضلال بعيد .

وخفت إليه بعضهم ممنعون أن يسرسل في دعوته وقالوا :

— إنا كفرنا بما أرسلت به ، وإننا لنفي شك مما تدعونا إليه

مريب :

— أفي الله شك فاطر السموات والأرض ؟ .. يدعوكم ليغفر

لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى .

— إن أنت إلا بشر مثلنا تريد أن تصدنا عما كان يعبد آباؤنا ،

فأنتنا بسلطان مبين :

— إن أنا إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من

عباده ، وما كان لي أن آتيكم بسلطان إلا بأذن الله ، وعلى الله

فليتوكل المؤمنون .

وأعرضوا عنه وتركوه قاثماً وحده ، فرفع عينيه إلى السماء

وقال :

— رب إنك غفور رحيم :

وخلف النهر وراءه وسار إلى معبد نانا وبرجه الشامخ .

وكان معبد نانا ومعبد زوجته نكال والحرم المقدس تبلو غارقة

في البخور ، وكان رجال من المدينة والريف في طريقهم إلى المعبد

لتقديم القرابين والتذور من ذهب وفضة وعجول وخراف وقمح

وشعير .

وسار إبراهيم في الطريق المقدس وقد جلست على جانبيه

العاهرات المقدسات ، وخلف وراءه الرجال والنساء الذين وفدوا

على مخازن المعبد من المدن والريف لتقديم الهدايا والتذور ، ودخل

إلى حيث تقوم أصنام الآلهة وتمثيل النمرود بن كوش الملك الإله ،
نسل الآلهة الذين هبطوا من السماء إلى الأرض بعد الطوفان ليفرضوا
على الأرض حكم السماء .

وكان في مشكاة تمثال نانا وفي مشكاة أخرى تمثال مردوخ
ثم تماثيل أخرى منحوتة من الحجر ، وكان الناس يركعون ويتلون
الصلوات ويقدمون القرابين ، فتقدم إبراهيم ثابت الخطو وقال :

— ماذا تعبسون؟ ألكم آلهة دون الله تتريلون؟ فما ظنكم برب العالمين؟

وتقدم بقلب سليم ، وقال وهو يشير إلى تماثيل آلهتهم :

— ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟

وصوبت إليه نظرات يتطاير منها الشر ، إنه لا يكف عن
تسفيه أحلامهم وعيب آلهتهم ، وكان أكثر الناس غضبا الكهان
فجاءوا إليه وقالوا :-

— وجدنا آباءنا لها عابدين .

— لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين .

— أجبثنا بالحق أم أنت من اللاعبين؟

— بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا
على ذلكم من الشاهدين .

ورماه الكهان بنظرة مغیظة ، إنه يدعى أن ثم لها آخر غير
مردوخ خلق السموات والأرض فقالوا له :

— إن مردوخ هو رب الأرباب وإله الآلهة وفاطر السموات
والأرض . وإن نانا وشماش وعشتار والآلهة الأخرى أعوانه
وممثلوه . وأمرهم شورى بينهم إن أرادوا شيئا أبرموه في مجمع الآلهة .
(إبراهيم أبو الأنبياء)

— ١٤٦ —

— يا قوم إني برىء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي
فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين .
والترف قومه حوله يحاجونه ، قالوا له :
— أتتكفر بمردوخ ؟ ! في السماء هو أميرها الأول ، وفي
الأرض هو عظيمها وكبيرها ، وبين الآلهة هو ربها العظيم ،
وعندما يقدّر المصائر وهو في جلاله ورهبته فلا يجروا إله على أن
ينظر إليه ، ولولاه لما بنيت المدن ولا أقيمت المواطن .
إنه قادر على أن يخسف الأرض بك أو يصب غضبه من السماء
عليك أو يلقى بك إلى الهاوية ، إلى الأرض التي لا رجعة منها .
فقال إبراهيم وهو ثابت الجنان :
— أتخاجونني في الله !
وصاح صائح :
— ما أنت إلا بشر مثلنا ؛ فأت بآية إن كنت من الصادقين .
وارتفعت الأصوات من كل جانب :
— نريد آية .. نريد آية .
— وحق مردوخ والآلهة جميعا لئن جئتنا بآية لنؤمنن بها .
— لن نؤمن بك قبل أن يكلمنا الله أو يأتينا بآية .
— أرنا ربك يا إبراهيم . نريد أن نرى الله .
— ويل لك يا إبراهيم من غضب الآلهة .
— ويل لك من مردوخ فلن يبارك لك في حياتك .
— وليذيقنك غصص الموت ..
وجاء لوط يسعى وكان فتى ذكي الفؤاد ، فرأى عمه وقد

التف حوله قومه يخوفونه بغضب آلهتهم فحُف إلىه ، وصك سمعه صوت يهدد عمه :

— لئن لم تنته عما أنت فيه فإن لك معيشة ضنكا ، سيكتب مردوخ عليك الخراب .

وثار ت دماء لوط في عروقه : إن عمه الحبيب بل أباه الذى تبناه وغذاه بمبادئه يتلقى من قومه التهديد والسخرية والوعيد ؟ ليته يستطيع أن يفعل شيئا ليشد أزره ، ورأى عمه بدأ يتكلم فأتى إليه سمعه ، قال إبراهيم :

— أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علما ؛ أفلا تذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . يا قوم .. اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبسون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ، إن الذين تعبسون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين .

أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ؟ إن ذلك على الله يسير . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، إن الله على كل شىء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى

السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير .
وساد القوم سكون وزاح لوط يتفرس في وجوه الناس
وهو مسرور ، كانت حجة عمه قوية أخرست ألسنتهم إلى حين ،
بيد أن واحدا منهم قال في عناد :

— مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها ، فما نحن لك بمؤمنين .
وعادت الأصوات ترتفع مرة أخرى قالوا :

— ساحر .

— مجنون .

— كذاب .

فقال إبراهيم في هدوء :

— لي عملى ولكم عملكم .

وصاح كاهن يحرض القوم عليه :

— يا قوم انصروا آلهتكم وليكن يوما عليه عسيرا .

فقال إبراهيم :

— يا قوم أتتخذون من دون الله آلهة لا يخلقون شيئا وهم

مُخلَقون ؟ ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا

ولا حياة ولا نشورا ؟

وعاد الكاهن يصيح :

— مجنون . كذاب . إن هذا إلا إفك افتراه . انصروا آلهتكم

إن كنتم فاعلين .

وتحزك الناس ليفتكوا بإبراهيم وإذا برجل يقول :

— كفى ما ناله اليوم من خزي ، اتركوه .

وذهب الكاهن إلى إبراهيم ودفعه في صدره وقال :
— كذاب .. كذاب يريد أن يفتنكم ، أن يضلكم عن سبيل آلهتكم .

فقال إبراهيم :

— ربكم ذو رحمة واسعة .

ورفع عينيه إلى السماء وقال :

— رب اغفر واوحم وأنت خير الراحمين .

واغرورقت عينا لوط بالدموع . إن إبراهيم يدعوهم إلى
الرشاد وهم يستهزئون به . يدعوهم إلى النجاة وهم يسخرون منه ،
يدعوهم إلى العزيز الغفار وهم يدعونه ليكفر بالله ويشرك به
ما ليس له به علم . يدعوهم إلى الهدى وهم لا يسمعون له ؛ فقد
كبر عليهم ما يدعوهم إليه .

ولم يستطع أن يكتم المشاعر التي ماجت في صدره فقال :

— إن إبراهيم لم يكذب ، إنه لكم ناصح أمين ؛ بل الذين
كفروا يكذبون .

فاتجهت الأبصار إلى الفتى تنطق بالهزاء والسخرية . ولم يخف

لوط بل هان القوم في عينيه وقال :

— والذين تدعون من دون الله لا يستطيعون نصركم .. والذين

تدعون من دونه ما يملكون من قطمير .

فقال قائل :

— كذاب آخر .. كذاب صغير .

فعاد الكاهن يصيح :

— نصحتكم أن تنصروا آلهتكم من الكذاب الكبير قبل أن

— ١٥٠ —

يفتن الناس فلم تستمعوا إلى نصحي . لئن سحر هذا الفتى إنه
يسحركم جميعا .

وقال لوط :

— وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا ببركم ؟
فسأله واحد منهم :

— أأمنت بما يدعو إليه ؟

فقال لوط :

— أمنت بما أنزل على إبراهيم .

وقال إبراهيم لقومه :

— اعبدوا الله واتقوه ذلکم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما
تعبدون من دون الله آوثانا وتخلقون إفكا ، إن الذين تعبدون من
دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتنوا عند الله الرزق واعبدوه
واشكروا له ، إليه ترجعون .

وأخذ الناس ينصرفون حتى لم يبق في المعبد إلا إبراهيم وحده ،
ولم يصدقه إلا ابن أخيه الفتى الذى تبناه وأحبه من كل قلبه ،
فقد أسلم ولما يدخل الإيمان في قلبه .

ورفع إبراهيم عينه إلى السماء وقال :

— رب إنهم يكذبون .

وإذا بصوت كأنما يلقى إلى روحه فسمع به بوجدانه يقول :

— فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ، إن عليك إلا البلاغ .

فعاد إلى الدار ومعه لوط ، وقد عزم على أن يستمر في تبليغ

رسالات ربه ليقضى الله أمرا كان مفعولا .

كانت مدينة أور تغص بالناس فقد وفد إليها عباد إله القمر من كل مكان يسوقون الهدايا والنذور ، فغدا عيد « نانا » الكبير ، عيد الإله العظيم الذى تنازل ورضى أن ينزل فى معبده المقدس فى مدينة أور .

كان عباد إله القمر كثيرين ، أكثر من عباد إله الشمس « شماش » وإلهة اللذة والحرب عشتار . فقد كان شماش وعشتار ولدى نانا ، وما كان للإبن أن يسمو إلى مكان أبيه وإن مارى فى ذلك كثيرون وزعموا أن مردوخ تفوق على أبيه « أيا » ونصب فى مجمع الآلهة إلها على الآلهة أجمعين .

وتدفقت فى شوارع المدينة الأنعام التى أهدتها المدن الأخرى وكبار دافعى الضرائب - فى طريقها إلى حظائر معبد الإله ، وماجت المدينة بالكهنة والكاهنات ، والجنود والقضاة ، وأمناء مخازن الغلال والكتاب ، والأحرار والعبيد ، رجالا ونساء ، وكانوا جميعا يستعدون للاحتفال بالعيد .

وهرع الشبان الوافدون من البلاد الأخرى إلى العاهرات المقدسات اللاتى جلسن على جانبي الطريق المقدس . يلتقون فى حجورهن قطع النقود فيتبعنهم ليقدمن أجسادهن قربانا لابنة نانا عشتار العطوف إلهة اللذة .

وانطلق ناحور وزوجته وأولاده ، وهاران وزوجته وأولاده
إلى بيت آزر ، ليمضوا مساءهم يتسامرون ، ثم يتواعدون على
الخروج إلى المعبد لإقامة الصلاة وتقديم القرابين .

وتلقاهم آزر ويمتلى بالترحاب وجلسوا جميعا يتسامرون ،
ثم قاموا يصلون في معبد البيت الخاص ويدعون الإله أن يطيل في
أيامهم على الأرض .

وأمموا صلاتهم وبراحت ويمتلى تبتهل :

— نمروذ إيلي ، بارك لي فيهم وأطل أعمارهم .

وجاء إبراهيم فسمع أمه وهي تدعو النمرود الملك الذي
ألهوه ، وحز في نفسه أن تدعو أمه: نمروذ إلهي ! فكيف يكون
النمرود إلهًا وهو بشر مثلها ؟ !

ودخل إبراهيم عليهم وقال :

— ما تعبسون ؟

قالوا :

— نعبد أصناما فنظل لها عاكفين .

وقال هاران :

— نعبد مردوخ رب الأرباب وإله الآلهة ، من خصه أونو

وإنليل بملك أبدى في بابل . من قال له أبوه « أيا » : « أي بني !
ماذا هناك لا تعرفه وأستطيع أن أعلمك إياه ؟ إن كل ما أعرفه
تعرف أنت » . نعبد مردوخ ساحر الآلهة وإله الكهنوت وخالق
البشر .

وأضاف آزر :

— ١٥٣ —

— ونعبد نانا والآلهة الأخرى التي ترزقنا ونذهب عنا أسقامنا .

قال إبراهيم :

— هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم ، أو يضرون ؟

قالوا :

— بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون .

قال :

— أفرأيتُم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فلأنهم
عدو لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو
يطعمنى ويسقئ ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يمتنئى ثم
يحيين ، والذى أطعم أن يغفر لى خطيئى يوم الدين .

وقال هاران لأخيه إبراهيم :

— يا أخى تعال معنا غدا إلى العيد ، فسترى أن ديننا حسن .

وسترى كيف ندعو « بعلا » مردوخ السيد الكريم ونانا العظيم .

قال إبراهيم :

— أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ؟ !

واقتربت منه ليمتالى وقالت :

— يا بنى دع ما أنت فيه ، وتعال معنا غدا إلى المعبد تحتفل

مع قومك بالعيد إكراما لى .

وكان الليل جنًّا والنجوم بزغت ، فقام إبراهيم فنظر نظرة

فى المنجم ، فالتمعت فى ذهنه فكرة وقال فى نفسه : « وتالله

لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » .

وعاد إلى حيث كان أهله وقال :

— إلى سقيم .

ثم استأذن وانصرف وهو يرقب الصبح .

* * *

وفي الفجر دخل الأوريجاللو قدس الأقداس حيث تمثال الإله نانا إله القمر ، فأطلق البخور وركع وتلا صلواته ، وراح الكهنة ينظفون المعبد ويطهرونه للقادمين من كل فج ، ليقدموا الولاء والخضوع لحامي المدينة .

وقدم الكهان إلى الآلهة اللبن في أواني من المرمر ، ووضعوا لكل إله أمام عرشه الإلهي اثني عشر رغيفا ، وأمام البرج المدرج الذي ينتهي بمزار إله القمر ستة عشر رغيفا ، وجاءوا من مطبخ المعبد بالصحاف الرئيسية عليها الثيران والعجول والخراف ، والنعاج غذيت باللبن ، والطيور والدجاج والبط والبيض ، ووضعت جميعها أمام الآلهة .

ثم فتحت أبواب المعبد فدخل السحرة والمغنون والمغنيات يباشرون أعمالهم ، فراح السحرة يطلقون البخور ، والمغنون والمغنيات يتغنون بأعجاد الآلهة ، ويتلون الصلوات الحارة للإله القمر ، يقولون :

— يا رب يا من قدرته الوهابة تمتد بين السماء والأرض ،

ومن يجلب الغيوث والمواسم ،

ويسهر على الأحياء ..

وراح آزر يصنئ إلى الصلاة بقلب خاشع والدموع تنهمر على خديه ، فقد كان من الصنائع الذين استدعوا لصنع تماثيل

الإله في عيده الكبير .

واصطف الناس في شوارع أور ليركعوا لنمرود العظيم الملك
الإله وهو في طريقه إلى معبد نانا ، ليحمل الإله من معبده ويعبر به
النهر إلى معبد الصلوات .

وغصت الشوارع بالأميلو والموشكينو والعبيد ؛ برجال
القضاء ورجال الدين والكتبة والموظفين ، والتجار وكلاء الأعمال
وتلاميذ المدارس ، والعبيد والإماء . وكان الجنود بملابسهم
العسكرية والحراب في أيديهم يحافظون على النظام ، ويمنعون
تدافع الناس الواقفين خلف ظهورهم حتى لا يضيق الطريق الذي
سيمر فيه النمرود بن كوش .

وعزفت الموسيقى وراح المغنون والمغنيات ينشدون . وأقبل
النمرود في عربته وعلى رأسه تاج الملك ، وقد أرسل شعره على
كتفيه وأطلق لحيته ، ويغطي كتفه اليسرى جلد ماعز ، وجلس
على يسار ناظر القصر وأمين خزائن الملك .

وانطلقت في أثر عربة النمرود عربات الوزراء وقواد الجيش ،
وكان الناس كلما مر عليهم الملك الإله يركعون ويدعو كل منهم
من أعماق قلبه .

— ألقليطل الملك عمرى .

وأفعمت القلوب الرقيقة بالخشية ؛ فارتفعت زفرات الأفئدة
نحيبا ، وسالت العبرات تعلن عن الإيمان العميق .

ووقفت عربة النمرود لدى الباب الذي يؤدي إلى حرم
المدينة ، إلى الطريق المقدس ، فنزل منها ومد بصره إلى المعبد في

خشوع ، وكان البرج المدرج ينهض في الناحية الغربية يرمز
شموخه إلى علو مكانة نانا في السماء .

وتقدم النمرود وخلفه الوزراء ورجال الجيش وكبار موظفي
الدولة والعاهرات المقدسات ، فارتفعت الترتيلات والابتهالات .
وانطلق الموكب المقدس حتى اجتاز الباب الذي تقوم فوقه مساكن
موظفي المعبد ، وتقدم في الساحة الواسعة مارا بمخازن المعبد ،
فغرف الخدم ، فغرف البخور ، فالمطبخ حيث تطهى الضحايا ،
فالأفران حيث يجبز الخبز للآلهة ، فغرف الكهان والمغنين
والمغنيات وموظفي المعبد ، ومن وهبن أنفسهن لخدمة إله القمر .

وبلغ الموكب الساحة المقدسة حيث يقوم معبد نانا وأمامه معبد
زوجته نكال وبينهما المزار المشترك الحرم المقدس . وكان معبد
نانا بسيطا أما معبد نكال فكان أشبه بالقلعة ، جدرانه سميكه
وأبراجه محصنة ، زين بنقوش الفسيفساء موشاة بالذهب والفضة
والأحجار الكريمة من زمرد وفيروز ومرجان .

ودخل الموكب إلى حيث تماثيل الآلهة مردوخ وأنو وإنليل
وأيا ونانا وشماش وعشتار والبعول الكرام . فارتفعت الأصوات
ترتل الصلاة :

— يا رب من قدرته الوهابة تمتد ما بين السماء والأرض ،

ومن يجلب الغيث والمواسم ،

ويسهر عن الأحياء .

ومن يعظم في السماء عالية وصيته ،

ومن يعظم في الأرض عالية وصيته ،

ومن تسبح له الأرواح السماوية والأرواح الأرضية ،
 مشيبتك أنت في السماء مشرقة .
 نسألك أن تكشف لنا مشيبتك على الأرض ،
 فإن مشيبتك تطيل الحياة ، وتبسط لها الرجاء ، وتشمل كل
 كائن شمولا عجيبا .

وأنت تجرى العدل على قضاء الإنسان ،
 وما من أحد ينفذ إلى سرها أو يقيس عليها .
 أنت رب الأرباب ، ما لك من شبيه ولا نظير .
 وكان هاران يردد صلاته مع المصلين في حرارة ، ويتمنى لو
 كان معهم أخوه إبراهيم ليرى كم هو متين هذا الدين الذي آمن به
 الآباء !

ودخل النمرود فناء المعبد الرئيسي وحده ، وفتح باب قدس
 الأقداس ، فخرج منه الأوريجاللو ، فتقدم من النمرود وخلع عنه
 التاج وشارات الملك والبصوبحان والحلقة والعصا ذات الأسنان ،
 وسار حتى وضعها أمام تمثال كبير الآلهة مردوخ رب الأرباب ،
 ثم عاد إلى النمرود فضربه على خده ، وقربه من إله القمر ، وشد
 أذنيه ليركع ، فركع النمرود في خشوع وهو يردد أنه لم يقصر في
 حق ألوهيته ، لم يهن زواره ، وأنه غنى بمدينته العظيمة أور ،
 ولم يهدم أسوارها .

ولم يلبس بخلده آئذ أنه يتلو مثل هذه الصلاة لمردوخ في بابل
 ولأونو وشماش وعشتار ، ولكل الآلهة المحليين في المدن التي
 تنازلوا وأكرموها بالنزول فيها . وكان يجتهد لتطفر العبرات من

عينه حتى لا يحل الخراب بالبلاد أو يحيق به غضب الآلهة !
وأعيد إلى النمرود التاج وشارات الملك ، ثم انطلق والأوريجاللو
إلى قدس الأقداس حيث تمثال نانا ، فتقدم النمرود وحمل تمثال
الإله ، وخرج والأوريجاللو إلى حيث ينتظر الوزراء والقضاة
ورجال الدولة والأعيان ، وكان هاران بينهم يشرب بعنقه
لتبارك عيناه بروية الإله .

خرج الملك والأوريجاللو يحملان بينهما محفة عليها تمثال نانا ،
فلذا المكان يضح بالابتهالات :

— فليطل نانا العظيم في عمري .

يارب الأرباب مشيتك تطيل الحياة ، وتبسط الرجاء .

وراح هاران يبتهل :

— مولاي يا رب الأرباب ، يا من قدرته الوهابة تمتد بين
السماء والأرض ، خفف غضبك على إبراهيم وشرح صدره
لمحبتك ، فإن كنت يا مولاي غاضبا عليه فلا تؤاخذنا بذنوبه ،
ولا تعذبنا بآثامه . امنحنى يا مولاي الحياة أياما طويلة ، وضع
الخوف من عظمة ألوهيتك في قلب أبنائي ، واملأ نفوسهم بالحياة
الكاملة .

وما خطر على قلب هاران أن ابنه لوطا كفر بآلهته جميعا ،
وأنه أسلم وجهه لله رب العالمين .

وسار الملك والأوريجاللو يحملان تمثال نانا على المحفة وأصوات
التهليل ترتفع من كل جانب ، وخرجوا من المعبد إلى الساحة
الواسعة فإذا الناس ينضمون إلى الموكب المقدس ، وألسنتهم تلهج

بالحمد لإله القمر الذى يحمى مدينتهم .
وسار الموكب فى الطريق المقدس حتى وصل إلى المرفأ ،
ويقع المرفأ على رأس قناة تدخل فيها السفن القادمة من البلاد
البعيدة تحمل إلى المعبد الذهب والفضة والأحجار الكريمة والبحور
والغلال والمواشى والقرايين .

وكانت ترسو فى المرفأ السفينة المقدسة التى ستحمل الإله
نانا إلى معبد الصلوات على الضفة الأخرى من نهر القرات ، وكان
ثم سفن تكاد تحنى سطح الماء ، فأهل أور جميعا وكل من وفد
إليها من عباد إله القمر سيذهبون إلى معبد الصلوات ليؤدوا
الطقوس المفروضة .

وبلغ الملك والأوريجاللو وبينهما تمثال الإله المرفأ ، فدخلوا
السفينة المقدسة والمغنون يرددون الأناشيد والناس يهتفون بالدعوات
حتى لتكاد تبلغ السماء . ثم هرع الناس إلى السفن ، فما انسابت
السفينة المقدسة على سطح الماء حتى انطلقت فى أثرها وهى تضج
بالابتهالات .

وخلا المرفأ من الناس وبدا كأن ليس فى المدينة المقدسة
أحد ، فقد ذهب الكهنة والموظفون والعاهرات المقدسات والناس
جميعا إلى معبد الصلوات على الضفة الثانية من النهر المقدس .

وخرج إبراهيم من داره جذرا يترقب ، وكانت الشوارع
المؤدية إلى المعبد قد خلت من الناس ، فوسع من خطوه حتى
إذا بلغ الساحة الخارجية انسل إلى حيث تمايل الآلهة وأمامها
الاطعمة من خراف ونعاج وثيران ودجاج وبيض وفاكهة كثيرة .

ونظر إلى تماثيل الآلهة المنحوتة من الصخر ، فرأى في وسطهم
كبيرهم مردوخ قائما بأذنيه الكبيرتين اللتين تدلان على الحكمة ،
وقد وضع أمامه طعام كثير وأوان فيها نبيذ وخمر ، وكان يحف
به ناناً وشماش وعشتار وأونو ولانليل وأيا والبعول الآخرون ،
ووضعت على عروشهم الإلهية أرغفة الخبز ، وأمامهم أطعمة
وأشربة كثيرة .

ورماهم إبراهيم بنظرة ساخرة وقال لهم :
— ألا تأكلون ؟ ما لكم لا تنطقون ؟

وتناول فأسا وراح يضرب الآلهة ويحطمهم راثماً عليهم
باليمين حتى جعلهم جذاذاً ، إلا كبيرهم مردوخ فقد علق الفأس
بلحدي أذنيه الكبيرتين اللتين ترمزان إلى الحكمة !
وانسل من المعبد في هدوء وقد تهلل قلبه بالفرح ، فقد حطم
أصنامهم وبر بقسمه بعد أن ولّوا مدبرين .

وانتهت مراسم العيد وعادت السفن تنهادى على النهر ،
السفينة المقدسة وبها النمروذ والأوريجاللو وتمثال نانا المصنوع
من الذهب الخالص ، وفي أثرها السفن الأخرى وقد فاضت أفئدة
من فيها بالسرور وسكنتها طمأنينة عجيبة . بعد أن أقيمت
الصلوات وقدمت القرابين واحترقت الخطايا فزكت النفوس ،
كما تحترق أعواد البخور فيعبق المكان بعير يشرح الصدور .

ورست السفن عند مرفأ المعبد ، وغادر النمروذ والأوريجاللو
السفينة المقدسة بحملان بيتهما محفة عليها تمثال الإله ، وسار الوزراء
ورجال القصر وقواد الجيش ورجال الدولة خلف الملك والإله ،
وسار الكهنة على جانبي المحفة برءوسهم وذقونهم الخليقة وملابسهم
البيضاء . وانسابت ألحان المزامير والأبراق والدفوف والطبول
والصنوج ، وارتفعت أصوات المغنيات يرحبن بعودة الإله إلى
قدس الأقداس ، إلى معبده الذى تنازل وقبل أن ينزل فيه ليحمى
مدينته المقدسة أور الكلدانيين .

شمل الفرح الجميع إذ حالف التوفيق كل الطقوس التى
أجريت أيام العيد ، فلذرف النمروذ الدموع لما ركع أمام تمثال
نانا وكان هذا بشيرا برضى الآلهة عن أور وأهلها ، وغمرت
الأنوار معبد الصلوات ، وتلاأ سنا الإله القمر فى كبد السماء ،
(إبراهيم أبو الأنبياء)

— ١٦٢ —

وكانت السماء صافية ولم تجرؤ سحابة أن تخفى وجه الإله عن عبده
في ليلة عيده !

وقابل آزر ابنه هاران فتهلل فرحا وضمه إلى صدره
وقال له :

« فليطل الإله ناناء في عمرك يا بني .

وانطلق الأب والابن إلى المعبد مع المنطلقين ، وهما يرددان
الابتهالات والدعوات في إيمان عميق وخشوع يليق بمقام الإلهين
العظيمين : نمرود الملك الإله ، وناناء الإله الأعظم الذى زين الدنيا
بولديه شماش وعشتار !

وسار الركب في الطريق المقدس . وعادت العاهرات
المقدسات يتخذن أماكنهن على جانبي الطريق يمارسن تضحياتهن
بتقديم أجسادهن قربانا لعشتار .

ودخل النمرود والأوريجالو يحملان محفة الإله إلى المعبد .
وإذا بمنظر ما كان يخطر على بالهما يفجأهما ويكاد يذهب بصوابهما .
فقد أصبحت تماثيل الآلهة كلها جذاذا إلا تماثيل مردوخ فقد ظل
سليما كعهدهم به ، إلا أن فأسا علقت بإحدى أذنيه اللتين ترمزان
إلى الحكمة .

ورأى الناس ما حل بالهتهم فامتألت قلوبهم بالحنق والغيط .
وبكان أكثر الناس حنقا الأوريجالو والكهنة والكاهنات وموظفو
المعبد ، فما حل بالهتهم إنما ينذر بزوال سلطانهم وانقطاع سيل
الهدايا المتدفق على مخازن الآلهة .

وفطنوا في مثل لمح البصر إلى أن ما حدث إنما يهددهم في

أرزاقهم : ويمنع تدفق الذهب والفضة والثياب والغنم والماشية والقمح والشعير والبلح والتين وكل الطيبات إلى مخازن المعبد : كانوا أكثر الناس علما بأن الآلهة لا يأكلون شيئا مما يساق إلى معابدهم ، وإنما كل هذه الخيرات توزع عليهم هم أنفسهم ، وتحمل إلى بيوتهم وضياعهم .

خافوا أن ينصب ذلك الكنز الثمين : أن يذهب سلطانهم الذى يمكنهم من أن يسترخوا الناس ويسرقوهم . فكانت ثورتهم عارمة فصاحوا مزجحين :

— من فعل هذا بآلهتنا ؟ إنه لمن الظالمين .

ونظر آزر إلى هاران وهو يشعر بالقلق . وإذا ما ارتسم على وجه ابنه يؤكد مخاوفه ، فاشتد وجيب قلبه وراح يتلفت ويقلب وجهه في وجوه الغاضبين الموتورين .

وقال النمرود في غضب وقد أحزنه أن تمثاله تحطم مع ما تحطم من التماثيل :

— لا بد أن أعرف من فعل هذا بآلهتنا .

وتقدم بعض الناس وقالوا وهم يسجدون :

— أيها الملك المعظم .. سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم .

ونظر هاران إلى أبيه فوجده يترنح ، فلف ذراعه حوله وراح يعاونه على أن يشق طريقه بين الجموع الثائرة التى كانت تتوعد إبراهيم بالويل والثبور .

وقال النمرود :

— فاثوابه على أعين الناس لعلهم يشهدون .

وانطلق الجنود إلى بيت إبراهيم وفي أثرهم آزر وهاران .
وكان آزر يشفق على ابنه الذى ألقى بيديه إلى التهلكة لما تحدى السادة
البعول : وسخر من كبيرهم مردوخ إله الآلهة ورب الأرباب .
وكان هاران يعتب على أخيه الذى لم يستمع إلى نصحه ، ولو فعل
وخرج معهم لرضيت عنه الآلهة وأطالت في عمره ، ولما كتب عليه
مردوخ الخراب .

وأيقن هاران أن أخاه لا محالة هالك ، وأن ربه الذى كان
يدعوهم للإيمان به لن يستطيع أن ينجيه من النمرود وجنوده ،
ومن الشعب الثائر الذى يطالب برأسه .

وقبض الجنود على إبراهيم وارسم على وجهه سارة الملح .
ورأى لوط ما نزل بامرأة عمه الحبيب فدنا منها وقال :
- أتعلمين أن إبراهيم مرسل من ربه ؟

- نعم .

- ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون . إن ربه لن
يتخلى عنه .

وانطلق الجنود بإبراهيم وآزر وهاران ولوط وناحور وأهل
بينهم ، والناس من حولهم يزجرون :
ورأى أحد الكهنة إبراهيم وهو بين الجنود فهجم عليه وهو
يصبح :

- انصروا آلهتكم .

وأراد الناس أن يفتكوا به إلا أن الجنود حالوا بينهم وبينه :
وراح لوط يدعو الله قائلا :

— ١٦٥ —

— ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . ربنا نجنا
من القوم الظالمين .
وألقى إبراهيم في السجين حتى تحين محاكمته على أعين
الناس .

* * *

وانعقدت المحكمة في ساحة المعبد وكان يرأسها قاضيان
وإحدى كاهنات معبد ناتنا . وجلس النمرود يحف به وزراؤه
ورجال الدين ورجال الدولة ، وعن يمين المحكمة جلس الشهود ،
وعن يسارها المحكمون وكانوا من الرجال والنساء وشيوخ المدينة .
وجيء بإبراهيم من سجنه ، ونادى القاضى على الشاهد الأول
فمثل أمام المحكمة ، وقال له القاضى :

— أقسم أن تقول الحق ..

— أقسم بمردوخ العظيم إله العدل أن أقول الحق ..

— أتعلم أنه لو ثبت عليك الكذب بعد أداء اليمين لحكم عليك

بالموت ؟

— أعلم .

— حسن . قل لنا ما تعلم عن تحطيم آلهتنا . أرايت إبراهيم وهو

يحطمها ؟

— لا ، ولكن في أحد الأيام إذ كنت في المعبد جاء إبراهيم

وقال لنا : « ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون » ؟ قلنا له :

« وجدنا آباءنا لها عابدين » قال : « لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ذلك

مبين » .

وأخذ اليهود يلقون بشهاداتهم . وسارة ولوط وإيمتلى وآزر وناحور وهاران وهاران الكبير يصغون ، وهم جميعا وجلون ، إيمتلى وآزر في كرب شديد . وهاران وناحور وأزواجهما وأولادهما غلب عليهم اليأس . أما سارة ولوط فكادا ينوءان لولا أن ربط الله على قلبيهما .

ونودى على إبراهيم فقام مهيبا وتقدم رافع الرأس ثابت الخطو . حتى إن النمرود اعتدل ولاح في وجهه الاهتمام الشديد :

وقال القاضى الخالس فى الوسط :

— أأنت فعلت هذا بالهتينا يا إبراهيم ؟

فأشار إبراهيم إلى مردوخ وقال :

— بل فعله كبيرهم هذا . فاسألوهم إن كانوا ينطقون :

ورجع المحلفون إلى أنفسهم وراحوا يتشاورون فقال أحدهم :

— لقد صدق ، إن مردوخ رب الأرباب وإله الآلهة وخالق

الناس كره أن يعبد معه غيره ففعل ما فعل . إن ما حدث إن هو

إلا نذير منه ، آية من آياته ، دعوة إلى عبادته وحده :

وقال آخر :

— وهل نعبد إلا إياه ؟ ما الآلهة الأخرى إلا ظل له .

— إن ما يقوله إبراهيم حق .

— إنكم أنتم الظالمون .

ثم نكسوا على رؤوسهم :

— لقد علمت ما هؤلاء ينطقون :

قال :

— أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ؟
 أف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون ؟
 وأرسل النمرود في طلبه فسار إليه جليلاً مهيباً . حتى إذا
 بلغ النمرود وقف منتصب القامة ولم يخر ساجدا .
 وسرت همهمة بين الوزراء ورجال الدولة ورجال الدين
 والناس أجمعين ، وانتاب آزر وإيمتلى الهلع ، وأحس هاران
 وناحور وأزواجهما وأولادهما الخزي ، بيد أن لوطا وسارة أحسا
 شيئا من الاعتزاز وإن غلف الحزن قلوبهما .
 وكنتم النمرود غيظه وقال :

— من ربك الذى تدعو إليه ؟

— رب السموات والأرض وما بينهما . فاعبده واصطبر
 لعبادته .

وقال كبير الوزراء فى إنكار :

— أإله غير النمرود ؟ إنه رب السموات والأرض وما بينهما .
 إنه إلهنا العظيم .

ووجه النمرود الخطاب إلى إبراهيم :

— لماذا لا تعبد ما يعبد قومك ؟

— لقد رأيت النار تلتهم آلهتكم ، فكيف أعبد ما تأكله
 النار ؟

— فلماذا لا تعبد النار ؟

— أولى من عبادة النار أن أعبد الماء الذى يطفئها .

— فاعبد الماء إذن .

— ١٦٨ —

- أولى من عبادة الماء أن أعبد السحاب الذى يحمله .
— إذن تعبد السحاب .
— أولى من عبادة السحاب أن أعبد الريح التى تبدده وتسير به
من فضاء إلى فضاء .
— فما بالك لا تعبد الريح ؟
— إن الإنسان يحتويها بأنفاسه ، فهو إذن أحق منها بالعبادة .
وحاج النمرود إبراهيم فى ربه وقال :
— إن كنت فى ريبة من أنى ربك ، فقل لى من ربك ؟
قال إبراهيم :
— ربى الذى يحيى ويميت .
فقال النمرود :
— أنا أحيى وأميت :
فسأله إبراهيم :
— كيف يحيى ويميت ؟
قال :
— آخذ الرجلين قد استوجبا القتل فى حكمى ، فأقتل أحدهما
فأكون قد أمتته ، وأعفو عن الآخر فأتركه فأكون قد أحييته .
قال إبراهيم :
— فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأتى بها من المغرب :
فبهت الذى كفر ، وساد الصمت ، وأخذ آزر ينظر إلى إسماعيل .
فى يأس فقد حكم إبراهيم على نفسه بالموت ؛ تحدى الآلهة وجعل
الأصنام جذاذا وألزم الحجة الملك الإله .

والتقت عينا سارة بعيني لوط ، كان في أعينهما أسي بيد أنها التمعت بريق الانتصار .

إن إبراهيم وهو في محنته ينصر ربه ، وما كان ربه ليتخلى عن ينصره .

وعاد المحلفون يتشاورون . لقد كفر إبراهيم بآلهة آبائه وسخر منهم لما أشار إلى مردوخ وقال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . ولم يكتف بذلك بل تطاول على النمرود الملك الإله . وقر رأيهم على أمر فقالوا :
- احرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين .

وانهارت إيمتالي وبكى آزر ، وخف هاران الكبير يشد آزر أخيه ويواسيه ، وعلا الإظلام وجه هاران الصغير فقد لطح أخوه إبراهيم أسرته بالعار وأتى بما لم يأت به أحد من قومه من قبل .

وجاء الجنود فأخذوا إبراهيم وعادوا به إلى السجن ، وانصرفت سارة وهي تكاد تموت كمدًا ، وسار إلى جوارها لوط وهو حزين ولكنه لم يقنط من رحمة ربه ، فكان يرفع عينيه إلى السماء ويدعو الله سرا أن أدخل رسولك في رحمتك . فإنك يارب لا تضيع أجر المحسنين .

عكف النحاتون على صنع أصنام للآلهة بدل الأصنام التي جعلها إبراهيم جذاذاً ، وكانوا يعملون ليل نهار خشية أن تنزل عليهم الآلهة كسفا من السماء أو يحرق بهم غضبها .
 وراح السحرة والكهان يقيمون المراسيم في معبد الإله "نانا" إله القمر ، ويحضون الناس على تقديم القرابين حتى ترضى الآلهة ويذهب عنها غضبها الذي أثاره إبراهيم بما فعل .
 ودأبت فرق المغنين والمغنيات على ترديد الأناشيد . ولم تنقطع الصلوات أثناء الليل وأطراف النهار ، ودبت الحياة في مطبخ المعبد ، فقد زادت القرابين على ما كان يتصور حتى بلغ نصيب كل فتاة من بنات الهوى ضلع خروف .
 وتقدم الرجال والنساء إلى تمثال مردوخ في خشوع وركعوا له ، وراح كل واحد منهم يناجيه :

- إلهي أنا بريء مما فعل إبراهيم .

يا رب الأرباب لئن عافيتني لأجمعن خطيئتي لإبراهيم .
 يا إله الحكمة يا إله العدل يا خالق البشر ، أطل في أبيي على الأرض حتى أثار لعزتك وأنصرك وأنتقم لك ممن سخر من جلالك على أعين الناس .

وذهبوا إلى التماثيل التي راغ عليها إبراهيم باليمين وأخذوا

يناجونها وقد فاضت أعينهم بالدموع :

- أيها الآلهة العظام لأن نال ذلك الجاحد بكم من تماثيلكم .
إن نجومكم عالية في السماء تبرز علينا بنورها وترسل إلينا رحمتها .
أيها الآلهة العظام في السماء . لا تحملوا في قلوبكم المقلسة
غضبنا علينا ، فقد أقسمنا لننصرنكم وانحرقن من فعل بكم ما أوجع
قلوبنا وطعننا في أعز مقدساتنا .

أيها الأرباب قروا عينا فساعة الانتقام ذنت : ولنجمعن له
خطبا ما جمع لأحد قبله ولن يجمع لأحد بعده .

أيها الآلهة العالية في السماء ، إن النار لن تبرد في صدورنا حتى
قلتهم ألسنة النار ذلك الذي اعتدى عليكم دون أن يخشى بطشكم .
وغاب عنه أنكم ستثأرون منه بأيدينا .
شكرا لكم أيها الأرباب أن جعلتم أيدينا هي العليا ولم تمكنوه
أن يفر منا .

شكرا لكم أيها الأرباب أن كشفتم لنا مشيتكم على الأرض .
ومشيتكم في السماء مشرقة .

وجاء آزر يمشي على استحياء يحمل تماثيل الآلهة التي صنعها
ويتلفت في خوف . لقد كانت خشيته من الناس أشد من خشيته
من الآلهة . وإن كان يحاول أن يقنع نفسه أن مردوخ وحده هو
الذي يستطيع أن يكتب عليه الخراب .

وكان ذابلا حزينا فسيلقى بابه في النار بما كسبت يده ،
وهو لا يقر لإبراهيم على ما فعل ولكنه ابنه ، فلذة كبده ، فلن
كان حنق عليه لتسفيه آلهتهم ، إنه بضعة منه يؤذيه ما يؤذيه .

وكان ذابلا حزينا لأن نظرات الناس إليه فيها عداوة وتحقير .
 إنه مثلهم يؤمن بآلهة آبائه ، وقد يكون أشد منهم تعصبا لها ،
 ولكن ما فعله إبراهيم جعله هدفا للسخرية ولزراية الناس أينما
 سلك في شوارع أور . وتعرفت عليه إحدى عاهرات المعبد
 وكانت تشتري منه تماثيل عشتار لتبيعه لمن يعاونونها على تقديم
 جسدها قربانا إلى إلهة اللذة العطوف ، فقامت إليه . وراها آزر
 وهي تقبل نحوه فاغتصب ابتسامة ، فلو أنها اشترت منه تمثالا
 لقصت على المقاطعة التي فرضها عليه قومه دون ذنب جناه إلا أن
 يكون إنجابه لإبراهيم ذنبا لا يغتفر .

وأصبحت العاهرة أمامه وجها لوجه ، وكانت باسرة الوجه
 يشع من عينيها الغضب ، فنظرت إليه شررا وبصقت على وجهه ،
 فأطرق آزر في أسى وتدلّت يداه بتماثيله وانسحب من المعبد وهو
 حزين ، يفكر في البلاء الذي نزل به منذ جاءهم إبراهيم يدعوهم
 إلى إلهه ، ويعيب آلهتهم ويحطم أصنامهم .

ولو اقتصر الأمر على مقاطعة الناس للتماثيل التي يصنعها
 لكان الأمر ، فهو يستطيع أن يعيش من الأرباح التي يحصل عليها
 من تجارته هو ولوجال ، أو من الفوائد التي يقدرها القانون
 بعشرين في المائة على القروض التي يقرضها الناس ، ولكن الأمر
 أبعد من الخبز وحاجات الحسد ، إنه العداوة القاسية التي انطوت
 عليها قلوب الناس .

• • •

وراح البناءون يبنون بنيانا ضخما لتوقد فيه النار التي سيلقى

فيها إبراهيم : وكان الناس كلما مروا بهم باركوهم وحثوهم على العمل ليطفئوا بالنار نار الخقد التي اشتعلت في صدورهم . ولما تم البنيان أقبل الرجال والنساء شيوخا وشبانا والكهنة والكاهنات وبنات الهوى ، أقبلوا من كل فج يحملون صلاب الحطب من أصناف الخشب ليوفوا نذورهم التي نذروها للآلهة .

ثم أشعلوا النار في كل ناحية من الحطب فاندلعت ألسنة اللهب إلى السماء . حتى كان الطير من شدة وهجها وحرها يحترق إذا مر بها . وصارت النار جحيا تشوى وجوه من يدنون منها . فأخذ الناس يتشاورون فيما يفعلون ليلقوا بإبراهيم في ذلك الأتون دون أن يصابوا هم بسوء . فاهتلوا إلى أن يصنعوا منجنيقا يقذفونه به في الحميم .

وجاء الملأ ينظرون ، وجاءت سارة ولوط وآزر وإيمتلى وهاران وناحور وقومهم ، وجاء النمرود ووزراؤه ورجال الدولة وجلسوا على البعد ينظرون : وكان العرق يتفصد من وجوههم فإن لفح النار كان يسرى في جنبات أور . وكان الدخان محجب المعبد والبرج المدرج وجبال مغير .

وجيء بإبراهيم من سجنه فضج المكان بهتافات السخط والوعيد . وتعلقت به عيون إيمتلى وآزر وإخوته وقاضت من عيونهم الدموع ، وخفق قلب سارة وتشبث بلوط أن تنهار .

ورفع إبراهيم رأسه إلى السماء وقال :

— اللهم أنت الواحد في السماء والأرض . لبس في الأرض أحد يعبدك غيرى . لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين . لك

الحمد ولك الملك لا شريك لك .
 وكانت سارة قد آمنت برب إبراهيم ، وكان لوط قد تلقى
 عن عمه تعاليم دينه . ولكن أحدا منهما لم يكن يعبد الله بعد عبادة
 إبراهيم إياه .
 ووضع إبراهيم في المنجنيق وأطلق في الهواء فوق في الحميم ،
 وارتفعت صيحات الفرح تشق عنان السماء ، وضاعت فيها أنات
 الأسى التي انطلقت من قلوب إيمتلى وآزر وسارة ولوط .
 ومرت الساعات وألسنة النار تتراقص ، ثم أخذت تنحفت
 رويدا رويدا .

واقرب رجل من الحميم ينظر فصاح في فزع :
 — رأيت إبراهيم حيا في النار .. رأيت إبراهيم حيا في النار ..
 وسرت الصيحة بين الناس سريان النار في الهشيم . وتجاوبوها
 في دهشة حتى بلغت النمروذ .
 وضمت سارة لوطا إلى صدرها في فرح . وصاح لوط وهزه
 السرور :

— إنما آية .. آية من ربه .
 وقام النمروذ فركب عربته وانطلق في أثره رجال دولته .
 كان في طريقه إلى برج إله نانا ليرى من فوقه حقيقة ذلك النبأ
 الذي انتشر بين الناس .
 وبلغ النمروذ قمة البرج ونظر فإذا إبراهيم قاعدا في النار حيا .
 فذهل ، إنه لا يصدق ما يرى فإن النار التي أجمعت كانت تكنى
 لتأتي على أهل أور جميعا .

وسمع أخوه هارن ما ذاع بين الناس فلم يفرح . فإنه إن كان ما قيل حقا فهذا دليل على قلرة إله إبراهيم إذ نجاه من نار كانت تشوى الطير التي تمر بها ، وإنه لما يثير حنقه أن يفعل إله إبراهيم ما لا يقدر آلمته على فعله .

وخرج إبراهيم من النار ولم تحرق إلا وثاقه ، وصاحت سارة من الفرح وقال لوط في ابتهاج :

— كانوا يسألونه أن يأتي بآية ليصدقوه ، وها هي ذي أعظم آية ، إنهم سيؤمنون . ليؤمن جميعا .

وانطلقت يمتألى نحو إبراهيم تصيح وتغسل الدموع وجهها :

— ابني .. ابني الحبيب .

إلا أن الجنود حالوا بينها وبينه إذ كان في طريقه إلى النمرود . وذهب إلى حيث كان النمرود مرفوع الرأس ثابت الختان يردد ما كان يقوله وهو في النار : « حسبي الله ونعم الوكيل .. حسبي الله ونعم الوكيل » وقد هانت في عينيه قوى الأرض جميعا بعد أن رأى قدرة الله . إنه يسير وروح القدس معه أينما سار ، تخفق بين جنبيه قوة روحية هائلة ، قوة تيسر له أن يتحدى جباري الأرض أجمعين .

وراح النمرود الملك الإله الذي يخر الناس سجدا تحت قدميه يقلب نظره فيه وهو مشلوه . وقد تقاصرت نفسه بعد أن هبت عليه رياح الخوف ، فذلك الخارج من النار عليه مهابة وجلال وإشراق تغولها الجباه .

ولم يفرخ روع النمرود وراح يرقب إبراهيم وهو ماخوذ

ثم قال :

— ما أعظم ربك يا إبراهيم ؟ كيف خرجت سالما من هذا
الجحيم .

— أوحى إلى ربى أنه قال : يا نار كوني بردا وسلاما على
إبراهيم ، فكانت كما أمرها ربى .

وخشى الكهان أن يؤمن النمرود بآله إبراهيم فتذهب ريجهم
ويمحق سلطانهم فقالوا :

— خرج منها سحره . هذا سحر مستمر .

ولم يأبه النمرود بما قالوا فقد رأى آية لا يستطيع أن ينكرها
فقال :

— نعم الرب ربك يا إبراهيم . إنى ذابح له أربعة آلاف بقرة .

— إذا لا يقبل الله منك ما دمت على شئ من دينك هذا حتى
تفارقه إلى دينى .

— يا إبراهيم لا أستطيع ترك ملكى ، ولكنى سوف أذبحها له .

وورمت أنوف الأوريجاللو ورجال الدين فقالوا :

— هذا سحر .. سحر مستمر .. سحر مبین ، مهما تأتينا به

من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين .

وصاح صائح منهم :

— انصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين .

وتحركوا ليفتكوا بإبراهيم ، فأشار النمرود بيده أن قفوا

وقال :

— اتركوه .

وكفروا بآية الله وأعرضوا عنها وراحوا يؤكّدون أن إبراهيم ما خرج من النار إلا بسحره المبين .

وذهب لوط إلى أبيه هاران وقال :

— أبى ! آمن بما أنزل إلى إبراهيم من ربه .

والتفت إلى آزر وإيمتلى وعمه ناحور وقال :

— قولوا آمنا بالله وما أنزل إلى إبراهيم .

فقال هاران في كبرياء :

— لن نوّمن حتى نوتّى مثل ما أوتى .

وانصرف هاران وهو يزفر نار الحقد التي تأكل صدره .
وقد استولت عليه فكرة أنه إذا كان إله إبراهيم قادرا على أن ينجيه من النار ، فإن آلهته قادرة على أن تجعل النار بردا وسلاما على هاران .

وانطلق إلى المعبد وهو محموم بعد أن اغتسل ونظّهر . وذهب إلى صنم مردوخ وراح يصلى في حرارة وبيتهل إليه أن يأمر النار أن تكون بردا وسلاما عليه كما أمرها رب إبراهيم فكانت بردا وسلاما عليه .

وظل يبيتهل إلى الآلهة جميعا لا يرقأ له دمع ويقول في حرارة :

— أيها الآلهة ، أيها السادة البعول ، امنحوني مثل ما منح إله إبراهيم أخى .. اجعلوا النار بردا وسلاما على كما كانت بردا وسلاما على أخى .. أيها النشادة البعول لتكن مشيتكم في الأرض مشرقة كما هي في السماء مشرقة .

(إبراهيم أبو الأنبياء)

وخرج هاران من المعبد وقد استولت عليه الفكرة وملكت كل حواسه ، كان يريد أن يعلن في الملاء أنه سيدخل النار ويخرج منها سالما بإذن آلهته ، ليؤكد لضعاف الإيمان أن آلهته قادرة على أن تجعل النار بردا وسلاما عليه كما جعل رب إبراهيم النار بردا وسلاما على أخيه ، بيد أنه آثر أن يقوم بالتجربة وحده بعيدا عن العيون قبل أن يعلن على الملاء ذلك الامتحان .

وفي جنح الليل سلك طريقا قفرا . وكان القمر يسطع فأحس راحة فإن إلهه معه يبارك ما هو مقدم عليه .

وجمع هاران حطباً وأشعل فيه النار ثم ألقى بنفسه فيها . فلسعه النار فصرخ وخرج منها يعدو ويصرخ في فزع ، ثم سقط على الأرض يتلوى ويئن حتى فاضت روحه .. ونور القمر يغمر جسده التي همدت .

جلس آزر مطرقا حزينا بعد أن أنزل به مردوخ الخراب ،
جلس يزفر حسرة على ابنه هاران الذى أراد أن يوتى ما أوتى أخوه
إبراهيم فراح يمتحن قدرة آلهته ، فراح طعمة النيران .

لم تطل أيام ابنه هاران على الأرض بل ذهب إلى العالم السفلى
إلى الأرض التى لا رجعة منها . ولم تحتجبل إيمتلى العجوز قسوة
القدر فهانت حزنا على ابنها ، ذهبت إلى العالم السفلى وتركته وحده
يعيش على الذكريات ، ويقاسى مرارة الوحدة التى اشتدت وطأتها
عليه لما أصر قومه على مقاطعته وإبداء العداوة له .

لقد نبذه الناس لأن ابنه إبراهيم كفر بالآلهة وحطم أصنامها ،
نبذوه لأن ابنه سخر من الآلهة جميعا على أعينهم . ولم يذكر الذين
ظلموه أن ابنه الآخر هاران ضحى بنفسه ليدلل على قدرة آلهتهم ،
وأنه كان أكثرهم إيمانا بالسادة البعول الكرام .

ونسى آزر أو لم يخطر على باله أن كهان أور ورجال الدين
فيها حققوا على هاران حقدهم على أخيه . فقد خرج إبراهيم من
النار معلنا على رموس الأشهاد قدرة إلهه التى ما كانت تخطى على
قلب بشر ، بينما تردى هاران فى النار فجاء بدليل مبين على عجز
آلهتهم وهوان أمرها .

قال الكهان إن بيت آزر بيت حلت به اللعنات ، وأن هاران

احترق بسبب هذه اللعنات ، وأن الآلهة أثبت أن تمد أيديها إلى هاران لأنه تدنس بدعوة إبراهيم فتركت النار تلتهمه ولم تأمرها أن تكون بردا وسلاما عليه .

وصدق الناس هذه الدعوى حتى آزر نفسه صدقها ، ألم يحترق هاران ؟ ألم تمت إيمتالي حزنا عليه ؟ لقد تجلت قدرة مردوخ إذ كتب عليه الخراب ! وسكن الناس إلى ما يدعيه الكهان ولم يطلبوا منهم أن يلقوا بأنفسهم في الحميم وأن يخرجوا منها سالمين بسلطان آلهتهم أو بسحر مستمر ، وهم الأطهار الأبرار الذين لم تحل عليهم اللعنات بسبب دعوة إبراهيم .

وبات آزر نهباً لأفكاره مذمات هاران وحملت إيمتالي على الأعناق . كان يرتجف من غضب آلهته فإن إبراهيم ما يزال على عداوته لهم : بل وزادت عداوته ضراوة بعد أن خرج سالما من النار التي ألقوه فيها .

وقد أعلنت سارة ابنة أخيه إيمانها برب إبراهيم وصارت تقضى نهارها وليلها في المحراب تدعو ربها بصوتها الرخيم حتى خشي الجيران أن تفتن أبناءهم . وآمن له لوط على الرغم من أن أباه مات في سبيل إعلاء كلمة آلهته . وآمن المستضعفون من الناس سرا بما جاء به إبراهيم ، ترى ماذا يحيق به من خراب بعد ما حل به ؟ وماذا تفعل الآلهة به أيضا لتعلن عن غضبها ؟

كان آزر كالغريق الذي يجاهد ليتشبث بأي شيء ، لم يجد أمامه إلا أن يظهر الخضوع لآلهته وأن يفعل ما يسكن غضبها . فكرر أن يخرج إلى المعبد وأن يقدم القرابين للآلهة حتى ترضى ،

ولكنه تذكر العداوة التي يستقبل بها كلما انطلق إلى المعبد فارتعدت فرائضه . إن تحقير الناس إياه أليم لا يطاق حتى ولو كان في سبيل الآلهة !

فلم يكن أمامه إلا أن يذهب إلى معبده الخاص يبكي وينتحب للآلهة عسى أن ترق له وتعفو عنه . فدخل المحراب وركع خاشعا لمردوخ وناناء وشماش وعشتار وإنليل وأنو وأيا وكل من يعرف ومن لا يعرف من الآلهة ، وانغثت الصلاة من قلبه حارة والابتهاالات محلجلة .

وعكف على صلاته وبكائه ودعواته حتى نال منه الجهد . كان يرجو أن يدرأ غضب الآلهة بصلاته ونسكه ، أن يرفعوا عنه مقتهم وغضبهم ، أن يدعوا أيامه الباقية على الأرض تنقضي بسلام وكفاه ما قاسى من موت العزيزين هاران وإيمتالى ! وجاء إبراهيم يسعى إليه فهو مذ مات هاران وأمه لا يفارق أباه بل يؤنس في وحدته ويبره ويخفض له جناح الذل من الرحمة ولا يقول له إلا قولاً معروفاً .

وبقى إبراهيم مع أبيه إلى أن صعد إلى غرفته لينام ، فخرج إلى ملكوت الله يفكر ويتدبر آياته ، ويحس ذلك التناغم بينه وبين الكون الذى يحسه كلما خرج إلى الحلاء .

وتذكر ما كان بينه وبين جده ناهور إلى أن مات ، وما كان بينه وبين أخيه هاران حتى ذهب إلى الله ، وما كان بينه وبين أمه حتى فاضت روحها بين يديه .

مات ناهور وهاران وإيمتالى . مات جده وأخوه وأمه ،

- ١٨٢ -

وسيلحق بهم حين يأذن الله أبوه وزوجه ، ثم يكون يوم يذهب فيه هو نفسه إلى الرفيق الأعلى ، كل الناس يذوقون الموت .
الموت ؟ وماذا بعد الموت ؟ البعث ! فالملوتى يبعثهم الله وإليه يرجعون . سيحىء يوم يبعث الله فيه الناس جميعا فينبئهم بما عملوا ، فقد أوحى الله إليه أن « ما خلق الناس ولا بعثهم إلا كنفس واحدة » .

لقد آمن بما أوحى الله إليه ، آمن بأن الله هو الذى يحيى ويميت وأنه قادر على أن يحيى العظام وهى رميم ، وأنه إذا قضى أمر فلانما يقول له كن فيكون . فراح يسبح باسم ربه الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى ، فأحس أن الكون كله يسبح معه الله ويقدس له .
واتسعت الرؤية أمام بصيرته ، واجتازت روحه حدود نفسه فإذا بها تتحد فى روح الكون وتنسق مع ما حولها ، وترهف السمع لما يلقى فيها ، لما يوحى إليها . فذكر إن نفعت الذكرى . سيدكر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى ، الذى يصلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيى ، قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ، بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى .
وامتلأت نفسه بالأنس إذ بناجى ربه ويتلقى منه ما يوحى إليه ، فقال :

— رب أرنى كيف تحيى الموتى .

قال :

— أو لم تؤمن ؟

قال :

— بلى . ولكن ليطمئن قلبي .

قال :

— فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا .

وأخذ إبراهيم أربعة من الطير ، وانطلق إلى جبل مغير فذبحها وقطع كلا منها أربعة أجزاء ، ثم جعل على كل جبل من الجبال جزءا وعاد إلى الوادى ودعا الطير باسم الله ، فإذا بها تأتي إليه سعيا ترفرف بأجنحتها فى الهواء . فتهلل قلب إبراهيم بالفرح ، لم ير كيف نفخت الروح فى أشلاء الطير ، ولكنه رأى أثر القدرة ، فما كانت جبال مغير إذا تجلّى لها الله لتستقر فى مكانها .

واطمأن قلب إبراهيم وزاده الله إيمانا على إيمان ، فانطلق وقد أشرق النور فى روحه يذكرّ الناس إن نفعت الذكرى ويقول لهم : قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى ، وأن الله عزيز حكيم .

وعاد إلى من آمنوا يبصرهم فى أمر دينهم ، ويبلغهم ما أوحى إليه ويقول لهم :

— على العاقل ، ما لم يكن مغلوبا على عقله ، أن يكون له ساعات : ساعة يتأجج فيها ربه ، وساعة يفكر فيها فى صنع الله عز وجل ، وساعة يحاسب فيها نفسه فيما قدم وأخر ، وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال فى المطعم والمشرب .

وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا إلا فى ثلاث : تزود لمعاده ،

أو فرقة لمعاشه ، أولذة في غير مجرم .
وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شانه
حافظا للسانه . ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه .
وكان يذهب إلى المعبد وإلى الأسواق يدعو الناس إلى الله ،
كانوا من قبل يقولون : لولا يائئنا بآية من ربه ، وقد جاءتهم
الآية ظاهرة باهرة ، ولكن الكهنة طمسوا عقولهم وأوهموهم أن
ما حدث إن هو إلا سحر مستمر ، أفئتون السحر وأنتم
تبصرون ؟

وكان إبراهيم أواها حليما تنهمر دموعه إذا ابتهل إلى الله ،
ولكنه ما كان يدعو الله قط أن يأخذ قومه بذنوبهم . بل كان
يستغفر لهم ويلتمس لهم المعاذير .
واتخذ قومه هزوا وسخروا منه ، ولما ضاقوا به أخذوا
ياتمرون به ليقتلوه أو ليخرجوه من ديارهم . وكان الكهنة ورجال
الدين أشد الناس عداوة له ، وما كانت عداوتهم له غيرة على
آلهتهم وما نالها من تحقير ، بل كانت خوفا على سلطانهم وأن يجف
نهر الخيرات المتدفق إلى خزائنتهم ومخازنهم ودورهم وضياعهم .
وجاء وفد منهم وقالوا له :

— اخرج من ديارنا .

فقال في ثبات :

— لا أفعل حتى يأمرني ربي .

فقالوا في غيظ شديد :

— لتخرجن أو لنقتلنك .

— ١٨٥ —

— لن أخرج إلا أن يأمرني ربي .

وأوحى الله إليه أن اخرج من البلدة الظالم أهلها فراح يتأهب للهجرة ويجمع عبيده ومواشيه . وبلغ آزر أن إبراهيم خارج من أور فذهب إليه يطلب منه أن يحمله معه ، فلم يعد يطيق الوحدة التي يحياها ولا عداوة قومه ولا نظرات الاحتقار والزراية التي تصوب إليه كلما سلك طريقا من طرق أور .

وراح لوط يتأهب للخروج مع عمه ، فتشبث به أمه وتوسلت إليه أن يبقى معها بعد أن ذهب أبوه إلى الأرض التي لا رجعة منها ، ولكنه رفض طلبها وقال في إيمان عميق :
— إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم :

انطلقت قافلة الإيمان في رحاب الله ، مخلفة وراءها أور
الكلدانين بطرقاتها ومبانيها وبرجها العظيم الذى علا فى السماء
يخلد عظمة البشر ويشدهم إلى الأرض ، ولا يخلق بهم فى رحاب
السماء .

وانساب المؤمنون على ضفة الفرات ، وكانت الحقول تمتد
إلى مدى البصر إلى الآفاق البعيدة المغلفة بالمجهول ، وكان النهر
يتدفق بنعمة الله وصوت خريره فى أرواح المؤمنين تسبيح ، وكانت
السماء صاحبة والشمس ترسل أشعتها الحارة فيتفصد العرق من
الجباه وتمن الأجساد من التعب ، ولكن إشراقة النور التى تعم
القلوب كانت تحوّل كل مشقة إلى رضا وحبور ، فقد كانوا جميعا
منطلقين فى سبيل الله .. إلا آزر فقد خرج فرارا من الزرابة
والاحتقار ونظرات العداوة التى تطل من عيون الناس .

كان إبراهيم يسرى فى ملكوت الله سريان الروح القوية المؤمنة ؛
وكانت سارة تتألق فى جلالها الذى يبهى العيون وقد أضفى عليها
إيمانها جلالا يفوق كل جلال ؛ وكان لوط شابا قويا ، ولكن القوة
التي أمدّه الله بها بعد أن أسلم له وجهه تفوق كل قوة فيها قوة
الروح التى تأنى بما يعجز عنه البشر ، وكان العبيد الذين آمنوا
يستشعرون من العزة والحرية بما لم ينعم به الأحرار ، فلم يعد

رجاؤهم مشدودا إلى الأرض بل ارتفع وسما إلى ما فوق السموات .
وأقبل الليل وخفت حرارة النهار وهبت نياهم ندية أنعشت
النفوس والقافلة تجدد في السير . وما زال الناس في سيرهم حتى
أشرفت الشمس فنزلوا عن رواحلهم ونصبوا الخيام وأسلموا
أجسامهم للرقاد . ناموا ملء عيونهم وما فكر أحدهم في الدار التي
غادرها ولا في الفراش الوثير الذي هجره ، فقد أقام كل منهم
في قلبه بيتا لله ، بيتا لا ترتفع إليه بيوت الدنيا بما فيها من رياض
وزينة ومتاع .

ورقدت الأنعام والأغنام بالقرب من الخيام . إنها كل
ما خرجوا به من المدينة ولكنهم كانوا يحسون أنهم أغنياء .
فإن أرض الله الواسعة لهم ، ومياه النهر التي تجري بالخيرات
ملك أيامهم ، وكواكب السماء سخرت لهم ، فهم مذخرجوا
من أور في ضيافة الله .

وقاموا للصلاة واصطفوا جميعا خلف إبراهيم ، إلا آزر فقد
انتبد مكانا قصيا وراح يفكر فيما كان بينه وبين ابنه ، حتى إذا
طافت بذهنه ذكرى ذلك اليوم الذي اشتعلت فيه النار في آلهته
أطرق مليا وأصاخ سمعه لما كان بينه وبين إبراهيم من حوار :

— يا أبت إن النار أحق بعبادتك من أصنامك لأنها تحرقها .

— فلماذا لا تعبد النار ؟

— لأنني لا أحسب النار إلهًا لأن الماء يخمدتها .

— فلماذا لا تعبد الماء ؟

— لأنني لا أحسب الماء إلهًا لأن الأرض تبتلعه .

— فلماذا لا تعبد الأرض ؟
 — لأنى لا أحسب الأرض إلها لأن الشمس تجففها وتنشر على
 الكون كله أشعتها .
 — فلماذا لا تعبد الشمس ؟
 — لأنى لا أحسب الشمس إلها لأن الظلام يحجبها .
 — فلماذا لا تعبد ما نعبد ؟ لماذا لا تعبد القمر ؟ لماذا لا تعبد
 المشترى ؟

— لأنى لا أحسب القمر والنجوم والكواكب التى تظهر
 فى الظلام آلهة لأنها تحجب عند طلوع النهار ، وإنما الإله القدير
 على كل شيء هو خالق الشمس والقمر والكواكب والأرض
 وما عليها وخالقى وهادى إلى الحق المبين .

وراح آزر ينظر إلى المصلين وهو يعجب فى نفسه كيف آمن
 هؤلاء بما يدعو إليه إبراهيم ؟ كيف أساغت عقولهم أن يعبدوا إلها
 لا يرونه وليس له رمز فى السماء كمردوخ ونانا ، وشماش وعشتار
 والآلهة الأخرى ؟ إنه عندما يتناجى مردوخ يتمثل له فى خياله وهو
 جالس على عرشه وقد كبرت أذناه اللتان ترمزان إلى حكمته .
 وعندما يتناجى نانا يراه أمام عينيه هلالا دائما أبدا ، ويحس فى
 أعماقه أنه هو الذى يقيس الزمن وهو الذى ينهى الأيام والشهور
 والسنين للملوك المذنبين بالدموع والتأوهات !

وعندما يتناجى شماش وعشتار ولدى الإله القمر فهو يعرف
 من يتناجى ، وهو عندما يرفع عينيه إلى شماش فإنما يرفعهما إلى
 القاضى الأعظم الذى أنجب إلهين جليلين هما كتر وميشار — العدالة

والحق ، وهل هناك أجل من العدالة والحق ! إن شماش يطأ
الظلم تحت قدمه ويملى على أبنائه من الملوك والآلهة قوانين العدالة .

ترى ماذا يرى الذين آمنوا بإله إبراهيم عندما يرفعون أبصارهم
إلى السماء ؟ لقد قلب وجهه في السماء فلم ير فيها إلا آلهته وآلهة قومه ،
ولم ير إلا القمر والشمس والكواكب ، فكيف يريد إبراهيم منه
أن يحيد عن آلهته التي يراها ويعيش في كنفها إلى إله لا يراه .

لو أن إبراهيم دعاه إلى عبادة النار أو الماء أو الأرض أو
النجوم أو الشمس أو القمر لاستجاب له . فهذه آلهة ترى .
أما ذلك الذى يدعو إليه فما عرفه أحد من الآباء والأجداد .

وذكر آزر أن رجلا من المؤمنين بما يدعو إليه ابنه قال له :
إن الله طهر الأرض مرتين : مرة بالطوفان ومرة بالنار التي أوجبت
ليلتي فيها ابنه المبارك . ودعاه أن يسارع للإيمان والأرض
ما تزال طاهرة قبل أن يعود الفساد فيذب فيها مرة أخرى ، مثلما
استشرى بعد الطوفان .

وراح يفكر في هذه القولة : إنه يعلم أن الملوك الآلهة هبطوا
إلى الأرض بعد الطوفان ليحكموا الشعوب باسم الآلهة الذين في
السماء ، ومنذ ذلك الوقت والملوك الآلهة يمارسون سلطانهم .
فأين ذلك الفساد الذى يتحدث عنه ؟ وقال له الرجل إنه جاء في
صحف إبراهيم أن الله يقول للنمرود ومن على شاكلته : أيها الملك
المسلط المبلى المغرور ، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض
ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم ، فإنى لا أردّها وإن كانت
من كافر .

إله إبراهيم هو الذى بعث الملوك الآلهة ليحكموا بين الناس ؟
إن كان هو الذى بعثهم فماذا فعل آلهتنا ؟ إن آلهتنا اجتمعوا في
مجمعهم بعد الطوفان وأنزلوا الملكية من السماء ، وما كان للملوك
الآلهة أن يظلموا فإن كل ما يفعلونه عدل ، عدل إلهي ، ووصف
إبراهيم إياهم بالغرور والظلم وصف جافاه الإنصاف .

وخطر له بعد أن استراح إلى ما وصل إليه خاطر أقلقه .
إن النمرود الملك الإله ذبح لإله إبراهيم أربعة آلاف بقرة ، أكان
يضحي بكل هذه الأبقار إن لم يكن إله إبراهيم عظيما يستحق هذه
التضحية ؟ ! ووسوست أقوال الكهنة في صدره : إن إبراهيم
سحر الناس وخرج من النار بسحره ، وسحر النمرود حتى جعله
يذبح الأبقار . واستراح إلى همزات الشيطان . فأبوه ناحور
كان عالما بالسحر وأسرار النجوم . فلعل إبراهيم تعلم السحر
من جده على غفلة منه كما تعلم منه النظر في النجوم !

وعاد فكره إلى القلق الذى أصبح يساوره منذ جاء إبراهيم
بدعوة توحيد الآلهة جميعا ، فقد تبادر إلى ذهنه سؤال حائر
لم يعرف له جوابا : إذا كان إبراهيم سحرهم حقا فلماذا لم يعاقبوه
بتهمة السحر والقانون يحكم بإعدام من يمارس السحر .

لو خلى النمرود بين الكهنة وبين إبراهيم لقتلوه ، ولكن
النمرود حال بينهم وبينه ، إن كان النمرود قد أجاره أو ليس هو
إلها لا يشين أفعاله خطأ ولا يجانبه الصواب ؟ أو يقدر إبراهيم
إن كان ساحرا أن يسحر إلها ؟ إن آزر في حيرة لا يدري ما يفعل .
أيؤمن بما يدعو إليه ابنه ويكفر بدينه ودين آباه ، أم يظل على دينه

وعبادة آلهته السادة البعول العظام ؟

واستأنفت قافلة الإيمان رحلتها وقد أسلم كل من فيها قلبه لله . فلم يعد لأحد منهم غاية إلا رضى ربه . كانت سعادتهم غامرة فهم مهاجرون إلى الله . ولم يكن بأسر الوجه إلا آزر . فقد سار في نفس هذه الطريق يوم استدعاه الأوريجاللو في بابل ليصنع تمثالا للاله مردوخ في عيده الكبير . وكان وقتئذ منشرح الصدر يعرف مواقع قلميه ، وما كان يكلم صفوه إلا رؤية أبيه التي رآها في كبد الأضحية ، ليلة رأى أصنام الآلهة تتكفأ على وجوهها .

كان في ذلك الحين تطوف به موجة من الرهبة . الرهبة من المجهول : أما اليوم فقد وقع ما كان يخشاه وعاش حتى رأى تأويل رؤيا أبيه ناحور ، عاش حتى رأى ابنه إبراهيم يحطم أصنام الآلهة يمينه ، وقاسى بسبب ذلك من غضب الآلهة وكتب عليه مردوخ الخراب فاحترق هاران وماتت إيمتلى . وها هو ذا يهيم على وجهه مع أناس آمنوا لابنه وكفروا بدينه ودين آبائه الأولين . وتذكر أن أباه قال له إنه رأى نورا يخرج من ظهره ينير السماء ، ولم يشأ أن يصدق أن ما رآه ناحور رؤيا صادقة وأن إبراهيم مبارك ، بل راح يؤكد لنفسه أن ما رآه أبوه نورا يخرج من ظهره إن هو إلا نار خرجت لتحرق آلهة السماء .

ومرت القافلة ببابل ولاحت للعبون المدينة التي بنيت فوق الربوة ببرجها المائل المدرج ، فصغرت نفس آزر في عينيه وراح يبتهل إلى رب الأرباب في حرارة أن يرفع عنه غضبه ، بينما نظر إبراهيم ومن معه إلى المدينة العظيمة في ازدراء ، فإن بيوت الله التي

شيدوها في قلوبهم أروع وأرجب وأثنى من كل بيوت الأرض :
 وضربت القافلة خيامها بأرباض مدينة سفروايم ، ولما استراح
 أهلها من تعب الرحلة دخلوا المدينة يتزودون من أسواقها ويملئون
 سقائهم من آبارها . وراحوا يتلفتون حولهم فهذه أول مرة يرى فيها
 إبراهيم وسارة ولوط تلك المدينة . وانطلق آزر وهم خلفه فوجدوا
 أنفسهم أمام معبد من معابد القوم ارتفع برجه وغص بالناس .
 وسار آزر إلى حيث قام المذبح ، وإذا بنحلق كثير يتعبدون
 وإذا المراسيم تحرى في خشوع . وأصوات المغنين ترتفع بالتراتيل ،
 والدموع تفيض من العيون .

ودار إبراهيم على عقبيه لينصرف وإذا بسارة تهتف به :
 - إبراهيم ! انظر .

ونظر إبراهيم فإذا برجل يعترف بما ارتكب من المعاصي ثم
 يقدم ابنه البكر ليذبح قربانا للآلهة . وتقدم الكاهن فأمسك بالصبي
 وذبحه وهو يرتل الدعوات ، والموسيقيون ينفخون في المزمار
 وينفرون على الدفوف والطبول ، والعرافون يطلقون البخور .

والتقت عينا إبراهيم بعيني أبيه وكان يبدو على آزر الإيمان
 العميق وكأنما كانت عيناه تقولان لابنه : أرأيت إيمان قومنا
 بآلهتهم ؟ لقد بلغ بهم الإيمان حدا جعل الأب يذبح ابنه البكر على
 مذبح الآلهة تكفيرا عن معصية ارتكبتها . أقلو كانت سارة أنجبت
 لك ولدا أكنت تذبحه قربانا لإلهك ، لربك الواحد الذى تدعو إليه ؟
 كانت نظرات آزر تنطق بالإيمان بآلهته ، فقد خامره الشك
 شيئا في أمرها بعد ما سمعه من إبراهيم وما رآه من تحطيمه لأصنامها ،

أما ما يجري الآن عند مذبح الإله في سفروايم فقد أعاد إليه إيمانه ،
إن آفته ما تزال عظيمة جليلة حتى إن المرء ليتقرب إليها بذبح ابنه
البكر عن طيب خاطر .

وتذكر هاران الذي احترق ليدلل على قدوة آفته فلم يعصر
الحزن قلبه بل غمره الرضا . إن تضحية هاران لآفته تفوق تضحية
هذا المؤمن عميق الإيمان الذي يقدم فلذة كبده زلي للآلهة ، فقد
قدم هاران نفسه وليس شخصا سواه قربانا على مذبح الأرباب ،
فتضحيته تفوق كل تضحية تخطر على البال .

وقرّ عزم آزر أن يبقى على دين آبائه ، أن يظل مؤمنا بأربابه
حتى لا تذهب تضحية هاران الحبيب هباء ، وراح يطمئن نفسه
أن الآلهة سترضى عنه ، فإن كان مردوخ قد كتب عليه الخراب
فما فعل ذلك إلا انتقاما لما فعله إبراهيم ، ولتجزينه الآلهة خيرا .
بما قدم هاران .

(إبراهيم أبو الأنبياء)

وامتطى المؤمنون رواحلهم واستاثفوا رحلتهم . وأثارت
الأنعام والأغنام النقع حتى كادت تحتجب الروية .
وكان إبراهيم هادئ النفس منشرح الصدر فقد صار الكون
كله معبدا . فأينما يولى وجهه فثم وجه الله .

ورأى في طريقه الثيران تحرث الأرض ، والفلاحين يبذرون
الحب . . والمياه تترقق في القنوات كاللجين وتسرى سريان
الروح ، وأشجار النخيل سامقة رائعة تنطق بجلال الله . إنها
أروع من أبراج المعابد التي تختال أياما ثم ما تلبث أن تنهار ،
إن أشجار النخيل — أبراج الله — ستبقى في جلالها ما دامت الأرض
والسماء تسبح بحمد الله وتقديس له .

وضرب المؤمنون في البيداء حبت الفضاء لا يجد . الفضاء
النقي الذي يغسل الأرواح . فراحوا يملئون ذواتهم بروح الكون
قبل أن يملئوا صدورهم بنقاء الهواء . فقد أمدهم إيمانهم برحابة
روحية جعلتهم يتحدثون مع روح الوجود . ويتهللون بالفرح
كلما وقعت أعينهم على ما في الكون من كائنات .

ومروا بالآبار الحمر آبار النفط في حث ، ثم هبطوا من
الصحراء إلى وادي بليق فبدت الأرض كأنما كسيت ببساط
سندسى أخضر ومشي بالزبرجد والياقوت والمرجان . ودبت

الحياة في الكون وارتفع نبضها . فالأنعام والأغنام ترعى في مراعى الله ، والعبيد والرجال يملثون سقاتهم من المياه الحارّة ، والنساء يتفياّن ظلّال الأشجار وينعمن برطب الهواء :

وجلس آزر يلتقط أنفاسه ويحنّ إلى الاستقرار . إنه في طريقه إلى حاران مدينة القبط والحرّ اللافح فلن يكون المقام فيها هينا لنا ، ولكنه مع ذلك يرجو أن يبلغها ليستريح من وعثاء الطريق .
لقد غادر أور لينجو من نظرات العداوة التي يرشقها بها قومه ، فقد كان لسع تلك النظرات أليما على روحه حتّى هان عليه أن يهاجر من وطنه ، بيد أن قسوة الرحلة فاقت ما كان يتصوره .

كان يخفف من آلامه أن حاران مثلها مثل أور مقر لعبادة الإله القمر ، وإن كان يعبد في حاران باسم الإله سين وفي بلده باسم الإله « نانا » . إنه هو نفسه إله الذي يحبه ويقدم له الخضوع والولاء ويرفع إليه الدعوات ويتزلف إليه بالقرابين . إنه يحس أنسا كلما كان في حضرته ، وسواء عليه أعبدته في أور باسم نانا أم في حاران باسم سين ، أم في سيناء حيث أقيم له معبد هائل يليق بمقامه واشتق من اسمه اسمها لتتقدس أراضيها .

إن إله القمر يعبد في كل بقاع الأرض التي يعرفها ، فكيف يسفه ابنه أحلام كل هذه الأمم ويطنن في معتقدات كل هذه الشعوب ؟ إن ضياء إلهه لطيف ينزل الأمن بالقلوب ويشرح الصدور ، أما نور رب إبراهيم فإنه لم يشرق في قلبه ، وكيف يشرق في قلبه نور لم تر عيناه له شروقا ؟ !

وعاود آزر القلق ؛ أبتكره إبراهيم في حاران يعبد إله كما يشاء

أم يحول بينه وبين عبادته كما فعل في أور ؟ وهل يفعل إبراهيم في حاران ما فعله في أور فيسخر من آلهة القوم على أعين الناس ؟

ونزل بقلب آزر هم شديد : إن كل الدلائل تشير إلى أن إبراهيم لن يتوانى في تبليغ رسالات ربه ، وقد ازداد صلابة وعزما بعد أن خرج سالما من النار التي ألقوه فيها ولم تحرق إلا وثاقه .

إن حاران مدينة من مدن القوافل وهي مفتاح الطريق بين الشرق والغرب ، وما جاء إبراهيم إليها إلا ليدعو الغادين إليها والرائحين منها إلى دينه ، إلى عبادة إله . إنه ما جاء إليها إلا ليعرض نفسه على القبائل يدعوهم إلى رب العالمين .

واربد وجه آزر ، فلو أنه اهتدى إلى ما وضح لعينه الساعة لما غادر أور وما ترك وطنه . إنه فر من نظرات العداوة من قومه . إلى نظرات قد تكون أشد ضراوة وشراسة منها . إن قومه كانوا يعرفون له أنه كرس حياته لصنع تماثيل الآلهة . أما أهل حاران فلا يعرفون عنه شيئا . إنه كالمستجير من الرمضاء بالنار .

وارتجف فرقا فهو شيخ كبير لا يستطيع احتمال التعذيب ، إنه يريد أن يمضى ما تبقى من أيامه على الأرض في سلام ، ولكن كل الدلائل تشير إلى أن مردوخ قد كتب عليه الخراب وأن كل الآلهة ما تزال غاضبة عليه من جراء ما فعل بها إبراهيم .

وراحت القافلة ترقى جبال بادام آرام . وكانت صخورها صلبة فكانت الرواحل تسير في ببطء شديد ، وأخذ الرجال والعبيد يدفعون الأنعام والأغنام في شعاب الجبال دفعا . ولحق إبراهيم حملا حديث الولادة يجهد ليلحق بأمهات ، فهبط من على راحلته وأخذ

الحمل بين ذراعيه وضمه إلى صدره في حنان ، ثم عاد به إلى راحلته وهو يمسح على ظهره بيده وينظر إليه بعينين يشع منهما العطف والحب . كان قلب إبراهيم كبيرا يفيض بالحنان على كل من حوله .

وانسابت القافلة في الأرض الفضاء بين دجلة والفرات ، وظهرت على البعد مدينة حاران ، ولاح معبد الإله القمر على ربوة عالية كأنه منار في وسط الصحراء ، وارتفع برجه المدرج في خيلاء يخلد براعة الإنسان .

وتهلل قلب آزر فقد صار الآن في كنف إله يستطيع أن يرى تمثاله وهو يناجيهِ ، إله له مذبح يستطيع أن يذبح عليه ما يتقرب به إليه . لقد سمع من إبراهيم أن الكون كله معبد لإلهه ، وأن الأرض مسجد وطهور ، وأن السماء آية من آياته ، وأن كل ما فيها من نجوم وكواكب وأقمار وشموس تسبح له ، وأنه فوقها جميعا وليس في الأرض ولا في السماء مشيئة إلا مشيئته ، ولكنه لا يستطيع أن يتصور معبدا بلا جدران ولا كهنة ولا مغنين ولا مغنيات ولا مراسم ولا تماثيل ترمز إلى الآلهة جميعا !

ستسعد عيناه عما قليل بروية إلهه ، وتشرب أذناه ألحان المغنين والمغنيات ، وتشم أنفه رائحة البخور ، رائحة الخطايا التي تحترق على مذبح الإله لتزكو وتنقلب إلى عبر .

سيرى عما قليل أسمى توضحية : توضحية فنيات المعبد بأجسادهن متحلمات كل قصوة وامتهان في سبيل إرضاء عشائر الإله العطوف !

ودخلت القافلة مدينة حاران في الليل ، وانطلقت إلى أقرب
بئر ، فخف النسوة وقد حملن جرارهن على رؤوسهن ونزلن في
الدرج الذي يقود إليها وتزاحمن حول الماء .

وجاء الرعاة يتدافعون ليمثلوا أجران الماء لسقى الجمال والثيران
والأغنام ، ورأى إبراهيم النساء وهن يوسوسن بأساورهن
وخلاخيلهن ويشقن طريقهن بين الرجال فأمّر عبده أن يمثلوا
لهن جرارهن ، وأن يسقوا أغنامهن قبل أن يمثلوا سقاياتهم أو
يرووا ما معهم من إبل وأبقار وأغنام :

وضرب إبراهيم خيامه بين البداوة والحضارة لينهض بالرسالة
التي بعثه بها ربه ، كانت حاران غاصة بالدور والبيوت الواسعة
إلا أن إبراهيم هجرا المباني التي تحم من تأملاته ، وعزم أن يعيش على
حافة المدينة ليكون بعيدا عن عادات قومه وتقاليدهم التي استقرت
في ضمائرهم ، بعيدا عز عقائدهم التي أفسدها الكهان ورجال
التشريع !

إن رجال الدين يعيشون بين جذران المعابد ، أما الأنبياء
فيسبحون في مملكة الله يدعون الناس إلى التحرر من قيود الناس
وعبادة الناس ، يدعونهم إلى التخلص من إसार الأوامر الجامدة
والشعائر الزائفة إلى حيث رحابة الإيمان :

كانت خيام إبراهيم على طريق القوافل المنطلقة بتجارة بابل
إلى الشام والحجاز ومصر والعائدة إليها بحيرات تلك الأقاليم ،
وكان إبراهيم إذا جن الليل يوقد نارا يدعو بها الضيفان إلى طعامه :
فلم يأكل إبراهيم وحده مذخر من أور بل كانت مواعده عامرة

أبداً بالغادين والرائحين وأبناء السبيل .

وكان إبراهيم يدعو كل من نزل بخيامه إلى الله . وكان التجار أكثر الناس فهما لرسالته فقد كفروا في قرارة أنفسهم بآلهم المحليين الذين ما كانوا يرعونهم في ترحالهم . إنهم كانوا أكثر الناس حاجة إلى إله يرعاهم في سفرهم في الفيافي والقفار والجبال ، وإله إبراهيم الذي يدعوهم إليه موجود في كل مكان وهو أقرب إليهم من حبل الوريد . ولكن انشغالهم بجمع المال واحتكار التجارة ورفع الأسعار وخدع البسطاء وغش السلع وتطفيف الكيل والوزن ، كل أولئك صدهم عن ذلك الدين الذي يريد أن يخاسبهم على كل ما يفعلون في الدنيا ويهددهم بالحساب بعد الموت يوم يبعثون .

وكان آزر ينسل من خيام ابنه وهو يترقب إلى معبد الإله سين ، حيث يركع أمام مردوخ وإله القمر والآلهة الأخرى يردد الصلوات في إيمان عميق والدموع تنهمر من عينيه . وكان يقدم الأضحيات في الفجر والصبح والمساء لعل مردوخ يرضى عنه ويمحو الخراب الذي كتبه عليه في لوح قدره .

وكان إذا سأل ابنه أين كان لا يجرو أن يقول له إنه كان يصلي في معبد آلهته ، فإن إبراهيم كان يدعو إلى دينه كلما جلسا معا . فكان يقول كنت في السوق أتسلى بمشاهدة حلقات بيع العبيد ، وكثيراً ما كان يعود من الأسواق وقد اشترى بعض العبيد ليستمر ما يفعله في غفلة من المؤمنين . فما كان في خيام إبراهيم من يعبد الأصنام غيره .

وجلس إبراهيم وآزر ذات ليلة يتحاوران بعد أن انصرف

الضيوف المكرمون ، قال إبراهيم :
— يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك
صراطا سويا .

يا أبت ما ظنك برب العالمين ؟
يا أبت كتب ربي على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا
بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم .
يا أبت إن ربي عظيم ، وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا
هو . ويعلم ما في البر والبحر ، وما نسقط من ورقة إلا يعلمها ،
ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين .
يا أبت سبح باسم ربك الأعلى .

فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد في
السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون .
وكان آزر ينظر إلى ابنه وهو مشدوه لا يدري من علمه ذلك
العلم ومن بث في قلبه عداوته المريعة لآلهة قومه آلهة الأولين ،
وانتشر في صدره القلق ولم يشرح الله صدره للإيمان . واستمر
إبراهيم يدعوه في رقة إلى دينه إلى الإيمان برب السموات والأرض
وما بينهما حتى قال آزر :

— آمنت لك يا إبراهيم .

فقال إبراهيم في فرح :

— قل يا أبت أشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم عبده ورسوله :
ولم يشأ آزر أن ينطق بالشهادة فقال له :
— ألم تقل لي يا إبراهيم في أور سلام عليك سأستغفر لك ربي

— ٢٠١ —

إنه كان بي حفيا ؟

— نعم يا أبتاه !

— اذهب واستغفر لى ربك .

وقام إبراهيم إلى المحراب يصلى وهو فرح فقد كان إيمان
آزر وإسلامه أحب شىء إلى نفسه ، وراح يدعو الله والدعموع
تفيض من عينيه :

— رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين : واجعل لى لسان
صدق فى الآخرين ، واجعلنى من ورثة جنة النعيم ، واغفر لأبى إنه
كان من الضالين ، ولا تخزنى يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا
بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم .

بدأ الضوء ينتشر في الأفق الشرقى فدبت الحياة في خيام إبراهيم ، وقامت سارة تتوضأ . وذهب إبراهيم يوقظ آزر ويهزه في رفق ويدعوه للصلاة .

وفتح آزر عينيه ولما رأى ابنه قال له :
— إني قائم .. استغفر لى ربك .

فقال إبراهيم وهو ينظر إلى أبيه في حب :

— لأستغفرن لك ولا أملك لك من الله من شيء .

وأسرع إبراهيم إلى حيث كان لوط وسارة والمؤمنين وراحوا جميعا يدعون الله في عمية الصبح :

— ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم .

وراحوا يصلون في خشوع وقد غابوا عن كل ما حولهم : كانوا بين يدي الله يحاولون أن يتصلوا بروح الكون ، بذات الذوات : برب السموات والأرض . وانتهاز آزر فرصة انشغالهم عنه بالصلاة فانسل من الخيام وهو يتلفت وانطلق إلى المدينة يسعى .

وقضيت الصلاة وراح الرجال والعبيد يرعون الماشية والغنم ، ثم ذهبوا إلى المعبد يجادلون الكهان ويدعون الناس إلى دينهم ، فقد أصبحت حاران مسرحا للصراع بين الدين الجديد ودين الآباء

والأجداد ، بين رجال أحرار أسلموا وجوههم لله رب العالمين
ورجال يتاجرون بالدين ويرون في زوال سلطان مردوخ ومين
وشماش وعشتار والآلهة الأخرى زوالا لنفوذهم ، وانقطاع سبل
الخيرات المتدفق إلى مخازن المعابد وضياح الكهنة من أراضي
الأغنياء وجيوب السذج .

ودخل إبراهيم ومن معه الحرم المقدس في معبد الإله سين
إله القمر ، وكانت العاهرات المقدسات على جانبي الطريق ينظرن
إلى إبراهيم ومن معه في ضيق وتنطلق ألسنتهن بالهزاء والسخرية .
وانطلق المؤمنون في طريقهم لا يحفلون بهم . وكانوا على يقين أن هذه
الدعارة ستفقرض يوم تذهب أيام الآلهة الذين يتقرب إليهم عبادهم
بالبغاء وتدنيس الجسد .

وانسابوا إلى المعبد وكان الكهان يطلقون البخور ويتلون
صلواتهم ويقدمون القرابين للآلهة ، وكان المغنون والمغنيات
يرتلون الأناشيد والموسيقيون يعزفون الألحان المقدسة . ولما دخل
عليهم إبراهيم ومن معه خفتت الموسيقى وزاغت العيون ولاح في
وجوه الكهان غضب وخوف وضيق ، كان المؤمنون أشد رهبة
في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون .

وراح الكهان ورجال الدين يجمعون أنفسهم التي ذهبت
شعاعا ويتأهبون للرد على ما يقول إبراهيم ، إنه جعل الآلهة إلها
واحدا ونزاهه عن صفات آلهتهم ، ورنث في آذانهم أقواله :
هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن
العزيز الجبار المتكبر ، سبحانه الله عما يشركون . هو الله الخالق

البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

ونظر إبراهيم فإذا بأبيه آزر راكم أمام تمثال سين يؤدى صلاته والدموع تنهمر من عينيه . إن أباه لم ينس إلهه فلا يزال يعبد إله القمر بعد أن استغفر له ربه ، إنه ما استغفر له الله إلا بعد أن وعده بأنه سيسلم وجهه لله رب العالمين ، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه . وقد تبين له الآن أنه علو لله يقول بلسانه ما ليس فى قلبه ، إنه لا يزال على كفره ينسل من الخيام ليعكف على عبادة أصنامهم التى لا تملك له نفعا ولا ضرا . وأغلق إبراهيم قلبه دون أبيه . إنه يحبه إلا أن حبه ربه أعظم من حبه أباه . إنه يحس مرارة لأنه صدق أباه فاستغفر له ربه وما كان أبوه يستحق الاستغفار بعد أن اشترى الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة . وكان يخفف عن إبراهيم أنه قال لأبيه : لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ .

واشتد الحدل بين الكهان والمؤمنين ، وضاق رجال الدين والمتعصبون لأهنتهم بخجج إبراهيم وسخرية من معه بأربابهم ، فأطلت البغضاء من عيونهم وبدأت العداوة من صدورهم ، وأحس إبراهيم ومن معه أن الأمر قد يتطور إلى قتال بينهم وبين من فى المعبد فقالوا :

— إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده .
وعاد إبراهيم ومن معه إلى خيامهم ، ورأى أباه يرقد فى ظل

خيمة فتذكر إبراهيم ما كان يفعل كلما وقف في المحراب منذ وعده
أبوه بالإسلام ، كان يسأل ربه والدموع تفيض من عينيه أن يغفر
له لأنه كان من الضالين .

كان من الضالين ؟ إنه ما يزال ضالا ، إنه ما يزال يركع
لآلهته ، إنه لا يستحق الاستغفار . وذهب إبراهيم إلى محرابه يعتذر
إلى الله عما كان منه وراح يدعو :

— يا رب إني برىء من أبى .. برىء مما فعل أبى .: برىء
من المشركين .

ورفع آزر عينيه وهو ممدد في ظل خيمته فرأى إبراهيم ينتهل
إلى ربه فامتلاً حزناً ، لقد نذره للمعبد يوم حملت به إيمتلى ،
ونذر لآلهته إن جاء ما في بطن زوجته أنثى أن يلحقها « بالخاصم »
لتكون عازقة على القيثارة للإله سين .

إنه يمثل أسى كلما وقعت عيناه على بنات الهوى بالمعبد ،
فقد كانت غاية أمانيه أن يهب إحدى بناته للآلهة ، إلا أنه لم يرزق
إلا ذكورا ؛ إبراهيم وناحور وهاران : ومما يزيد في أساه أن
إبراهيم كفر بآلهة آبائه الأولين وجعله هزوا بين قومه يسود وجهه
كلما التفت عيناه بأعين الناس ، فما أقسى نظرات التحقير التي
تصوب إليه وإن كان لا يزال قائما على دين قومه :

إنه يذهب إلى المعبد ليؤكد للملأ أنه ما يزال على دينه وأنه
برىء مما جاء به إبراهيم ؛ ولكن ماذا يفيد ذهابه إلى الحرم المقدس ؟
ماذا تفيد دموعه وصلواته وقرابينه إذا كان إبراهيم يأتي كل يوم
إلى المعبد يقول للمصلين : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ ...

ماذا تعبدون ؟ ألكم آلهة دون الله تريدون ؟

وماذا تفيد صلاته ودموعه وقرابينه إذا كان إبراهيم يقف في طريق القوافل يدعو الناس إلى إلهه الذي يزعم أنه واحد قهار ، له ما في السموات وما في الأرض ، وأنه رب العالمين !

مرض آزر ولزم خيمته وعجز عن أن يذهب إلى آلهته ، وراح يتلفت يبحث عن صديق ما يزال على دينه ليقرب عنه القرابين إلى مردوخ ويلتمس منه أن يطيل أيامه على الأرض ، إلا أنه لم يجد فيمن حوله من هو على دينه ، فقد جاء إبراهيم بما فرق بين الأب وبنه وبين الزوج وزوجه وبين الصديق وصديقه . إن لوطا وسارة والعبيد والضعفاء آمنوا جميعا له . ولكن ابنه ناحور جاء إلى هاران واعتزلهم ، لئله يستطيع أن يبعث في طلب ناحور .

واشتد بأزر المرض ودخل عليه إبراهيم يتوسل إليه أن يؤمن بالله قبل أن يلقي ربه ليفوز بجنت النعيم . كان إبراهيم يتمنى بكل جراحة من جوارحه أن يهتدى أبوه ، أن يموت على الإيمان ، أن يهديه الله الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم .

- ولكن آزر وضع أصابعه في أذنيه ورفض أن يصغي إلى ما يدعو إليه ابنه ، إنه في شك مريب من أنه سيبعث بعد أن يموت ، وأنه سيحاسب على ما اقترف من أعمال في دنياه ، وأن من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ، ومن كفر بالله إله إبراهيم فمأواه جهنم وساءت مصيرا .

كان واثقا كل الثقة أنه إذا مات فسيذهب إلى العالم السفلى . إلى الأرض التي لا رجعة منها ، وأنه قد يلقي هناك أباه ناحور ،

وأن ذلك اللقاء — إن وقع — هو الذى يؤلم نفسه ويوجع قلبه ،
فيسخر منه أبوه لأن ابنه إبراهيم حطم تماثيل الآلهة وأغضب السادة
البعول ، وأن سخرية ناحور ستكون أقسى على قلبه من سخريات
أهل الأرض جميعا .

وراح آزر يلفظ أنفاسه بين يدى ابنه إبراهيم ووقف حولها
لوط وسارة والمؤمنون من الأحرار والعبيد ينظرون فى إشفاق ،
كان إبراهيم حريصا على أن ينطق أبوه بالشهادة قبل أن يذهب
إلى عالم الغيب والشهادة .. قال :

— يا أبت إن كنت تحب الله فاتبعنى يحبك الله ، يا أبت متاع
الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ، يا أبت إنى لا أملك لك من الله
شيئا فاشهد أن لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، يا أبت إن هدى الله
هو الهدى ، يا أبت آمن قبل أن يدركك الموت ليرحمك ربى
ويدخلك جناته ، فالله كتب على نفسه الرحمة .

يا أبت أغفر الله تبغى ربا وهو رب كل شئ ؟ يا أبت اشهد
أن لا إله إلا الله يغفر لك ما قد سلف ، يا أبت قد جاءك الحق من
ربك خالق كل شئ وهو الواحد القهار .

واضطربت أنفاس آزر ولم يبق له فى هذه الدنيا إلا اللحظات ،
إن هى إلا زفرة ثم يموت . وراح إبراهيم يحاول أن يزحزح أباه
عن النار التى يصر على أن يتردى فيها ، قال والدموع تفيض من
عينيه :

— يا أبت قل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين :
يا أبت قل أشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم عبده ورسوله .

وفاضت روح آزر وهو بين يدي إبراهيم فوضع رأسه على
 فراشه وهو حزين ، كان إبراهيم يحب أباه ويرجو أن يهديه إلى
 الرشاد : أن يهديه صراطا سويا . وهل يملك إبراهيم أن يهدي
 من أضل الله ؟ إن إرادة الله فوق كل إرادة ، وإن إبراهيم لا
 يهدي من أحب ولكن الله يهدي من يشاء من عباده إلى صراط
 مستقيم .

تقاطر الناس من القوافل القادمة إلى حاران على خيام إبراهيم .
فكان إبراهيم وعبيده يقدمون لهم الطعام والشراب . ودارت
الأحاديث عن البلاد التي وفدوا منها فراح كل منهم يروى عجائب
ما شاهده في تلك البلاد . قال أحدهم :

— إني قادم من وادي النيل . من بلاد العجائب : الأهرام
وأنى الهول والمسلات والمعابد . إن المسلات في وادي النيل شائعة
كأبراج المعابد في بابل .

فقال آخر :

— أها علاقة بالدين ؟

— إنها تخليد لعظمة الإنسان . أما آلهة المصريين فلهم معابد

هائلة تفوق معابد مردوخ .

— ماذا يعبد المصريون ؟

— يعبدون آلهة كثيرة ، ويجتمع آلهتهم في مجتمعهم كما يجتمع
آلهة بابل في مجتمعهم يتشاورون ويتخذون قراراتهم التي تصبح
مشيئة سارية في الأرض أو في السماء .

— أيعبدون مردوخ ونانا وشمش وآلهتنا الأخرى ؟

— كلا : بل يعبدون رع إله الشمس وأزريس وآلهة أخرى

كثيرة .

(إبراهيم أبو الأنبياء)

— ٢١٠ —

— أو يختلف رع عن شماش ؟

— إن آلهة المصريين يحلون في الحيوان ، لذلك يقدر المصريون البقر والتمساح والصقر ، ويرمزون إلى رع بقرص الشمس بين جناحي الصقر .

— وأزريس ؟

— إنه إله العالم السفلي . . إله الموتى . كان أزريس كسائر الآلهة حاكما في الأرض قبل أن يرفع إلى مملكته في السماء . إنه هو الذي علم سكان مصر الزراعة والكتابة وحياسة الثياب والنظر في النجوم والحساب ، وهو الذي سن لهم القوانين .
ونظر رجل إلى المتحدثين وقال :

— هذا شيء عجيب ، فقد نزلت في أثناء مروري بالحجاز بواد غير ذي زرع لأستريح ، فقابلت هناك رجلا عرفت أنه من الصابئة قال لي إنه كان في ذلك الوادي بيت مقدس بناه إدريس للعبادة . وأن الطوفان أتى على ذلك البيت فيما أتى عليه . وسألته عن يكون إدريس هذا فقال لي إنه أول من خط بالقلم ، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وأول من علم الناس الزراعة ، وأول من نظر في علم النجوم والحساب ، وأنه جاء بالقوانين من السماء . ثم رفع إلى السماء بعد أن مات .
وقال قائل :

— قد يكون أزريس هو إدريس هذا .

— إنها أساطير تنسجها خيالات الناس ويستغلها الكهان .

— لا يمكن أن ينسج شيء من لا شيء ، لا بد أن يكون لهذه

الأساطير أصل من الأصول .

ودنا إبراهيم من القوم وكان يطمع أن يؤمنوا بالله الواحد القهار خالق كل شيء ، فهم على علم وسعت الرحلات مداركهم . ولا بد أن تكون مملكة الله التي ساحوا فيها قد فتحت أعين بصائرهم على وحدة الخالق فقال :

— إدريس كان صديقا نبيا أرسله الله لهداية الناس .

فنظر القوم إلى إبراهيم في دهش وقال أحدهم :

— أى إله من الآلهة ؟

— الله لا إله إلا هو الحى القيوم .

— أ جعلت الآلهة إلها واحدا ؟

— وما من إله إلا إله واحد .

— أينما ذهبنا وجدنا الناس يعبدون آلهة كثيرة : الكواكب

والشمس والقمر والبقر والتمساح : فكيف تدعوننا إلى إله واحد ؟

— من إله غير الله يأتىكم بضيء أفلا تسمعون ؟ من إله غير الله

يأتىكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ؟

— يقول المصريون إن رع إله الشمس إذا فتح عينيه يأتينا

بالضيء ، وإذا أغمض عينيه يأتينا بالليل .

— هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟

لا إله إلا هو سخر لكم الشمس والقمر والنجوم . الذى له ملك

السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت . يا قوم اعبدوا الله

ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ؟

— أنت رجل صالح يا إبراهيم ولكن مالك وهذا ؟

— إني لكم رسول أمين .

فقال القادم من الحجاز :

— كإدريس ؟

— يا قوم اعبدوا الله قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلل ،
يوم لا ينفع مال ولا بنون ، يا قوم لا تعبدوا إلا الله إني أخاف
عليكم عذاب يوم عظيم .

— ومتى هذا اليوم ؟

— يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم القيامة يوم يحكم الله
بينكم ليجزى كل نفس ما كسبت . إن الله سريع الحساب .

فقال القادم من مصر :

— أنا حكمنا الله بعد الموت كما يحاكم أزريرس الموتى على
أعمالهم في العالم السفلى ؟ الله ميزان كميزان أزريرس يزن به أعمال
البشر ؟

وقال القادم من الحجاز :

— هل دعا إدريس قومه إلى عبادة الله وحدثهم عن يوم
القيامة ؟ هل قال لهم إن الله سيحاسبهم على أعمالهم في الدنيا ؟

— فلماذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون :
فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه
فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ، تلفح وجوههم
النار وهم فيها كالخون .

إن الذين كفروا لو أن لهم في الأرض جميعا ومثله معه
ليفتنوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم .

— ٢١٣ —

يريلون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم .
إن الله لا يرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين .

وقال القادم من الحجاز :

— آمنت بالله رب العالمين ، آمنت برب إدريس ورب إبراهيم .
فقال القادم من مصر :

— أتؤمن كما آمن السفهاء ؟ أتصدق أن الناس يبعثون بعد أن
يكونوا عظاما ؟ إن ما يقوله هذا قاله الكهنة المصريون من قبل ،
فأزريس يقيم الموازين للناس ، وإله إبراهيم يقيم الموازين للناس :
فقال القادم من الحجاز :

— إن ما جاء به الرسل من ربهم هو الحق ، فلما طال على الناس
الأمم قست قلوبهم ونسجوا حول ذلك الحق الأساطير ، وما عقيدة
أزريس إلا ما تبقى من دعوة إدريس : البعث وخلود الروح .
وقال القادم من مصر :

— إني لا أصدق. أن الله يبعث بشرا رسولا . يا كل الطعام
ويمشي في الأسواق .

— إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد .

فقام القادم من مصر وهو يقول :

— إني كفرت بما تدعوا إليه يا إبراهيم :

وقال القادم من الحجاز :

— وإني أسلمت وجهي لله رب العالمين :

وقام من آمن إلى إبراهيم وقال له :

— إني ما تناولت طعاما إلا بشمن .

فقال إبراهيم وأشرق وجهه بابتسامة رقيقة :
— ثمنه أن تذكّر اسم الله على أوله وأن تحمد الله في آخره :
فقال الرجل :

— الحمد لله رب العالمين .

وانتشر الناس في الأرض وراح الرجال والعبيد والنساء يرفعون
الأنعام والأغنام ويجلبون الماء من بئر حاران . وانتهى إبراهيم من
عمله ، فلما جن الليل وقضيت الصلاة أوقد النار ليدعو الناس وأبناء
السبيل إلى طعامه .

وكانت الليلة حالكة الظلام ولم يكن في السماء نجم يتلألأ ،
وكانت الرياح تصفر والبرد شديدا حتى إن إبراهيم جلس أمام باب
خيمته ينظر ويخشى أن يمر الليل دون أن يفد إليه ضيف يكرم
وفادته .

ولمح في الظلام شيئا يتقدم ويتوكأ على عصا فخرج إليه
يستقبله ويقوده إلى خيمته . كان الشيخ مسنا حنت الأيام ظهره
وخلفت السنون في صفحة وجهه أخاديد تنم عن أنه جاوز التسعين .
وبلغا الخيمة وعاون إبراهيم الرجل على أن يجلس ويستريح ،
ثم ذهب وعاد معه ماء ليغسل الرجل وجهه ويديه ورجليه من
عشاء الطريق . وجاءت سارة بطعام وفير وضعته أمامهما وراحت
تخدمهما بنفسها إكراما للشيخ المكشود .

ومد الشيخ يده إلى الطعام دون أن ينبس بكلمة فقال له إبراهيم :
— هلا ذكرت عليه اسم الله ؟

فنظر الشيخ إلى إبراهيم في دهش وقال :

— ٢١٥ —

- أَسْمِ اللَّهَ ؟
فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ :
— قُلْ بِسْمِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَأْكُلَ .
— اللَّهُ ؟ وَمَنْ هُوَ اللَّهُ ؟
— رَبِّي وَرَبُّكَ وَرَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا .
— لَيْسَ لِي رَبٌّ اسْمُهُ اللَّهُ .
— وَمَا تَعْبُدُ ؟
— أُعْبُدُ النَّارَ .
— وَلِمَاذَا لَا تَعْبُدُ اللَّهَ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟
— لِأَنِّي لَا أَعْرِفُ إِلَهًا غَيْرَ النَّارِ :
— أَتَعْبُدُ إِلَهًا يَظْفُثُهُ الْمَاءُ ؟ إِنْ الْمَاءُ أَوْلَى بِعِبَادَتِكَ مِنَ النَّارِ .
— لَا ، إِنْ الْمَاءُ لَا يَحْرِقُنِي وَلَكِنَّ النَّارَ تَحْرِقُنِي . إِنْ أَعْبُدُ مِنْ
يَتَّقِدُ عَلَى إِحْرَاقِي .. عَلَى تَعْذِيبِي .
— إِنْ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَحْرِقَكَ بِالنَّارِ .
وَمَدَّ الشَّيْخُ يَدَهُ إِلَى النَّارِ الَّتِي تَتَرَاوَضُ أَمَامَ الْخِيْمَةِ فَاحْسَ
حَرَارَتِهَا فَقَالَ :
— إِنْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَلْمَسَ حَرَّ هَذِهِ النَّارِ . أَمَا اللَّهُ الَّذِي تَدْعُونِي
إِلَيْهِ فَلَنْ أَسْتَطِيعَ أَنْ أَلْمَسَ نَارَهُ :
وَمَدَّ يَدَهُ خَارِجَ الْخِيْمَةِ فَإِذَا الْهَوَاءُ بَارِدٌ فَقَالَ :
— لَا : لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَوْمِنَ بِنَارٍ لَا أَحْسُ حَرَّهَا ؛
ثُمَّ التَفَتَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ :
— إِلَهِي تَتَأَجَّجُ رُوحَهُ أَمَامَ عَيْنِي . أَمَا إِلَهَكَ فَلَنْ لَا أَرَاهُ ،

إني لا أومن إلا بما أراه وأحسه .

قم يا سيدى لتسجد معى لإلهى .

وقام الشيخ وسجد للنار فثار إبراهيم وقال :

— لا يسجد فى خيمتى إلا الله .. اخرج .. اخرج .

وقام الشيخ وخرج وسار حتى أطبق عليه الظلام ، وأطرق

إبراهيم وأحس أنه يوحى إليه وإذا بالوحى يتضح فى صدره :

— ماذا فعلت بالضيف يا إبراهيم ؟

— طردته لأنه أبى أن يذكر اسم الله على الطعام وأبى أن

يوثمن بالله ، وراح يدعونى أن أسجد معه للنار .

— حملته ربك يا إبراهيم مائة سنة وهو يعبد النار من دونه

ويأبى أن يحمده أو يسبح له أو يذكره بخير ، وأنت لم تحمله ساعة

وما ضرك بشيء ولا أساء إليك !

وقام إبراهيم وقلبه يخفق من خشية الله ، وانطلق يعدو فى أثر

الشيخ ينقب عنه فى ظلمة الليل وما سأل أحدا من رجاله أو عبيده

أن يبحث معه عنه . إنه هو الذى طرده وهو الذى ينبغى أن

يعثر عليه .

وبات إبراهيم هائما على وجهه يخشى ألا يعثر على الرجل

ويظل عثاب ربه قائما ، إنه يريد أن يصلح ما كان منه فى حق

الشيخ ليستريح ضميره :

ووجد الشيخ يتوكأ على عصاه فى فحمة الليل والرياح تصفر ،

فهرع إليه وعاد به إلى خيمته ليكرمه ويبالغ فى إكرامه مرضاة لله :

دبت الحياة في خيام إبراهيم وكانت سارة في خيمتها تشرف على شئون القبيلة ؛ فقد كانت الأميرة الجميلة التي تعد طعام الضيف وطعام الرجال والعبيد ؛ وكان لوط لا يفارق إبراهيم يصغى إليه وهو يصلى في المحراب لرب العالمين فيعتلى قلبه بالنقاء وثرى نفسه بكنوز الحكمة وشرق روحه .

وراح العبيد يغسلون الملابس برماد القصب ، ويجمعون غسل النحل من الشجر ، ويسقون المواشى والغنم ، وما كان إبراهيم يكلفهم بعمل إلا ويده مع أيديهم ، بل ويده أسبق إلى العمل من أيديهم .

وكان مضرب خيام إبراهيم قبلة الفقراء والعبيد والمستضعفين وأولئك الذين يرجون حياة أفضل من حياة قومهم ، وأرحب من الحياة الحبيسة في سجن النفس وسجون المعابد بأبراجها العالية وجدرانها السميكة ، المعابد التي لا سلطان لها إلا أن تجلب الخراب أو تطيل أيام الناس على الأرض ؛

وكان إبراهيم يبشر الناس بحياة أفضل بعد الموت ، بجنت تجري من تحتها الأنهار ، وما كان يقول لهم ما يقوله الكهان من أن الحياة تنتهى بالموت ، وأن الميت يذهب إلى العالم السفلى ، إلى الأرض التي لا رجعة منها ، بل كان يحدثهم عن الحياة الثانية ،

حياة الخلود ، الحياة التي ينبغي أن يعمل الإنسان لها ليفوز بما أعده الله للمتقين .

راح إبراهيم يدعو إلى إله واحد رحيم غفور ، إله يترك كل شيء ولا تدركه العيون ، إله فوق الكواكب والقمر والشمس ، مشيئته فوق كل مشيئة إن أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون .

وكان ما يمس قلوب الفقراء والعبيد والمساكين والمستضعفين في الأرض أن رب إبراهيم لا يفرق بين السادة الأحرار والفقراء والعبيد ، فلا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى . لا فضل لعاملو غلي مسكينو ولا فضل لمسكينو على عاملو إلا بما في قلبه من نور . وقد يتكى الفقير والعبد على الأرائك في جنة النعيم ، بينما يلقى السادة الأحرار ورجال الدين في الجحيم . كل بما كسبت يمينه ، كل بما قدم في دنياه من عمل . لا فضل لطبقة على طبقة ولا لجنس على جنس ولا لشعب على شعب .

وقامت في حاران قوتان : قوة لاذت بالمعابد تدق الطبول وتنفخ في الأبواق وتعبث بأوتار القيثارة والعود وتلعب بالدفوف ، وتحرق البخور وتذبح القرابين في المذابح لتتق غضب الآلهة وتطيل في أعمار الناس ؛ وقوة أسلمت وجهها لله ، الكون كله معبدها والأرض لها مسجد . ربها رب السموات والأرض وما بينهما ، وهو رحمن رحيم يتقرب إليه بالحسنات ، ليست له مذابح بل تنحر له الذبائح ابتغاء مرضاته ، لا يناله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى من عباده .

ونشبت الحرب بين القوتين : بين القوة التي لا هم لها إلا

الإبقاء على الجسد وإطالة أيامه السعيدة على الأرض ، والقوة التي أخذت تشحذ الروح لتسعد صاحبها في الدارين ؛ دار الفناء ودار البقاء : كانت دعوة إبراهيم بيضاء ناصعة يبهر سنا نورها نور الشمس والقمر ، بيد أنها تسلب أصحاب السلطان في البلاد نفوذهم : إنها تسوى بين السادة والعبيد أمام الله ، وتقضي على كهنة مردوخ وسين وشماش والآلهة الأخرى ، فيستطيع المؤمن أن يخاطب إله إبراهيم دون وساطة الكهان ورجال الدين وأن يتقرب إليه دون مراسيم الكهنة والسحرة والعرافين ، فهو قريب من عباده ، أقرب إليهم من حبل الوريد ! إنها دعوة صادقة ولكن ألفت في طريقها العواثر ، فقد قاومها أصحاب النفوذ مقاومة لا هودة فيها : أحس رجال الدين الخطر يخلق فوق رؤوسهم ، ويهدد بانقطاع أمواج الأنعام التي تتوافد على معابدهم ، وشواقل النضرة التي تندفق في خزائهم ، وأحمال القمح والشعير والبلح التي تغص بها مخازنهم ، وخدمات السذج الذين يعتقدون أن خلعة رجال الدين تجلب بركات الآلهة وتمنع نقماتهم .

وغضب رجال الدولة لرجال الدين فسلطانهم واحد ، والمنافع بينهم مشتركة ، وإن بزوغ شمس الدعوة الجديدة يغيض نفوذهم ، فتحالف رجال الدين ورجال الدولة على مقاومة هذا الخطر الداهم الذي انقاد له المستضعفون والفقراء والعبيد .

وغضبت فتيات المعبد لغضب رجال الدين ولما نال عشتار من تسفيهه ، فرب إبراهيم يحرم أن تضحي امرأة بجسدها في سبيل إرضاء الآلهة ، ويقاوم هذه التضحية ويعتبرها مهانة للبشرية ويحط

من قلوبها حتى يلحقها بالزنا !

الزنا ! إنه يعتبر في بابل فاحشة ، فربط الزاني والزانية بالحبال معا ويلقى بهما في الماء ، هذا إذا ضبطت الزوجة متلبسة بالزنا . أما العاهرات المقدسات .. فتيات الهوى .. عاهرات المعبد فأنهن إنما يتقربن إلى الآلهة بأجسادهن قبل الزواج ، لأنهن إنما يقبلن تلك المهانة مرضاة للآلهة .. مرضاة لعشائر العطوف لا لإشباع شهوة أو جلب لذة .

ولقد أهان إبراهيم ورب إبراهيم فتيات المعابد فكانت عداوتهن للدعوة الحديدية مريرة ، عداوة من طعن في دينه وكرامته ، وحط من شأن تضحياته المقدسة حتى ألصقت بالفواحش والمنكرات .. وراحت العاهرات المقدسات وهن أشد الناس عداوة لإبراهيم ومن اتبعه من المؤمنين يقاومن الدعوة الحديدية وينفثن كراهيتها في صدور الوافدين إليهن من حاران والبلاد البعيدة .

كما غضب لرجال الدين كذلك أولئك الذين عاشوا عبيدا لمعتقدات آبائهم ، الذين إذا دعوا إلى النجاة .. إلى الهدى كانت قلوبهم في أكنة مما يدعون إليه ، أولئك الذين يقولون : وجدنا آبائنا على هذا .

واجتمع رجال الدين من الكهنة والكاهنات والعاهرات المقدسات ، ورجال النولة من الحكام ورجال القصر والموظفين الذين يقتسمون مع الكهنة خيرات المعابد ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون :

— ماذا أنتم فاعلون بإبراهيم ؟!

— ٢٢١ —

ولم يقل قاتل منهم :

— انصروا أمتكم إن كنتم فاعلين .

كانوا يعرفون جميعا أنهم إنما يدافعون عن كيانهم .. عن وجودهم ، وأن غضبتهم إنما هي لأنفسهم ، فلم يستشيروا الآلهة فيما يفعلون ولم يقربوا إليها القرابين . ولم يمسحوا حوائط المعبد بلحوم الضحايا ولم يطلقوا البخور . راحوا يديرون قداح الرأى بينهم .

قال قاتل منهم :

— أخرجه من دياركم .

— لأن أخرجه اليوم إنه يعود إلينا بعد أن يشتد ساعده ويقضى علينا ، فقد فتن سواد الناس والعبيد .

— فإذا ترون ؟

وصاح صائح منهم :

— اقتلوه يخل لكم وجه الناس .

— وإن ثار من آمنوا به ؟

— نقضى عليهم جميعا ونستريح منهم .

— هذا هو الرأى ، لا خير في أن يقتل إبراهيم ويبقى لوط .

فقد أفسده .

— لنقتلن لوطا فهو يقول إن إبراهيم هداه السبيل .

— لنقتلن إبراهيم ولوطا وكل من آمن لإبراهيم .

وذهب إبراهيم إلى المعبد يدعو القوم إلى رب العالمين ويصدهم

عن عبادة مردوخ الغارق في البله والرجوم الذى لا يفقه شيئا وإن

أطلالوا أذنيه ليرمزوا إلى حكمته ، وعن عبادة سين الجالس على عرشه يحمل الفأس وسلسلة القياس وإن كان لا يعقل كيف ينبت الحب وينمو الزرع وينضج الثمار ، ولا يعرف كيف تسمح الأرض وتُقاس الأبعاد .

فثار الكهنة وراحوا يقولون للملأ الذين التفوا حوله يستمعون إليه : لتشارن الآلهة منكم ، ولتغرقنكم بالطوفان إن استمعتن إلى هذا الكافر بآلهتكم الذي اتخذهم هزوا ، فروا بأنفسكم قبل أن يحل عليكم العذاب .

وصدق الناس ما قاله الكهان وانفضوا من حوله وتركوه قائما وحده يتلفت في أسى ، إنه يرجو لقومه الهداية بيد أنهم يفرون منه ويعرضون عن دعوته .

وانصرف إبراهيم وهو مطرق الرأس فقد انقضت سنون طوال وهو يدعو الناس إلى الإيمان بالرحمن ، ولم يؤمن بما جاء به إلا قليل من المستضعفين والعبيد . إنه لم يقصر في دعوته فقد دعا قوافل التجار إلى الله الذي يرعاهم في الضياف والقفار ، إلى الله الذي لا إله إلا هو الرزاق . الزهاب القريب من عباده من يجيب دعوة الداع إذا دعاه ، ودعا قومه إلى مغفرة ورحمة من ربهم ، دعاهم إلى ما يحبهم : إلى ما فيه خير الدنيا وخير الآخرة ، ولكنه كلما دعاهم ليغفر لهم ربهم جعلوا أصابعهم في آذانهم .

وراح الكهان ورجال الدولة يدعون عبيدهم والمؤمنين بآلهتهم إلى عمل فيه رضا الأرباب : إلى عمل تتهلل له الآلهة فرحا ، إلى عمل يرفع مقت الآلهة وغضبها عن حازان وأهل حاران ،

هذا العمل المبارك هو قتل إبراهيم ومن معه من السفهاء .
وأعد كل شيء . واتفق على أن يشن الهجوم على خيام
إبراهيم في عماءة الصبح فيقتل الرجال وتسبي النساء وتساق الأنعام
والأغنام غنيمة باردة للأرباب !

وأوحى إلى إبراهيم أن اخرج . أن أسر بأهلك ليلا . فاذن
إبراهيم بالتأهب للرحيل . أمره الله فكان عليه أن يطيع . لقد غادر
أور من قبل وترك فيها أمه إيمتلى وها هو ذا يغادر حاران ويترك
فيها أباه آزر . إنه يترك أرض بابل كلها إلى حيث أمره الله .
يترك قومه وعشيرته وأرض الذكريات إلى ملك الله . يترك أخاه
ناحور وأصدقاء له كانت بينه وبينهم مودة وإن لم يؤمنوا بما جاء
به . إلى أقوام لا يدري ما يكون بينه وبينهم أمودة أم عداوة ؟
أمره الله أن يهاجر . أمره من أسلم له وجهه أن يخرج بأهله
فراح ينفذ أمر الله . إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يكن من
المشركين . شاكرا لأنعمه اجتنابه وهداه إلى صراط مستقيم .

وجن الليل فركب النسوة رواجلهن وركبت سارة راحلتها .
وانطلق الركب ومن حوله الأنعام والأغنام والرجال والعبيد .
وسار إبراهيم منشرح الصدر فقد جعل الله له نورا يمشى به وإن
كان الليل حالك الظلام ،

خرج إبراهيم من حاران . وانطلقت القافلة وهي تحس أن
الكون كله يرعاها ويحنو عليها . ولا جرم فهي أول قافلة تحمل
أول فوج من المؤمنين يهاجرون في سبيل الله .
وفي عماءة الصبح أقبل الكاهن الأعظم لعبد الإله سين ومعه

العبيد ومن خدعهم من عباد الأرباب ، تخفى صدورهم العداوة والبغضاء ، جاءوا إلى خيام إبراهيم ليقتلوه ومن آمن له تقربا إلى مردوخ وسين وشماش وعشتار والآلهة الكثيرة المنتشرة في أرض الآباء والأجداد .

ونظر الكاهن الأعظم إلى حيث كانت خيام إبراهيم فلم يجد إلا آثار القوم ، فجعل الله صدره ضيقا حرجا كما إنما يصعد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون . ودوت في الفضاء صيحات الغيظ والحنق والضيق ، وقال الكاهن :

— ألم أقل لكم إنه ساحر فلم تصدقوني ؟ ها هو ذا قد هرب منكم بسحره ، لو استمعتم إلى نصحي لنصرتهم آهتكم ولقتلتموه في المعبد ولحرقتموه قربانا للآلهة . إنى أخشى أن تعذبنا الآلهة بالطوفان ما لم نخرج في طلبه . فقال قائل منهم :

— إن آلهتنا قادرة على أن تكتب عليه الخراب فلندعه لعذابها . ونخشى الكاهن أن يمعن في تحريض القوم على الخروج في أثر إبراهيم فيقول قائل منهم مثلاً كان يقول إبراهيم : إن كان للآلهة مشيئة حقا فلتثار لنفسها ممن أهانها .

وعاد الكاهن ومن جاءوا معه لقتل إبراهيم والمؤمنين مطاطى رموسهم ، يفكرون فيمن أفضى بسرهم إلى إبراهيم ، ويقنعون أنفسهم بأن إبراهيم عرف بسحره ما بيته بليل ، ولم يدبر بخلدنهم أن رب إبراهيم نجاه ولوطا إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين .

انطلقت القافلة في ملك الله تنهادى على طريق طالما قطعتة
قوافل المهاجرين والتجار منذ فجر التاريخ . إلا أن هذه القافلة
كانت تتميز عن كل القوافل التي طرقت هذه السبيل بأنها أول
قافلة مؤمنة تهاجر في سبيل الله .

لكم أشرقت الشمس على القوافل الضاربة في تلك البيداء مذ
خرجت من أرض بابل إلى أرض الشام وكم غربت عنها . وكم
تأملت في سماء الليل النجوم والكواكب والأقمار : إلا أن جلال
الشروق وروعة الغروب وتلاؤ النجوم في السماء كان ذا أثر متفرد
في أرواح رجال القافلة ونسائها وعبيدها . فقد كان جلال الشروق
تسيحها لله العظيم ، وروعة الغروب ابتهالات وتجليات : وتلاؤ
النجوم في سواد الليل كإشراق النور الإلهي في ظلمة النفوس .
وبزوغ القمر كبزوغ الإيمان في الذوات المؤمنة التي أسلمت
وجها لله .

كانت النفوس آمنة مطمئنة . فالقافلة تسير في أرض الله بأمر
الله . هو الذي أمر بالخروج وهو الذي يأمر بالنزول حيث يشاء .
وكانت الأعين تنقلب في خلق الله فتشرح الصدور وتهلل القلوب
بالفرح . وتتصل الأرواح بروح الكون ، وتغمرها بتجليات
الإله الواحد بديع السموات والأرض .

(إبراهيم أبو الأنبياء)

وكانت المراعى كبساط سندسى أخضر تخفق بالحياة وتنطق
بقدره الله ، النوار الأصفر ينمو فى وسط البساط الأخضر وعلى
حواشيه فى روعة تملأ النفوس ، واللوحات الفنية تتشكل أشكالا
مختلفة وتتعاقب على صفحة السماء وفى الأفق البعيد فتبده العقول
وتحرك النفوس والأرواح وتطلق الألسنة بتسييح الخالق المبدع
المصور .

كانت قافلة الإيمان ترى الله فى كل ما تمد إليه أبصارها ، فى
الشجر والزرع والزهور والطير .. فى الجبال والصحراء والرمال ..
فى الشمس والقمر والنجوم .. فى رائحة النهار وفحة الليل ..
وكانت النفوس تحس الله فى أعماقها وأنه نور البصائر والأبصار .

وانقضى يومان والقافلة تسير فى المراعى والحقول بين وادى
الفرات والأقاليم الخبلية المخصبة . وأشرف إبراهيم ومن معه على
نهر الفرات وتأهبوا لعبوره . ولم يكن إبراهيم أول من يعبر الفرات
لينساب فى أرض الشام فقد عبره قبله آلاف الرجال من التجار
والمهاجرين والجنود الرحل أطلق عليهم قومه « العبرين » ، ولكن
عبوره الفرات كان يختلف عن عبور من سبقوه ، إنه حدث عظيم
يقف عنده التاريخ ، إن عبوره هو عبور الإيمان فرارا من الكفر ،
عبور التوحيد فرارا من الوثنية الطاغية ، ليتمكن لدين الله فى أرض
مباركة يزرع منها نور الله ليغمر العالمين .

راح إبراهيم ومن معه من الرجال والنساء والعييد والأنعام
والأغنام يعبرون الفرات عند مخاضة كانت معبرا للعابرين ،
وخلفوا وراءهم العراق وانسابوا فى بادية الشام ، ولم تنقبض

نفوسهم لمغادرة الوطن ولم تمتلئ أعينهم بالدموع حسرة على الأهل والأصدقاء ، فقد كانوا يعلمون أن الله جعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم .

سار إبراهيم ومن معه في أرض الشام وكانوا إذا نزلوا لا يجدون صعوبة في الحديث مع أهلها ، فإن اللغة السائدة بين الأقوام الذين كانوا يعيشون من اليمن جنوبا إلى مشارف العراق والشام وتحوم فلسطين وسيناء شمالا كانت لغة واحدة ، وما كان الاختلاف بينها إلا من قبيل اختلاف اللهجات .

كان ميلاد هذه الشعوب السامية في شبه جزيرة العرب ، فهاجر منها بعض القبائل العربية إلى بلاد الهلال الخصيب بين وادي الفرات والبحر الأبيض . وهاجرت قبائل أخرى من جنوب شبه الجزيرة إلى الحبشة بإفريقية .

وكانت اليمن هي مصدر العربية الأول ، وقد انتشرت القبائل للسامية ولغتها العربية من أقصى الجنوب في شبه الجزيرة إلى أقصى الشمال في العراق ، وكانت لغة أهل بابل الآرامية — العربية الشمالية — وكان إبراهيم من الساميين عرب اليمن الذين نزلوا بابل ، فكان يتحدث بالآرامية — العربية الشمالية — فلم يجد صعوبة في أن يتحدث إلى أهل الشام ، والله يقول : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، فضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم » .

تعاقب الليل والنهار وإبراهيم ومن معه يسبرون في الكون العريض ؛ زفيف الهواء في آذانهم أشجى من ترديد الناي في المعبد ،

وعسمة الليل وتنفس الصبح ، والظلمات والنور ، والظل والحرور ،
والحبال مجدّد بيض وحمراء وغرايب سود ، والناس والدواب
والأنعام . كل أولئك ينزل بقلوبهم خشية وفرحاً فياضاً يفوقان
كل فرح تبعثه أحر الصلوات في النفوس .

ونزلت القافلة تسريح ، فجاء الرجال والنساء والأطفال من
كل مكان ينظرون . فأمر إبراهيم أن تحلب الأبقار وأن يوزع
اللبن على أهل المنطقة الذين أقبلوا على أهل القافلة يموج بعضهم
في بعض .

ورأى إبراهيم أطفال القوم يلعبون مع أطفال المؤمنين . فقد
أنجب الذين خرجوا معه من أور ومن آمنوا به في حاران والعبيد ،
أنجبوا ذرية . أما هو وسارة فلم يرزقهما الله أولاداً . إنه في شوق
أن تكون له ذرية مؤمنة . ذرية تحمل رسالة رب العالمين وتهدى
الناس إلى الصراط المستقيم .

وجاء أهل المنطقة بيضائهم وكانوا يملكون النفس بالبيع والشراء
وجنى الأرباح . بيد أن آمالهم سرعان ما خابت فقد وجدوا أناساً
زاهدين في الدنيا لا يدير رؤوسهم الدمقس والحرير ، ولا يسيل
لعايهم الذهب والفضة ، ولا يملكون أعينهم إلى ما في أيدي الناس ،
فقد كانت تجارتهم مع السماء يتفقون عن سعة إنفاق من لا يخشى
الفقر ، ويجودون بكل ما عندهم ويتصدقون بما يملكون ويرجون
الثواب من الله .

وكان إبراهيم يجوس خلال القافلة مشرق الوجه تترقب
الساحة في محياه ، وكان يأسر القلوب بحلمه وحكمته ويغلب

الألباب بفصاحته ، وكان حديثه عن الله الواحد الأحد الفرد الصمد يزخر بالإيمان العميق فيؤثر في القوم فينظرون إليه مدهوشين .

وكان يقول لمن ألقوا إليه سمعهم : والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ، ما لهم من الله من عاصم ، كأنما أغشت وجوههم قطعا من الليل مظلا . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

وكان إبراهيم يقوم إلى الصلاة ويصطف من معه خلفه ، فيبدون كملائكة أبرار هبطوا من السماء ليمثلوا الأرض نقاء وتسبيحا وحمدا لله رب العالمين .

وهزت دعوة إبراهيم من شرح الله قلوبهم للإيمان من أهل المنطقة فهرعوا إليه يشهدون أن لا إله إلا الله . وأن إبراهيم عبده . ورسوله .

وكانت سارة تعد الطعام في خيمتها من لبن وعدس وبر ، وتأمر بذبح العجول للضيف ، فما كانت خيام إبراهيم تخلو من الوافدين على الرجل المبارك الذي سرعان ما ذاع نبا كرمه في المنطقة .

وكان إبراهيم يشرف بنفسه على حلب البقر والغنم وكان في بعض الأحيان يحلبها بيديه ، وكان يتהלل بالفرح كلما رأى الناس يعودون إلى دورهم أو خيامهم يحملون ما أصابوا من حليب . هو من مال الله .

وبقى إبراهيم ما شاء الله له أن يبقى ، ثم شد الرحال إلى حيث
يوجهه الله ؛ فسار معه من آمنوا بالله من أهل المنطقة تاركين وراءهم
آلهم وأوطانهم ليسيحوا في الأرض ابتغاء وجه الله .

انطلق إبراهيم ولم ينس له أهل المنطقة فضله ؛ إذ أطلقوا على
المكان الذي نزل به « حلب » تخليدا للحليب الذي دخل دورهم
من أنعام الرجل المبارك ، الرجل الذي غمرهم بفضله وكرمه
ولم يأخذ ثمن ما أعطاهم ، بل كان يقول إنما رزقي على الله .

وانساب إبراهيم ومن معه في معبد الله ، يرون آيات الله في
الآفاق وفي أنفسهم فيتذكرون ويعقلون ويهتدون ويتقون ويشكرون
وكلما ساروا في الأرض ورأوا ثمرا رأوا عظمة الله ، فزادهم ذلك
إيمانا وتسليما .

وأشرفت عليهم جبال لبنان تكسوها الخضرة وتزين سفوحها
أشجار الأرز والثمرات مختلفة الألوان ، ويكفل هاماتها الثلج
الناصع البياض ، وتتخللها المسالك كالشرايين تحمل الحياة إلى
أرجائها ، ويتدفق الماء من الصخور وينحدر على الجبال له خريف
أعذب من أروع الألحان ، موسيقا الله تتناغم مع الكون فتعزف
لحنا سماويا ساحرا أبدا ، ينفث في صدور البشر الحنان والأمن
والفرح الفياض .

ونظر إبراهيم ومن معه إلى جبال لبنان وقد غشيتهم رهبة
وامتلاأت نفوسهم روعة ، وهامت أرواحهم لتتحد مع روح
الكون وتنتشى بتجليات الله . وفاضت جوانحهم بما امتلأ من صفاء
وجلال ونشوة وإيمان فراحت ألسنتهم تسبح لله ، وامتزج نسيج

المؤمنين وتسبيح السموات والأرض والحبال .. إن الوجود كله
ليؤدى صلاة حارة تلهج بالشكر لله .

وراحت القافلة ترقى فى مسالك الجبل فنعم أهلها بالطيبات ،
وملثوا سقاتهم من الماء البارد المتدفق من الجبال ، وسعدت الدواب
والأنعام بطيب المرعى . ولم تزل القافلة تسرى فى مسالك الجبال
وتدور معها كلما دارت . ثم أخذت تنحدر معها لتنساب فى البادية
متجهة إلى دمشق ، إلى الجنة الفيحاء .

بلغ إبراهيم ومن معه أرباض دمشق ولاحت لأعينهم المدينة
الجميلة التى تهفو إليها قلوب الناس . ولكن إبراهيم والمؤمنين لم
يستخفهم الفرح لأنهم عما قليل سيتغيثون ظلالها ويبتعدون بمائها ،
فإن مباحج الأرض كلها لا قيمة لها عندهم ، إنهم إنما ينظرون إلى
السماء . إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأمواهم بأن لهم الجنة ..
جنة عرضها السموات والأرض تجري من تحتها الأنهار ، فيها
ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، أعدت
للمتقين خالدين فيها أبدا .

وبلغت القافلة أبواب دمشق وكان على رأسها إبراهيم وعن
يمينه لوط وحوله الرجال ووراءهم هوداج النساء والماشية ،
وكانت الثيران والأبقار والكباش والنعاج والحديدان والمعز كثيرة
لا يكاد يحصىها العد ، وكان العبيد الأشداء ينتشرون حول القافلة
الهائلة يحرسونها وفى أيديهم الهراوات والرماح .

وكان على القافلة مهابة وجلال حتى إن الأبصار انجذبت إليها ،
إنها قبيلة قوية لا تقل فى شوكتها عن القبائل التى كثيرا ما جاءت

لترعى ثم وثبت على الملك وانتزعه من حكام البلاد .
 وهرع الناس إلى القافلة يسألون من أين هذه القبيلة ؟ وإلى أين
 هي متجهة ؟ وكان الجواب عجيبا زاد في دهشة الناس : إنها قبيلة
 سامية جاءت من أرض بابل . وما أكثر القبائل السامية التي جاءت
 من تلك البلاد أو من الجزيرة العربية لترعى ثم شنت الغارة وانتزعت
 الملك ممن بيدهم الحكم . ولكن هذه القبيلة لم تجي كما جاءت تلك
 القبائل للتجارة ، وإنما جاءت بأمر الله لتدعو إلى دين الله ، ولا
 تدرى أيان تسير وأنسى ينتهى بها المطاف . فهي تسير بأمر الله
 يوجهها حيث يشاء !

وحطت القافلة رحالها في برزة شمال دمشق ، وقام رجالها
 ونساؤها وولدانها يصلون الله ، واجتمع الناس ينظرون إليهم .
 إنهم لا يصلون لصنم أو وثن أو تمثال وإن صلاتهم لتختلف عن
 الصلوات التي ألفوها . ولاح في وجوه الناس العجب وحب
 الاستطلاع .

وقضيت الصلاة وهرع الناس إلى رجال القبيلة يسألون عن
 الإله الذين يقدمون إليه صلواتهم . فقالوا لهم إنه هو الله رب
 السموات والأرض وما بينهما . الله الذى خلق السموات والأرض
 وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات زرقا لكم ، وسخر
 لكم الفلك لتجربى في البحر بأمره . وسخر لكم الأنهار . وسخر
 لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم
 من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن
 الإنسان لظلوم كفار .

وراح إبراهيم يتحدث إليهم عن الله العزيز الحكيم الذى لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، حديثا عامرا بالإيمان والحكمة ينفذ إلى القلوب . وكان بين القوم إليعازر الدمشقى وكان يصغى إلى دعوة إبراهيم بقلب متفتح وصدر منشرح ، وقد أحس أن شيئا قويا يشده إلى ذلك الرجل المهيّب .

كان إليعازر الدمشقى يرى إبراهيم لأول مرة ، وكان يصغى إلى ما يدعو إليه لأول مرة ، بيد أنه أحس انجذابا إليه ورغبة عارمة فى أن ينطلق إليه ويعلن إيمانه بالله الذى يدعو إليه ، وإيمانه بالرسالة التى جاء بها ، فقد أحس أنه يوحى إليه أن يؤمن بالله وبرسوله . وما انتهى إبراهيم من حديثه حتى هرع إليه إليعازر والدموع تجرى على خديه وقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله . وأن إبراهيم عبده ورسوله .

أشرف إبراهيم ولوط ومن معهما من الرجال والنساء والعبيد على دمشق ، وكان سكان المنطقة من أجناس متباينة ، إلا أن الآموريين وهم مثلهم من الساميين كانوا هم الغالبة ، وكانوا يتحدثون الآرامية مثلهم فكان التفاهم بينهم ميسورا . رأى إبراهيم ومن معه من المؤمنين نهر بردى يروى أراضي الغوطة والمروج الخضراء إلى مدى البصر ، والثمرات وفيرة من أعناب وزيتون وتين وقمح وشعير وبصل وثوم وحمص وفول ، ولم تثر هذه الخيرات انتباههم ، فلو كانت أطعمهم تنحصر في هذه الخيرات والتمتع بها مثل بدو الجزيرة العربية أو بدو صحراء العراق أو بدو الصحراء السورية ، لما خرجوا من أور ، فقد كانت أور كثيرة الخيرات كالجنة الفيحاء .

إنهم إنما خرجوا لله ، لا يريدون علوا في الأرض ولكن يريدون أن يعلو اسم الله ، أن يكون الأمر كله لله الواحد القهار ، أن تسود مملكة السماء .

وانجهوا قاصدين المعبد ، وكانت الأسواق تغص بالسلع والطرفات تموج بالناس : الرجال في ملابس زاهية ، والنساء يرتدين ثيابا تغطي إحدى الكتفين وتترك الأخرى عارية وينتعلن أحذية حمراء . وكان الجمال والبهجة والإغراء تنبعث من كل

— ٢٣٥ —

جانب ، ولكن إبراهيم ومن معه ساروا لا يلتفتون ، فقد انقطعت
الأواصر بينهم وبين الله والتجارة وانصلت الأسباب بينهم وبين
السماء .

وأقبل رجل قوى مفتول العضلات يحمل جعبة من السهام .
أقبل على رجل من أتباع إبراهيم وقال له :
— إني أتحدثك .

ولم يفهم الرجل سببا لذلك التحدى فلم يكن بينهما عدا
وما تقابلا قبل اليوم ، وقال الرجل المفتول العضلات :

— نراشتى بالسهم ومن يقتل صاحبه يستولى على ما يملك .
من قال له إن من هاجر في سبيل الله يبغى متاعا ؟ يقتل نفسا
بغير نفس في سبيل عرض زائل ؟ لقد ألقى الدنيا كلها وراء ظهره
ابتغاء مرضاة الله ، وهو لا يطمع أن يفوز بمتاع قليل بل يطمع في
الفوز العظيم ، في جنات عرضها السموات والأرض أعدت
للمتقين .

لو أنه دعى ليحارب في سبيل الله للبي النداء وهو منشرح
الصدر ، فهو يدعى إلى إحدى الحسينين : الفتح أو الاستشهاد
في سبيل الله ، أما أن يدعى إلى ما يغضب الله ويسارع إلى المعصية
فهذا هو الخسران المبين .

وقال الرجل المؤمن :

— أنا لا أقبل تحديك .

فصاح الذين التفوا حولها منكرين ، فالتقاليد تقضى أن يقبل
التحدى وإلا كتب على نفسه العار . ولم يحفل المؤمن ولا من معه

بأصوات الهزء والسخرية فهم لا يقيمون وزناً للتقاليد بل يحملون معاول الهدم ليجثوها من جذورها حتى تكون كلمة الله هي العليا .
وصاح صائح :

— أنا أقبل نزالك .

والتفت العيون فإذا شيخ جاوز الخمسين يحمل أثواباً من القماش ، وكان نحيلاً لا يبدو عليه أنه مقاتل شديد .
ووضع الشيخ ما كان يحمله والتفت إلى الملاً وقال :
— اثنتى بقوس وجعبة سهام .

وقدم إليه أحدهم قوسه وجعبة سهامه فراح يختبر القوس اختبار خبير . وسرعان ما تكونت حلقة واسعة من القوم وارتفعت الصيحات . ووقف الرجلان داخل الحلقة وبينهما مسافة ، ووضع كل منهما السهم في قوسه وشدها وانتظر أن يعطى الحكم إشارة البدء في المعركة . المعركة التي لم يكن لها سبب إلا حب النزال وسيطرة قانون الغابة على العقول .

و أعطيت إشارة البدء في قتال لا ينتهى إلا بموت أحد المقاتلين ، سيلفظ أحدهما روحه في سبيل الشيطان . في سبيل نزوة طائشة . وأطلق الشاب المفتول العضلات سهمه فاتقاه الشيخ في مهارة ، ثم أطلق الشيخ سهمه فطاش . وراحت السهام تتبادل والشاب والشيخ يروغان منها في خفة وسرعة وحرص شديد .

ودوت في المكان صيحات متعطشة إلى الدماء وكانت الأعين تنظر في اهتمام ، والصدور تعلو وتنخفض في حماس ، والأصوات تنطلق تحت المتقاتلين أن يقضى أحدهما على الآخر . كانت القلوب

كلها قاسية إلا قلوب إبراهيم ومن معه من المؤمنين فقد امتلأت
أسى وإشفاقا ، وزاد إصرارهم على أن يخرجوا هؤلاء القوم من
الظلمات التي يعيشون فيها إلى النور .

وراح المتقاتلان يدنوان أحدهما من الآخر والسهام تتطاير ،
وانتهز الشيخ لفظة طائشة من الشاب المقتول العضلات المدل بقوته
فسدد إليه سهما استقر في عنقه . فخر الشاب صريعا يخط في دمه
بين تهليل القوم وصخبهم .

وسار إبراهيم ومن معه من المؤمنين . وكان إبراهيم في نفسه
يوثمن بالصراع وبأنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت
الأرض وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها
اسم الله كثيرا . كان يوثمن بالصراع في سبيل هدف جليل . في
سبيل إعلاء كلمة الله . وليس بالصراع الذي تهدر فيه كرامة
الإنسان وإن أقره العرف والتقاليد .

لأنه يوثمن بالسلام والمحبة . فليدعون القوم بالتي هي أحسن .
فإن قاوموه وفرضوا عليه القتال فسيقاتلهم وهو واثق أن النصر
سيكون حليفه . فما النصر إلا من عند الله . ولينصرن الله من ينصره
إن الله قوي عزيز .

ولاحت لهم منازل دمشق على ضفتي نهر بردى . مستطيلة
الشكل أساسها كتل من الحجارة وجدرانها من اللبن وسقفها من
أعواد النباتات طليت بالطين . كانت كمنازل أور إلا أنها ترتفع
على الروابي أو على سفوح الجبال . فينسب نهر بردى في رفق
لا تخشى غوائله .

ووصل إبراهيم وأتباعه إلى معبد الإله بعل وأخته عنت ، وكان مزيجاً من معابد البابايين ومعابد المصريين . كانت به تماثيل لشماش وعشتار وسين . وتماثيل لأبي الهول وآلهة المصريين . كان القوم على الطريق بين حضارتين كبيرتين : حضارة بابل وحضارة الفراعنة فاقتبسوا ما وصل إليهم من الحضارتين ، وفرضت الآلهة المختلفة سلطانها عليهم .

وراح القوم يقدمون القرابين من الخنازير البرية إلى بعل وعنت وسين وشماش وعشتار والآلهة الأخرى ، بين صلوات الكهان وأنشيد المغنين وموسيقى العازفين والبخور الذى عبق به المكان .

وكان فى دمشق كثير من المصريين يمارسون أعمالاً مختلفة ، وكان منهم موظفون من قبل ملك مصر ، إذ كانت سورية آنئذ فى حكم المصريين . ووقف المصريون فى المعبد أمام آلهتهم يحرقون البخور ويتلون الابتهالات التى يترنم بها المصريون عند الاحتمال بحرق البخور :

إن النار تهباً والنار تضىء .

إن البخور يوضع على النار والبخور يضىء .

وشذاك يأتى للملك يأيها البخور .

وشذى الملك يأتى إليك يأيها البخور .

وشذاكم يأتى للملك يأيها الآلهة .

وشذى الملك يأتى إليكم يأيها الآلهة .

إن الملك معكم يأيها الآلهة .

وأنتم مع الملك يأيها الآلهة .

— ٢٣٩ —

والملك يعيش معكم يا أيها الآلهة .
وأنتم تعيشون مع الملك يا أيها الآلهة .
والملك يحكمكم يا أيها الآلهة .
فأحبوه يا أيها الآلهة .

وراح إبراهيم ومن معه ينظرون ويسمعون ؛ إن القوم اتخذوا
دين بابل ودين مضر وعكفوا على أصنامها يعبدونها ويقدمون لها
الحنازير قربانا وزلنى .

ووقف إبراهيم فى المعبد وقال :
— يا قوم . يا قوم . يا قوم ..

وترك الناس صلواتهم وذهبوا ليروا لماذا يدعوههم ، وسار
الكهان فى أثر الناس ينظرون . قال إبراهيم :
— يا قوم ألا تتقون ؟ أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ؟
الله ربكم ورب آبائكم الأولين .
فقال قائل :

— من الله الذى تدعوننا إليه ؟

— فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم
ويؤخركم إلى أجل مسمى .. هو الذى أنزل من السماء ماء لكم
منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الترع والزيتون
والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم
يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والتمر والنجم
مسخرات بأمره . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم
فى الأرض مختلفا ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرّون . وهو

— ٢٤٠ —

الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله . ولعلكم تشكرون .

فصاح أحد الكهان :

— لئن لم تنته لتكونن من المرجومين .

ولم يثر الناس بل ألقوا إليه سمعهم . كانت الآلهة التى يعبدونها آلهة أقوام آخرين وإن عكف على عبادتها آباؤهم الأولون : وقال قائل منهم :

— أهلك أعظم من بعل وعنت وسين وشماش وعشتار وأهتنا

الأخرى ؟

— أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ؟ . وإن تعلوا نعمة:

الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون . والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيا ن يبعثون . إلهكم إله واحد . فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون . لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . إنه لا يحب المستكبرين .

وضاق صدر الكهان بذلك الواغل عليهم الذى جاء إلى معبدهم ليدعو إلى ربه . وزاد فى ضيقهم أن الناس استمعوا إليه معجبين . فقالوا :

— هل هذا إلا بشر مثلكم ؟ إنه جسد يأكل الطعام ويمشى

فى الأسواق كما تمشون . يا قوم ضعوا أيديكم فى فمه ولا تدعوه

يسب آلهتكم . يا قوم إن تصغوا إليه يحق عليكم غضب آلهتكم .

ويكتب عليكم الخراب المهين .

فقال إبراهيم :

— يا قوم إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار :

رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار .

وراح الكهان يدفعون الناس لينفضوا من حوله :

— أسرعوا يا قوم بالفرار قبل أن يحيق بكم غضب الآلهة

وعذاب أليم ، ضعوا أصابعكم في آذانكم حتى لا تسمعا

ما يفترية على الآلهة السادة والبعول . فرؤوا من هذا البلاء ولا

تصدقوه .

ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون ويشرب مما تشربون ،

ولئن أطلعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون .

وقال إبراهيم :

— يا قوم .. إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعوا .

وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين .

وارتفع صياح الكهان ورجال الدين وتداخل بعضه في بعض :

— يا قوم لا تذرنا آلهتكم ، ولا تذرنا بعلا وعنت وعشتار

وسين وشماش .

يا قوم فروا من عذاب أليم . يا قوم .. يا قوم ..

وجلجلت الأصوات ولم يعد أحد يفقه ما يقال . وخرج

الناس من المعبد وعاد إبراهيم ومن معه من المؤمنين إلى خيامهم ،

وقد زاد إبراهيم ما لقيه اليوم إصرارا على تبليغ رسالة رب العالمين .

حطت بالقرب من خيام إبراهيم قافلة مصرية قادمة من لبنان ، وكانت تحمل جرارا فخارية مستطيلة مملوءة بزيوت الأرز التي تحنط بها موميات الفراعين ، وبأخشاب الأرز التي تصنع منها تواييت الأشراف والحكام .

وكان في القافلة بعض من صناع الأسلحة المصريين ، وكانوا يبيعون الناس أسلحة مصرية ويشترى منهم أسلحة آسيوية : خناجر مقابضها كالأهلة وسيوف تشبه سيقان الحيوان ، وبلط تختلف في شكلها عن البلط المصرية .

وكانوا يشترون كذلك أواني حورانية من الفخار الأسود : أباريق ذات مقابض مزدوجة برسوم ملونة محلاة بالطيور والأسماك ، وأواني سوداء مخززة برسوم ملئت باللون الأبيض ، فقد أصبح المصريون من سكان الدلتا يقبلون على شراء هذه الأواني بعد أن وثبت القبائل السامية التي جاءت إلى مصر بقصد الرعي واستولت على الحكم دون قتال أو إغارة .

وزار رجال القافلة المصرية خيام إبراهيم ورأوا الرجل الجليل ، وجلسوا يتحدثون معه وينصتون إلى ما يقول . وكانوا يفتقنون قوله فهو يتحدث بنفس اللغة التي يتحدث بها الرعاة الساميون الذين استولوا على دلتا النيل ، وكانت تلك اللغة لهجة من تلك اللهجات

العربية ، فقد كان جنوب الجزيرة دائماً مخزناً هائلاً من مخازن شريعة تدفقت منه هجرات استولت على العراق وسورية ، وامتد سلطانها حتى شمل مصر السفلى .

ولم تكن تلك الهجرة أول عهد الساميين بمصر ، فقد تسلل عرب الجزيرة العربية إلى وادي النيل قبل عهد الأسرات عن طريق القصير . وكانوا في أوطانهم محرومين من الأنهار والاستقرار فهاجروا إلى الفرات والنيل والأردن حيث الماء والاستقرار .

وكان سكان الدلتا يتعلمون الآرامية من القبائل التي استأذنت في الرعى في شرق الدلتا حتى قبل أن تثب لانتزاع الحكم من الفراعين ، وقد زاد إقبال الناس على تعلم تلك اللغة بعد أن بدأ حكم الهكسوس « حتا خاسوت » حكام البلاد الأجنبية . وكان التجار يتكلمونها حتى قبل أن تفند القبائل السامية إلى دلتا النيل بقصد الرعى ، فهي نفس اللغة التي يتفاهمون بها مع العموريين في سورية ، والكنعانيين في غزة وما عرف فيما بعد بفلسطين . فقد كان الآراميون في العراق والعموريون في سورية والكنعانيون في فلسطين من الساميين ، وكانت لغتهم واحدة وإن اختلفت لهجاتهم باختلاف المناطق التي نزلوا فيها .

وكانت التجارة في ذلك الوقت في أوج ازدهارها . فكانت السفن المصرية تنقل السلع والثقافات المختلفة بين مصر وقبرص وكريت وشواطئ البحر الأبيض . وكانت القوافل تغلو وتروح بين بابل وجبيل ودمشق ومنف واليمن والعمة . وكانت اللغة العربية هي لغة التفاهم ولم يكن اختلافها إلا من قبيل اختلاف

اللهجات :

كان المصريون يصغون إلى إبراهيم في خيامه ، ولم يجذب انتباههم شعره الأسود الفاحم ولا رداؤه الفضااض المخطط بخطوط زرقاء وحمراء . فقد رأوا مثله آلافا في سورية ، وليس منظره غريبا حتى على من لم يغادروا البلاد المصرية ، فإنه لا يختلف عن « هاعبرى » البدوى الذى جاء إلى مصر في عهد سنوسرت الأول ، و « أبيشا » زعيم القبيلة السامية التى جاءت إليها في زيارة رسمية سجلت وقائعها بالرسوم الفرعونية على جدران المعابد .

ورأوا مثله كثيرين من العبريين — الجنود المرتزقة — الذين عبروا الفرات واشتركوا في القتال الدائر بين الملوك والطامعين في السيادة في منطقة الشرق الأوسط ، ولكنه كان عبريا من طراز آخر يختلف عن العبريين المقاتلين الذين يعيشون على سفك الدماء . كان عبريا يدعو إلى إله واحد عظيم له ما في السموات وما في الأرض . الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . وهو الذى يزجى السحاب وينزل من السماء ماء ليحيى به الأرض بعد موتها ، وهو الأول والآخر . وهو الذى أنشأ الخلق وهو القادر على بعثهم بعد أن يصبحوا عظاما وترابا ليحاسبوا على أعمالهم : فمن عمل سيئة من ذكر أو أنثى فلا يجزى إلا بها . ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها والله يضاعف لمن يشاء بغير حساب .

وكان حديثه عن الله وعن البعث والنشور هو ما يثير دهشتهم . إنه لا يدعو إلى بعل أو عنت أو أى من آلهة القوم الذين

يعيش بينهم ، ولا يدعو إلى مردوخ أو سين أو شماش أو عشتار أو أى من آلهة بابل الأرض التي جاء منها ، ولا يحقر آمون إله المصريين كما فعل الساميون الذين جاءوا إلى مصر للرعى ثم وثبوا على الملك وأسسوا حكمهم في الدلتا ، إنه إنما يدعو إلى دين جديد تقبله الفطرة السليمة ، يدعو إلى الوحدة المطلقة ، إلى أن يسود حكم السماء في الأرض فالملك لله يورثه من يشاء من عباده :

وأثار دهشتهم أنه يتحدث عن البعث بعد الموت ، وعن الحساب والثواب والعقاب ، وما كان أهل بابل يعرفون البعث فهم يعتقدون أن الإنسان بعد أن يموت يهبط إلى العالم السفلي ، إلى الأرض التي لا رجعة منها . وكذلك كان العموريون الذين يسكنون سورية والكنعانيون الذين يعيشون على ساحل البحر الأحمر في غزة وما حولها لا يؤمنون بالبعث . المصريون وحدهم كانوا يؤمنون بالقيامة بعد الموت ، فمن أين جاء ذلك البلوى «الهاعبري» الذي عاش في بلاد لا تعرف الحياة الأخرى بفكرة الآخرة . وأن الآخرة خير لمن اتقى ؟

وكان حديثه عن الله وغن البعث والنشور هو ما يثير وصفه لليوم الآخر كان يحيرهم ، وما دار بخلداهم أن الذي نشر فكرة البعث بين المصريين إنما هو أخ له في الدعوة قام في منف يدعو المصريين إلى عبادة رب العالمين ، إلى عبادة الله الذي يجمعهم يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم في الدنيا . ذلك هو إدريس عليه السلام ، وكان مثله صديقا نبيا .

وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ، يدعو الناس إلى عبادة الله

وحده ، ويبشرهم بجنات النعيم والفوز العظيم ، ويخوفهم بنار جهنم والحزى والخسران المبين . كان آدم على علم ، فقد علمه الله الأسماء كلها ، وكان أبناء آدم على علم توارثوه بأن الله واحد له ما فى السموات وما فى الأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . فلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم وفسقوا عن الدين واتخذوا من دون الله آلهة وجعلوا له شركاء ، فأرسل إليهم رسله ليبعدوهم إلى الصراط المستقيم .

أرسل الله لإدريس فهدى قومه إلى الحق وإلى طريق الرشاد ، فلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم ونسجوا حوله الأساطير : واتخذوا لله شركاء وعبدوا من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم . وكذلك أرسل الله نوحا إلى قومه لينذرهم من قبل أن يأتيتهم عذاب شديد . فكذبوه ، قال : رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا . فلم يزدتهم دعائى إلا فرارا . وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا . فلما أصروا على كفرهم قال نوح : رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا .

وأغرقهم الله ونجى نوحا ومن معه من المؤمنين .

وانتهت عبادة ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر . الأصنام التى عبدها قوم نوح . وعبد من حملهم نوح فى الفلك الله وحده ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم فعادوا لعبادة الأصنام

والكواكب والنجوم : لعبادة مردوخ وسين وشماش وعشتار والآلهة الأخرى في بابل ، وبعل وعنت في سورية ، وأزريس وحور وآمون وسب في وادي النيل : وقد أرسل الله إبراهيم ، ذلك الرجل الجليل ، بما أرسل به الرسل من قبله ، أرسله شاهدا ومبشرا ونذيرا .

راح إبراهيم يخاطب المصريين الذين أقبلوا للتجارة ، والسوريين الذين ألقوا إليه سمعهم . إنه في خيامه مهيب لا يستمد سلطانه من مراسيم المعابد أو نظام الدولة أو الكهنوت أو أى سلطان أرضي ، إنه إنما يستمد سلطانه من إله قوى هو فوق الطبيعة وأقوى من كل الظواهر الكونية التي يقدسها القوم : إن ما يحدث به إن هو إلا فتح جديد في العقيدة ولكن القوم كانوا في شك مريب مما يدعوهم إليه ، فكذبوه كما كذبت رسل من قبل :-

وغادر التجار المصريون خيام إبراهيم ودخلوا دمشق ليشتروا البرونز ومنتجاته ؛ فالبرونز معدن جديد توصل السوريون إلى مسكه ويقبل الناس في مصر عليه إقبالا شديدا . فقد عرف المصريون النحاس واستخرجوه من سيناء ، وقطعوا الأشجار في سيناء ليصهروه ويصنعوا منه ما يريدون ، أما البرونز فقد أصبح منذ استكشافه طابع العصر ، وأصبح الناس يزهون باقتنائه على الرغم من توافر الذهب في مصر !

وقام إبراهيم ومن معه من المؤمنين ليدخلوا دمشق ليدعوا الناس إلى الله رب العالمين ، ليقولوا لهم : وما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ، فقد كان اليوم يوم راحة ينطلق فيه أهل دمشق

إلى المروج حيث الخضرة والماء المتدفق من الصخور .
 فمروا محصون دمشق ومبانيها ذات الشرفات ، ومعابد بعل
 وعنت والآلهة الأخرى الذين جلبوا من بابل وآشور ووادي النيل
 والجزيرة العربية ، وبلغوا الحدائق التي ازدانت بالورود والرياحين
 وتألفت بألوان خضراء وحمراء وبيضاء وصفراء وينفسجية
 تشرح الصدور وتسرع العيون . وكان الرجال يرتدون أردية كثيرة
 الوشي أرجوانية مخططة بخطوط زرقاء وسوداء ، ويغطون رؤوسهم
 بشيلان متباينة الألوان نبتت بعقال ، ويلبسون في أرجلهم نعالا
 زمت بخيوط . وكان النساء يلبسن ثيابا زاهية الألوان تغطي إحدى
 الكتفين وتترك الأخرى عارية نهبا للعيون ، وكن يزين رؤوسهن
 بشرائط ويلبسن في أرجلهن الخلاخيل .
 وراح رجال يضربون على آلات موسيقية ذات ثمانية أوتار ،
 وآخرون ينفخون في المزمار ، وسرى الغناء في كل مكان وجلجلت
 ضحكات النساء في جنبات الرياض ، وراحت أواني الشراب تلور
 فتدير الرؤوس ؛ كان النبيذ كثيرا أكثر من الماء في نهر بردى !
 وألقى الرجال أرديتهم الفضفاضة على الأرض فبدوا في
 ملابسهم الداخلية الصفراء ذات الأكمام الضيقة والسرراويل
 المحبوكة ، وخلع النسوة أحذيتهم الحمراء ، ووسوست الخلاخيل
 وهن يضربن الأرض بأرجلهن من كثرة الضحك . فانجذبت
 العيون إلى الفتنة الطاغية .

وغض المؤمنون من أبصارهم وأغلقوا نفوسهم في وجه
 الأغاني الماجنة والضحكات المغربرة ، وقام إبراهيم يقول : زين

— ٢٤٩ —

للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب .

وصاح صائح وهو يرفع آية النبذ ويعب منها :
— هذه هي الحياة . ليس هناك خير مما نحن فيه . خمر ونساء وما لذ وطاب .

— أوثبكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد .

— إن جناتنا كجنات ربك تجري من تحتها الأنهار . أتريدنا أن نستبدل ما نعرف بما لا نعرف . أن نترك ما نحن فيه لنفوز بما تعدنا به . لقد قلت إذا شططا .

— يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار . يا قوم ما الحياة الدنيا إلا حياة الغرور .. متاع قليل ثم مأوى الكافرين جهنم وبئس المهاد . يا قوم لا تفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة للدنيا في الآخرة إلا متاع ، يا قوم متاع في الدنيا ثم إلى الله مرجعكم ثم يذيقكم العذاب الشديد .

يا قوم .. وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون ؟ !

يا قوم .. اعلّموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ، وفي الآخرة عذاب

شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .

فخففت الأصوات ، وتراخت الأصابع التي تلعب على الأوتار ، وحبست الأنفاس التي تنفث في المزمار ، وماتت الضحكات على الشفاه ، وهمدت وسوسة الخلائيل ، ووضعت أواني النبذ على الأرض ، وتعلقت الأعين بذلك الرجل الذي راح يخوفهم الله وعذابه ، ويصف لهم جهنم وما فيها حتى جعلهم يحسبون لحيها وإن كانوا يعيشون في ظل ممدود .

ورأى إبراهيم الخوف على وجوه القوم فقال :

— توبوا إلى الله .. فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه .. وإن الله لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى .

توبوا إلى الله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، فإن الله غفور رحيم .

يا قوم توبوا إلى الله عسى أن تكونوا من المفلحين .

يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود .

وضاق أحدهم بما يقول إبراهيم فسولت له نفسه أن يصيح

ليخرج الناس من ذلك الصمت الذي ران عليهم فقال :

— يا إبراهيم إني كافر بربك ، كافر بما تدعونا إليه ، فلن

لم تنته عما أنت فيه لرجمنك .

— يا قوم إني لكم ناصح أمين .

وصاح الرجال في وجهه :

— ٢٥١ —

— اغرب عنا سواء علينا أو عظت أم لم تكن من الواعظين :
وهم إبراهيم بأن يتكلم فصاحوا جميعا يكذبونه وصدفوا
عما يقول ، وزادوا طغيانا وأبى أكثر الناس إلا كفورا :
وعباد إبراهيم ومن معه إلى خيامهم ولم يتسرب اليأس إلى
قلوبهم ، فإن كان الناس قد أعرضوا عن دعوة الحق فإن ذلك
إلى حين ، فالله بتم نوره ولو كره الكافرون :

خرج بعض العمورين من دورهم يتلفتون ، وانطلقوا صوب
شمال دمشق إلى خيام إبراهيم رسول الله الذي آمنوا به سرا ،
ليتفقهوا في دينهم الجديد .

وبلغوا مضرب الخيام فإذا إبراهيم في محرابه يصلى لله رب
العالمين ، ووقف خلفه لوط وإليعازر الدمشقي الذي اشترى آخرته
بديناه فهجرا ما كان فيه من طيب العيش وآمن لإبراهيم وأسلم
وجهه لله . واصطف مع لوط وإليعازر رجال هاجروا مع خليل
الرحمن من أور وحاران فرارا بدينهم ، ورجال من سورية
شرح الله صدورهم للإسلام . فخف الذين أخفوا إيمانهم خشية
بطش ساداتهم ليركعوا مع الراكعين ويسجدوا مع الساجدين .

وقضيت الصلاة ، وجلس إبراهيم وخوله من آمنوا به يصغون
إلى ما يقوله حبيب الله ، كان حديثه ينفث فيهم القوة ، ويجعلهم
يحسون أنهم أقوى من كل من في الأرض من الجبارين ، ويطلق
أرواحهم لنهم في ملكوت الله فتستشعر أنها انطلقت من سجن
النفس والجسد لتتصل بروح الكون .

وكان فيمن ألقوا سمعهم إلى إبراهيم الخليل بعض المستضعفين
والعبيد : فراح يعلمهم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ويرفعهم
إلى مرتبة سامية ، مرتبة الاتصال بالله والآنس به ، فإذا الخوف

ينزع من نفوسهم وإذا الأمن يغشاهم . إن الذين قالوا ربنا الله
ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا
بالخنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي
الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلا
من غفور رحيم .

وجاء من المدينة رجال يسعون . كانوا من الكهان وسادات
العبيد الذين آمنوا برب إبراهيم والتجار وأصحاب النفوذ ممن
يخشون أن تدول دولتهم أو تبور تجارتهم إذا انتشر الدين الجديد .
ونظروا فاتسعت أعينهم من الدهشة فما دار بخلدكم أن يؤمن
لإبراهيم كل هؤلاء الناس . إنهم ما جاءوا إلا ليأخذوا عبيدكم
ليعيدوهم إلى ملتهم وليهددوا إبراهيم بالرجم والعذاب الأليم .
ولكن ما رأوه اليوم أنزل بقلوبهم مما أثملا فقد صار لإبراهيم
حزب قوى لا يفلح فيه التهديد والوعيد .

وتقدم أحد الكهان حتى أشرف على الملاء وقال :

— يا قوم لا يفتنكم هذا عن دين آبائكم . عودوا إلى آلهتهم .
عودوا إلى بعل وعنت وشماش وسين . عودوا إلى الشمس والقمر
والسادة البعول .

فقال إبراهيم وهو يقترب ممن جاءوا يجادلونه ويتحدون الله
ورسوله :

— ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجلوه
للشمس ولا للقمر واسجلوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون .
وعاد الكاهن يقول :

— يا قوم لا تكفروا بآلهة آبائكم . يا قوم ! ...
وقال الذين آمنوا :

— آمنا بالله وبما أنزل على إبراهيم .

— وكفرتم بآلهة آبائكم ؟

— آمنا بالله وحده .

وهم الكاهن بأن يتكلم فقال إلیعازر الدمشقي لإخوانه
المؤمنين :

— لا تصغوا إليه إنه يريد أن يردكم بعد إيمانكم كافرين .

وقال المؤمنون :

— ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين .

فقال لهم الذين جاءوا من المدينة يسعون :

— إنا بالذي آمنتم به كافرون .

— يا قوم .. الله خير مما تشركون ، يا قوم توبوا إلى الله

إن يشأ يذهبكم ويأت خلق جديد .

— عد إلى آلهتنا وآلهة آبائك الأولين ، عد إلى من مشيئتهم نافذة

في السماء وفي الأرض ، إلى من تسبح لهم الأرواح السماوية والأرواح

الأرضية .

— أالله خير أما تشركون ؟ أمن خلق السموات والأرض

وأنزل لكم من السماء ماء فأنبت به حدائق ذات بهجة ما كان لكم

أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله بل أنتم قوم تعدلون . أمن جعل

الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين

البحرين حاجزا ، أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون .

وتحدث الرجال إلى الرجال ، وكان أهل دمشق من كهان
وتجار وأصحاب سلطان في ثورة عارمة لأن المستضعفين والعبيد
لم يكتفوا بشق عصا الطاعة وترك دين الآباء ، بل أصبحوا
ينهوهم أن يعبدوا آلهتهم ويقولون إنها ليست على شيء !

وزاد في ضيقهم الثقة التي يتحدث بها أتباع إبراهيم والطمانينة
التي تغشاهم . وإن أغبط ما يضايقهم منهم وصفهم آلهتهم بالعجز :
إن هي إلا أسماء سميتنوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان !
تداول المستضعفون والعبيد على السادة البعول وسخروا منهم
وهزءوا بمن اتبعوهم . وزاد الأمر سوءاً أن أصبح هؤلاء السفهاء
على علم : ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا
ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى . وأ
إلى ربك المنتهى . وأنه هو أضحك وأبكى . وأنه هو أمات وأحيا .
وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى . وأن عليه
النشأة الأخرى . وأنه هو أغنى وأقنى .

من أين هؤلاء البسطاء والمستضعفين والعبيد مثل هذه الفصاحة
ومن الذى بث فيهم هذه الروح القوية ؟ إن الأمر لأخطر من أن
يسكت عليه . إن هؤلاء الأميين قد ألزموا الكيان والتجار ورجال
السلطان الحجة ، وتركوهم حيارى يغطون خزيهم بالثورة والعنف .
وقال قائل منهم وقد ضاق صدره بأنفاسه المحمومة :

— لئن لم تنتهوا لرجعنكم ولیمسنكم منا عذاب الیم .

ولم يرتجف المؤمنون فهم أعزة . هم حزب الله ألا إن حزب
الله هم المفلحون . وأصاب الكافرين صغار وأحسوا بصلورهم

تضيق وأظلت من أعينهم البغضاء ، وأرادوا أن يستروا خزيم
فبدعوا بالعدوان وهم يرتجفون .

وبدا بين المؤمنين والكافرين العداوة والبغضاء وكادت
تضطرم نار القتال ، بيد أن إبراهيم أطفأها فهو يدعو إلى السلام
ولا يريد إلا السلام وإذا خاطبه الجاهلون قال سلاما .

وتأهب الجاهلون لينقلبوا إلى أهلهم ليشروها حربا شعواء
على إبراهيم ومن معه ، ليقضوا على الدعوة التي تكاد أن تقوض
سلطانهم .

وقبل أن ينصرفوا قال أحدهم :

— لئن لم تنته يا إبراهيم لتكونن من المخرجين .

وقال الكاهن والغضب يتطاير من عينيه :

— ليخرجن الأعز منها الأذل .

وأعلن الكفار الحرب على المؤمنين .

كان إبراهيم يريد السلم ، كان يدعوهم إلى سبيل ربه بالحكمة
والموعظة الحسنة ، يدعوهم إلى الهدى . إلى صراط مستقيم ،
فلم يسمعوا دعاءه . ولو سمعوا ما استجابوا له فقد كبر عليهم
ما يدعوهم إليه .

قال لهم إن ما يدعون إليه هو الباطل وأن الله هو الحق . والذين
يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء
ليبلغ فاه وما ••• ببالغه . وأنهم لا يخلقون شيئا وهم يخلقون .
كان يخفص له جناح الذل من الرحمة ويدعوهم إلى النجاة ، إلى
الجنة ، إلى دار السلام ، فاستكبروا .. وقالوا قلوبنا في أكنة مما

تدعوننا إليه ، وفي آذاننا وقر .. ولنا لى شك مما تدعوننا إليه مريب .
كان يريد السلم ، أن يقرع الحجة بالحجة ، ولكنهم ضاقوا
بهذا السبيل ، فإنه كلما جادلهم ألزمهم الحجة وجعلهم يستشعرون
صغارا وفتن المستضعفين والعيبد ، لأنهم لو صبروا على دعوته
لنقضت عليهم وذهبت بنفوذهم ، فليضع السيف حدا لهذه المعركة
التي كادت ترجح فيها كفة المؤمنين .

اعتدوا عليه وعلى من معه ولم يبدأ هو بالعدوان ألينة فهو
يعلم أن الله لا يحب المعتدين ، وصبر على ما أصابه إن ذلك من
عزم الأمور .

وها هم اليوم جاءوا يهددونه بالرجم وبعذاب أليم ، فصبر
وهو على يقين من أن الله لا يضيع أجر المحسنين . واعتلوا على
المؤمنين فقالوا : ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل
المتوكلون .

كان إبراهيم يريد السلم ولكن القوم أبوا إلا القتال ، عادوا
إلى المدينة ليأتمروا به ، ليقتلوه ويقتلوا الذين يأمرؤن بالقسط
من الناس . وأحس إبراهيم الخطر فقال لمن معه :
- وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .

فنظر إليه المؤمنون وقد وجلت قلوبهم وقالوا :
- قتال ؟

فقال لهم وهو كاره :

- قتال .. إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير .

كان إبراهيم ينجح للسلم ولكن الذين ناصبوه العداء نبذوا السلم
(إبراهيم أبو الأنبياء)

وراحوا ينشخون في نار الحرب . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ليعبدوا من آمنوا إلى الظلمات إلى عبادة آلهة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا . فحق عليه أن يحرض المؤمنين على القتال وأن يقول لهم قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله :

وراح المؤمنون يتأهبون للقتال ، حملوا القسي والسهام والحراب والرماح وفتوس الحرب وعصى الرماية ، وأخذ إبراهيم يثبت فيهم روحا قوية ويقول لهم .. فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين .. كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله .

وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .. فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين .. قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم .. ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين .

ووقف المؤمنون ينتظرون ، لأنهم قليل مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس ولكن كان يقوى عزائمهم ما يعدم به إبراهيم ، كان يعدم بالفتح وبأن من يستشهد في سبيل الله فله جنات عرضها السموات والأرض ذلك هو الفوز العظيم .

وجاء الكهان ورجال الدولة والتجار ورجال الجيش ومن ساقوا معهم من الجنود المرتزقة ، جاءوا ليدافعوا عن سلطانهم في الأرض وفي أيديهم الفتوس والسهام والرماح وفي قلوبهم العداوة والبغضاء . جاءوا يختالون فقد كانوا واثقين أن النصر لهم وأن

الدائرة ستدور على أولئك السفهاء الذين عابوا آلهتهم وسفهاوا أحلامهم وعملوا على تفويض نفوذهم .

وتراءى الجمعان ، ونظر المؤمنون فانزل الله على قلوبهم السكينة إذ أراهم أن أعداءهم في أعينهم قليل ؛ ونظر الذين جاءوا يقاتلون الله ورسوله فوجلت قلوبهم وأوجسوا خيفة إذ أراهم الله أن أعداءهم في أعينهم كثير . ونزلت الهزيمة بأفئدتهم قبل أن يطلق سهم أو يرمى رمح أو تبسط يد للقتال .. ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين :

ومشى الرجال إلى الرجال وبدأ الصراع الذى تباركه السماء ، الصراع الذى لولاه لأيسنت الحياة ونخر فى الكون فسق المترفين وساد فيه ظلمهم وطغيانهم . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .. لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا :

كتب على إبراهيم والمؤمنين القتال ، فاندفع إبراهيم بين الصفوف يقاتل فى سبيل الله : فإذا الرجل الأواه الحليم الذى تفيض بالدموع عيناه إذا ما دعا ربه ، يقاتل فى ضراوة من أرغموه على القتال ، فقد أمر أن يقتل من جاءوا لقتاله : فان قاتلوكم فاقتلوهم ، فما كان له إلا أن يطيع أمر الله ، وأن يخوض معركة الإيمان حتى يحكم الله بينه وبينهم وهو أحكم الحاكمين .

وراح لوط يطلق سهامه ويهز رمحه ويطعن به أعداء الله ، ويلتحم مع الرجال ويبسط إلى أعدائه يديه ليقتل أنفسا تبغى الفساد ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

وسارح إلبعازر الدمشقي إلى الطعن والزال وكان يستعجل
إحدى الحسينين : النصر أو الاستشهاد في سبيل الله والفوز
بجنات الخلود .

التحم حزب الله وحزب الشيطان واشتد القتال بين المصلحين
والمفسدين ، وكانت قلوب المؤمنين عامرة بالإيمان وقلوب
الفاستقين هواء . وراح كل يستنصر وليه . وإبراهيم ومن معه
يدعون الله ، والكافرين يدعون بعلا وعنت والأصنام الأخرى ،
وأطبق الحق على الباطل ليزهقه ويكتم أنفاسه .

ووقفت سارة على باب خيمتها تنظر والمركة تلور على قيد
خطوات منها وقد حمى وطيسها : سهام تراشق ، ورماح
تهز وترمي لتستقر في الظهور والبطون ، وخناجر ترتفع وتهوى
فتغوص في الرقاب والقلوب والصدور ، وصرخات مفزوعة
وأناث موجوعة :

وراحت تتبع إبراهيم بعينيها وانبهرت أنفاسها وهو يصول
ويجول لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الملك لله :

وشخصت ببصرها إلى السماء وابتهلت إلى الله في حرارة أن
ينصر عباده ويؤيدهم بنصر من عنده ، وما النصر إلا من عند الله
إن الله عزيز حكيم . وطفرت من مآقيها الدموع وهي تدعو الله
أن ينزل على المؤمنين نصره الذي وعدهم .

وثبت إبراهيم ومن معه وأبلوا بلاء يرضى الله وأنحنوا في
الأرض . ولما رأى الكافرون جنودهم صرعى يغطون أرض
المركة زلزلوا زلزالا شديدا ، وأيد الله الذين آمنوا على عدوهم

-- ٢٦١ --

فأصبحوا ظاهرين . وألقى في قلوب المفسدين الرعب فولوا
مدبرين . وإبراهيم ومن معه في أثرهم يقتلونهم تقتيلا .
وهام من بقى من الكهنة ورجال الدولة وأصحاب النفوذ
والجنود المرتزقة على وجوههم مرعوبين ، وولوا الأدبار في
دروب دمشق لا يلوون على شيء .
وباتت دمشق في حوزة إبراهيم ليقم فيها الدين وليصنع عن
الجاهلين ، وليقول : سلام فسوف يعلمون .

فرح المؤمنون بما آتاهم الله من فضله فقد دانت لهم دمشق
الفيحاء جنة الله في أرضه ، وسقطت في أيديهم بكنوزها وقصورها
وقلاعها وبيوتها ذات الشرفات ، وحدائقها ورياضها وأشجارها
وتينها وزيتونها وأعنانها ونخلها وما ترخر به من خيرات :

وساء الكافرين هزيمتهم ووجلت قلوبهم وباتوا يترقبون من
الخوف ، فقد ظنوا أن إبراهيم سيقتل آثارهم ليقطع دابرهم .
كانوا يسخرون من الذين آمنوا فإذا الذين كانوا يستهزئون بهم
قد أصبحوا فوقهم يتحكمون في رقابهم ، إن شاءوا عفوا وإن
شاءوا يقتلون .

وقال إبراهيم : سلام ! وراح يدعو إلى السلم : كان يلتمس
هدايتهم فقال لهم قولاً لنا لعلهم يهتدون : من عمل صالحاً فلنفسه ،
ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون .

عفا إبراهيم وصفح عنهم حتى يأتى الله بأمره ، وأن تعفوا
أقرب للتقوى .. إن الله يحب المتقين . وراح المشركون يترقبون
ما يفعل إبراهيم بقصر الملك وقد أصبح خالياً بعد أن فر من فيه
هاربين ، قال من في قلوبهم مرض سيعتلى العرش ويكون جباراً
من الجبارين ، وقال من مالت قلوبهم إلى الدين الجديد إن ما عند
ربه خير من قصور دمشق وكل كنوز الأرض ، فما الحياة الدنيا

إلا متاع الغرور .

وعاد إبراهيم إلى خيامه يسبح بحمد ربه ويستغفره ويسجد مع الساجدين . ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فدخل الناس في الدين الجديد أفواجا ، وراح إبراهيم يبني المحاريب لله رب العالمين .

وعرف أهل دمشق الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما ، وشرح ذلك صدر إبراهيم . ولكن هل يقنع بهذا الفتح ؟ أيرضى بالدعة والاستقرار ؟ أهذه هي كل رسالته ؟ أن يعرف حفنة من المؤمنين أن ربهم إله واحد لا شريك له بينا الناس في الدنيا كلها يتخبطون في الجهالة ؟

إنه لا يريد علوا في الأرض ولا يريد سلطانا يتحكم به في الرقاب . إن كل ما يبغيه هو أن يبلغ رسالات ربه للناس كافة . حتى يؤمنوا ويقوموا الصلاة وينفقوا مما رزقهم الله سرا وعلانية من قبل أن يأتهم يوم لا يبيع فيه ولا خلل .

دانت له دمشق بقصورها وكنوزها وحصونها ومعابدها وجنتها ، ولم يدر الترف رأسه ولم يدنس الطمع قلبه ، إن ما يريده يفوق كل كنوز الدنيا وما فيها من متاع ، إنه يريد الآخرة ويسعى لها سعيها وهو مؤمن ، إنه يريد كنوز السماء وقصور السماء وجنتات النعيم .

وما دمشق في ملك الله ؟ إنها ذرة في فلاة ، قطرة في بحر . وما ينبغي أن تظل دعوة التوحيد حبيسة جدران مدينته مهما عظمت هذه المدينة وارتفع شأنها . إن دين الله لا بد أن ينتشر في الأرض

مشارقتها ومغارها . نجاه الله ولوطا إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين فكان عليه أن يخرج إلى تلك الأرض .

حسنّت دمشق مستقرا ومقاما للمؤمنين ، ولكن ما كان للنبي الذي هجر الدعة في أور ليعيش في خيمة يدعو الناس إلى السميع العليم أن يستقر في مكان واحد ، فأرض الله واسعة وقد كتب الله عليه أن يمشى فيها ويدعو الناس إليه .

إن كانت قوافل التجارة تجوب الآفاق آناء الليل وأطراف النهار ، في الظلمات والنور ، في الظل والحرور ، في الفيافي والسهول ، في الفجاج وشعاب الجبال ، في المطر الشديد والريح الصرصر العاتية . في لفح الصيف وبرد الشتاء في سبيل عرض زائل ، فأولى لقوافل الله أن تسيح في الأرض في سبيل الله ، ثم أولى لهم أن يدعوا الناس إلى الله مالك الملك مولاهم الحق ، ليفوزوا بجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا .

نشأ إبراهيم في أور وهاجر إلى حاران ومنها إلى سورية ، وإن بابل لها حدود وسلطان ، وآشور لها حدود وسلطان ، وسورية لها حدود وسلطان ، وكنعان لها حدود وسلطان ، والخزيرة العربية لها حدود وسلطان ، ومصر لها حدود وسلطان ، ولكن إبراهيم لا يقر هذه الحدود ولا يدين لسلطان غير سلطان الله ، إن هذه الممالك كلها أمة واحدة وربها واحد لا إله غيره يوتئ كل ذي فضل فضله ، فأمر مؤذنه أن يؤذن في الناس بالرحيل إلى حيث يشاء الله .

ورفعت الخيام وركبت سارة جملها وحوها جوارها ، وراح

إلى عازر الدمشقي يشرف على العبيد وقطعان الماشية التي أثار التفع
فحجب دمشق عن العيون . وامتطى إبراهيم راحلته ، وامتطى
لوط راحلته ، وانطلقت قافلة الإيمان في معبد الله ، في الكون
العريض ، تسبح بحمد ربها وتستغفره إنه كان توابا .

كان رجال بيت إبراهيم ألفا أو يزيدون من المؤمنين والعبيد ،
وكان للوط رجال ورعاة وعبيد وأنعام ، فقد أنجب كل من
خرج مع إبراهيم من أور ومن حاران ومن دمشق - إلا إبراهيم
كان فردا لم يرزقه الله بذرية . ولو شاء لرزقه من سارة ولكن
شاءت حكمته أن يؤخر هبته له ، لأن الله قدر أن يكون أول
الصالحين الذين يهبهم له من غيرها ، إن الله يفعل ما يريد .

كان إبراهيم يدعو ربه في الظلمات وفي دلوك الشمس وآناء
الليل وأطراف النهار : « رب هب لي من الصالحين » . ولم
يستجب الله إلى دعاء خليله فلم يكن أول الوارثين من آل إبراهيم
من زوجه التي خرجت معه من أور ، إنه من امرأة أخرى اختارها
الله له سوف يقوده إليها . إن الله بالغ أمره قد علم لكل
شيء قدرا .

انطلقت قافلة الإيمان إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين ،
وكان الرعاة يرعون على سفوح الجبال وفوق قممها ، والدور
مبعثرة هنا وهناك كأنها صناديق من الورق ، والفلاحون يحرقون
الأرض ويحرقون المحراث جمل وثور ، والكلاب تنبح من بعيد .
وتصاعد من الجبال دخان إذ كان الكنعانيون يقدمون القرابين
لآلهتهم ، وكان البدو ييممون صوب الدخان ليتقربوا إلى أربابهم

بالصلوات ، فإن الناس فى حاجة أبدا إلى آلهة ترعاهم يوم ظعنهم ويوم إقامتهم .

وبلغت القافلة وادى شكيم وكانت المياه تتدفق ولها خريز وقعه فى نفس المؤمن كوقع التسبيح ، وكانت الشمس ترسل أشعتها الحامية ، فتلقت المؤمنون فرأوا « بلوطة مروة » وللأشجار عندها ظل ممدود ، فراحوا ينصبون خيامهم على جانبي الماء الذى يجرى بالحياة والنماء .

واستراح المؤمنون قليلا ، ولم يركنوا للدعة بل قاموا يبنون محرابا لله رب العالمين ، لمن أسلموا وجوههم له ، لمن هجروا أوطانهم وباعوا دنياهم وساحوا فى الأرض ابتغاء وجهه الكريم . كانت أشجار البلوط منتشرة فى المنطقة وجلس تحت الأشجار المعلمون يفقهون الناس فى أمر دينهم . وكانت فرصة أن تدور المناقشات بين إبراهيم ومن معه من المؤمنين وبين المعلمين الذين جعلوا لله شركاء .

وراح المؤمنون يقولون للمعلمين إن الله واحد لا شريك له ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى .

وظف المعلمون يسبحون بحمد بعل وأخته عنت والآلهة الأخرى . واشتد الجدل وقال المؤمنون : إلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . وقال المشركون : ما نحن بتاركى آلهتنا سنظل لها عابدين . واشتد الجدل بين الفريقين ، وأحس المعلمون

القوة في حجة هؤلاء الرعاة الذين جاءوا يسوقون أبقارهم وجمالهم وحميرهم وأغنامهم ، وهبت عليهم ريح الهزيمة فوطدوا العزم على أن ينهوا هذه المناقشات التي كادت تزعزع عقائدهم فقالوا في استكبار :

— اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم :

وجاء الليل ومد أبو المؤمنين الموائد لرجالهم وعبيدهم وللضييف ، وأقبل رعاته على الطعام يأكلون باسم الله ويحمدون الله على ما رزقهم من خير ، ودار الحديث حول الله والدين حديثا عافيا رقيقا أصنى من الماء المترقق في جداول شكيم ، وجاشت نفوسهم بفرح فياض انعكس على وجوههم فتألفت بالنور ، وملاً الإيمان قلوبهم بالقوة والبأس ، فإذا الرعاة البسطاء الذين يرعون الإبل الجالسين تحت أشجار البلوط يبدون في جلال رعاة الشعوب .

ولم يستقر إبراهيم عند « بلوطة مروة » فهو لا يعرف الاستقرار ، إنه في رحلة دائمة سواء عليه أفي أور كان أم كان في حاران أم في دمشق أم في شكيم ، فأينما كان فهو مع الله يروح وتجارة لن تبور .

وأمر بالرحيل فانطلقت قافلة الإيمان إلى الغرب تسيح في الأرض التي بارك الله فيها للعالمين ، تسير إلى حيث يقودها الله والله فعال لما يريد .

وكانت توى إلى مدى البصر المروج الخضراء زخرت بجينات

من نخيل وأعناب وتفجرت فيها العيون ودنت القطوف مختلفة ألوانها ، تشرح الصدور وتحرك الألسنة بالتسبيح لمن أنبت فيها كل شيء موزون .

لقد أخذت الأرض زخرفها وازينت وبدت كالفرديوس ، ولم تجش في نفس إبراهيم رغبة أن يضع يده عليها ويستقر فيها فقد أعرض عن جنات الدنيا ، وإنه ليرجو أن يجعل الله الفرديوس له نزلا .

وبعد مسيرة يوم بلغت القافلة « بيت إيل » بيت الله ، وكان الناس حينما سار إبراهيم يعرفون الله ، فبابل : باب الله ، وبيت إيل : بيت الله . إن الناس في كل مكان يقيمون المعابد لله ولكنهم يشركون مع الله آلهة أخرى .

وكان الجبل شرقي بيت إيل شامخا تكسوه غابات البلوط ، وكانت قمته تتألق بنور لطيف تهفو إليه قلوب المؤمنين . فهناك تطمئن الأرواح في الصلاة وترشف من نبع الصفا الإلهي وتندمج في روح الكون ، في الحقيقة الأزلية .

وراح إبراهيم يرقى في الجبل وفي أثره القافلة المؤمنة ، حتى إذا بلغوا قمته راحوا ينصبون خيامهم في ظل أشجار البلوط ، وأخذ المؤمنون يتلفتون : كانت أراضي وادي الأردن تمتد إلى مدى البصر كسباط سندس أخضر . إنها جنة الرب تنطق بنعمته وتسمح له . ونظروا وراءهم فرأوا البحر وأمواجه المتلاطمة كجياذ شهب يجرى بعضها في إثر بعض كأنما هي في حلبة سباق فانشرحت نفوسهم : ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه !

وفوق أعلى قمة في ذلك الجبل بنى إبراهيم محرّاباً ليذكر فيه اسم الله . وليخبر المؤمنون لله ساجدين .
وانتشرت الأنعام والأغنام في الأرض ترعى والرجال والعبيد يحرسونها . ونظر الكنعانيون فرأوا قبيلة عظيمة بها رجال أشداء مسلحون .. قبيلة لا قبل لهم بها جاءت تزاحمهم على مراعيهم . ولم تكن هذه أول قبيلة تجيء للرعى فما أكثر القبائل العربية التي جاءت إلى هذه الأرض ثم هبطت إلى سيناء أو وادي الأردن أو وادي النيل .

وسكت الكنعانيون على مضض حتى إذا دعاهم إبراهيم إلى عبادة الله وحده ونبذ إله القمر « سين » الذي كان يعبد في بابل وحاران وكنعان . وفي سيناء التي تشرفت بالانتساب إليه ، ثاروا واشتد حقنهم على القبيلة التي جاءت تسب آهنتهم وتسفه أحلام آبائهم الأولين :

وفكر الكنعانيون في دفع هذا البلاء الذي نزل بهم ، لأنهم كانوا دائماً في حماية الفراعنة ، وحتى بعد أن ضعفت مصر ووثب الرعاة على الحكم فيها واستولوا عليه لم يتغير الأمر عما كان ، وظل الكنعانيون في حماية حكام البلاد الأجانب .

لأنهم وجدوا ألا قبل لهم بهذه القبيلة التي جاءت من أور بدين جديد تدعو إلى إله واحد له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما ، فليرسلوا إلى ساداتهم في مصر يستنجدونهم ويلتمسون منهم تخليص آهنتهم مما يتهددها من هوان وخزي .

وركب رجال من الكنعانيين إلى مصر يستصرخون الملك

— ٢٧٠ —

ويرجونه أن يرسل حملة لتأديب الواغلين الذين وثبوا على عبيده
وسبوا آلهتهم ، ويخوفونه مغبة السكوت عليهم ، فإنهم أقوياء أشداء
إن لم يخرج اليوم لقتالهم فسيشتد ساعدهم ويغفرون على مصر غدا
يفزعونها من يديه ، ويسبون آلهته .

وتوكل الكنعانيون على ملك مصر وتوكل إبراهيم على الله فهو
حسبه ، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا :

خرج رسل الكنعانيين من إيليا . بيت إيل . بيت الله ،
يحملون الهدايا إلى ملك مصر ويستصرخونه ويقولون له إن المدينة
المعظمة . المدينة المباركة ، المدينة التي قدسها الصابئة لأن فيها
هيكل المشترى باتت مهددة باستيلاء إبراهيم عليها كما استولى
من قبل على دمشق ، وأن استيلاءه عليها إن هو إلا خطوة في
سبيل الوثوب على مصر .

إن الخطر يهدد المنطقة كلها . وإنه لخطر يختلف عن كل
الأخطار التي حاقت بالناس من زحف القبائل العربية على بابل
وسورية ومصر . فالزحف قديما كان يريد الأرض والمرعى
والاستقرار . أما زحف إبراهيم فإنما هدفه العقائد والضمان
والنفوس . فهو يزعم أن كل الآلهة التي تعبد في بابل وآشور
وسورية وكنعان والحزيرة العربية ومصر إن هي إلا أصنام لا تملك
لنفسها نفعا ولا ضرا . وأن للعالمين ربا واحدا لا شريك له ،
وأن أمم الأرض كلها أمة واحدة .

وبلغ رسل الكنعانيين غزة فاشتروا من أسواقها بعض الإماء
هدايا لأمر مصر الوراثي ، وللمشرف على أواميس ، والوزير .
وحامل مروحة الملك ، ورئيس الرماة ، والمشرف على البلاد
الأجنبية : فما كان الطريق إلى الملك ليفتح لهم إلا بالهدايا والجواري
والحسان .

، وهبطوا إلى سيناء وكانت الأشجار تغطي الأرض وبعوث
المضرين تجوب أرجاءها للتنقيب على النحاس والمعادن النفيسة ،
وأناس يهرعون إلى معبد سين إله القمر ، فقد كان ذلك المعبد
من أهم مراكز عبادته حتى أطلق اسمه على شبه الجزيرة كله .

كان للإله سين مكانة سامية عند العرب أبناء سام وقد رفعوا
شأنه أينما حلوا ؛ عبدوه في بابل ، وقدسوه في أور وحران ،
وأقاموا له معبدا هائلا في سيناء ، وآخر في أسوان وكانت تسمى
سين تبركا باسمه .

إن القمر أنيس البدو الذين يسرون في الليل وقد توطدت بينهم
وبينه أواصر حب وإجلال ، وربما ذلك الحب حتى صار تقديسا
فعبدوه في أور باسم نائما ، وعبدوه في حران وسيناء
باسم سين ، وعبدوه في وادي النيل باسم تحوت وجعلوه كاتب
الآلهة جميعا ، وقد جاء إبراهيم ليقول لهم إن هي إلا أسماء سميتوها
أنتم وآباؤكم .

ولاحث لرسل الكنعانيين مدينة بلزيوم . وسور الحاكم الذي
بنى لصد البدو عن وادي النيل ، وقلعة زل ، والأرض الخضراء .
التي تروى من قناة خرجت من النيل لتصب في البحر الأحمر ،
فحولت البرزخ الذي يفصل بين البحرين إلى جنة فيحاء تهفو إليها
أفئدة القادمين من الصحراء .

وخف حراس الحدود الشرقية إلى رسل كنعان يسألونهم
من أين وإلى أين ؟ فقالوا :

— نحن عبيد فرعون قادمون من كنعان لمقابلة ابن رع ، له الحياة والسعادة والصحة ، لنلتصق من جلالته أن ينقذنا من قوم نزلوا بأرضنا يريدون أن يفتنونا عن ديننا ، ويطلبون منا أن نشق عصا الطاعة لمولانا العظيم له الحياة والسعادة والصحة .

وسمح لهم حراس الحدود بالمرور فانطلقوا بهداياهم وجواريهم الحسان في أرض جوشن وما أخذ الحراس من الهدايا إلا اليسير .
انساب الكنعانيون في أرض يافنها غموض مقدس : قطط مخنطة وثيران مخنطة ، والمصريون بملابسهم الكنائية البيضاء يغدون ويروحون . وبحيرات تناثرت وغطت سطوحها أوراق البردي وزهور اللوتس ، والطيور تحوم حول الزوارق وهي تتهادى على الماء .

انساب رسل الكنعانيين في الوادي الضيق الذي يقودهم إلى شرق الدلتا حيث اتخذ ابن رع عاصمته الجديدة . وقال الكنعانيون إنهم ذاهبون إلى فرعون ونعتوه بابن رع ، وإن كانوا في قرارة نفوسهم يعلمون أنهم ذاهبون إلى ملك من ملوك الرعاة ، الرعاة الذين استأذنوا أول الأمر ليرعوا في شرق الدلتا فلما آتسوا ضعفا من الفراعين انتزعوا الحكم منهم .

كانوا في طريقهم إلى قصر سنان بن الأشل بن عبيد من دان له الوجه البحري ، ومن يحاول أن يمد سلطان حكام البلاد الأحنينية « حتاو خاسوت » المكسوس إلى الوجه القبلي .

تمت ترجم جده عبيد اسمه إلى لغة الفراعين ليتقرب إلى المصريين فأصبح املك نخسى (العبد) وصارت له تماثيل في (إبراهيم أبو الأنبياء)

أواريس لا تفترق عن تماثيل الفراعنة ، ونسب ابنه سنان نفسه إلى رع وارتدى ما كان يرتديه الفراعنة ومارس ما كانوا يمارسونه من مراسم .

ودخل رسل الكنعانيين « منديس » وكانت تموج بالناس ، فقد كانت الليلة ليلة الاحتفال بعيد « باسنت » إله المرح ، وكان رأسها رأس قطة وكان التقرب إليها بالخلاعة والتهتك والمجون .

فكان الرجال والنساء يعبون الجعة عبا ، والنسوة يطلقن ضحكات ناعمة تفعم جو المدينة بالنشوة ، والحمور تلعب بالرءوس فتلتصق الصدور بالصدور وتبحث الشفاه عن الشفاه :

وتهلل رسل الكنعانيين بالفرح واندحجوا في الناس ونسوا الخطر الداهم الذي يهدد إيليا ، بيت الله إلى حين ، وأخذوا ينهلون من كئوس اللذة . ولم ينكروا شيئا فسواء لديهم أتضحية الأجساد كانت تقدم على مذبح عشتار أم كانت تقدم على مذبح « باسنت » !

واستأنف رسل الكنعانيين رحلتهم فرأوا الفلاحين يحفرون الترع لتندفق مياه النيل في القنوات ، والثيران تجر المحاريث وتشق أخاديد في الأرض السوداء (كيمي) ، والرجال والنساء والأطفال يبذلون البذور أو يجمعون المحاصيل .

وأخيرا دخلوا أواريس العاصمة الجديدة عاصمة الهكسوس وكانت غاصة بالخنود الأشداء وما كانت أسوارها المتينة وحصونها البيضاء قد بنيت بعد . وكان الذسوة في الأسواق يمارسن التجارة ، والرجال يصنعون الخلى أو يصنعون الخناجر وأدوات القتال

أو ينسجون الثياب أو ينحتون التماثيل للآلهة . وكان تماثال الإله « ست » أكثر ما يقبل عليه الناس في أواريش .

وكان مردوخ أول أمره إلها محليا في بابل ، قبل أن ينزع العرب أبناء سام ملك بلاد ما بين النهرين السومريين فرفعوه إلى مرتبة رب الأرباب وإله الآلهة .

وكان « ست » كسائر آلهة الأقاليم إلها محليا يعبد في شرق الدلتا ، فلما انتزع العمالقة الذين وفدوا من تهامة ملك مصر فعلوا ما فعله العمالقة الذين انتزعوا ملك بابل ، رفعوا « ست » الإله المحلي ليكون رب الأرباب وإله الآلهة .

وانطلق رسل الكنعانيين إلى القصر ليقابلوا الملك الذي فرض عليهم حمايته ، وفي الطريق رأوا تماثلا لنحسى جد الملك وكان يختلف عن الفراعة وإن ارتدى ثيابهم ووضع على رأسه تاجهم ، وكان يمتاز ببسطة في الجسم وتختلف ملامحه عن ملامحهم ، وقد كتب على التمثال « الملك نحسى محبوب الإله ست رب أواريش » . وكان يقرب التمثال مسلة قدمها نحسى قربانا للإله ست

رب أواريش . وكان آنذاك حديث عهد بحكم مصر وما كان الملك قد استتب له بعد ، فكان متراضعا فآقر الوضع الذي كان عليه « ست » وأنه إله أواريش وحسب ، أما خلفاؤه الذين اشتد ساعدهم فقد رفعوا رب أواريش ليكون رب الآلهة جميعا ، رب الأرباب وإن أحق ذلك كهنة رع في أون (هليوبوليس) وكهنة بتاح في منف وكهنة آمون في طيبة .

ذهب رسل الكنعانيين للقاء سنان بن الأشل بن عبيد . إنه

من أبناء سام وهم من أبناء سام ، إنه من تهامة وهم من عرب الجزيرة العربية ، ولكن أين هم منه الآن ؟ إنه فرعون من الفراعين ستذكره الأجيال القادمة سواء أطلقوا عليه سنان أم ابن الشمس أم أطلق عليه الإغريق اسم « سلاتيس » (١) ، أما هم فإنهم عبيد فرعون أيا كان ذلك الفرعون .

وبلغوا القصر وقابلوا رئيس الوزراء وقدموا إليه هداياهم وقالوا :
— جئنا نلتئم المثل بين يدى فرعون العظيم ، له الحياة والسعادة والصحة .

ولما فرغوا من مقالتهم قال رئيس الوزراء :
— مولانا ، له الحياة والسعادة والصحة ، فى المعبد يقدم القرايين لإلهنا « ست » العظيم رب الأرباب وإله الآلهة ، له الحمد وله التقديس :

وكان الملك يركع فى المعبد أمام تمثال « ست » ويتلو صلاته ، وكان الكهنة برعوسهم الحليقة وثيابهم البيضاء يطلقون البخور ويقومون بالمراسم ، وكان الكاهن الأول للإله بقرب الملك يصغى إلى ابتهالاته ، وكان سنان يقول فى حرارة وقد تفرقت الدموع فى عينيه :

— الحمد لك يا ست يا بن « توت » ، يا صاحب القوة فى سفينة الملايين (سفينة الشمس) ، والذى طرح الثعبان المعادى لرع أرضا ، والذى على رأسه سفينة رع ، ومن صوته عظيم فى الحرب ، ليتك تمنحنى حياة جميلة لأنهى بخدمتك وأحظى

(١) ذكر يوسفس نقلا عن مانيتون « أن سلاتيس أول ملوك

الهكسوس » .

برعايتك .

ثم نهض الملك وسار يحف به الكهنة ورجال القصر ، وراح يحدث الكاهن الأعظم « لست » ويعده ببناء المعابد لرب أواريس وعينه الأمانى ، ويلوح للكهنة بالثراء الواسع ليجذبهم إلى جانبه ويأمن موامراتهم .

دخل الملك القصر وراح يتأهب لاستقبال الوفود فأخذ موظفو خزانة الثياب الملكية يغدون ويروحون في ردهات القصر مزهوين ، فهم يزينون « الحوريس » إلههم الطيب ، الملك الذى بذل كهنة ست كل الجهود ليقنعوا الشعب أنه كفرعين مصر جاء من نسل الآلهة .

وراح مزين الملك يثبت على عارضيه لحية صناعية طويلة ، ويضع على رأسه شعرا مستعارا طويلا ، ووقف المستشار الخاص يحمل التاجين ويرقب مزين الملك فى خضوع ، حتى إذا انتهى من تزيين جلالته وضع المستشار الخاص على رأس جلالته تاج الوجهين البحرى والقبلى ، وزينه بالحلل والجواهر ، ثم ناوله العصا الملكية ، فنهض الإله الطيب وسار إلى قاعة العرش فى خيلاء وعلى رأسه التاجان ، وإن كان الوجه القبلى لم يخضع بعد لحكم « الحتاوخاسوت » الهكسوس .

وأذن لرسل الكنعانيين بالدخول على جلالته ، فتقدموا فى الفناء الأول وكانت تزيينه أعمدة البردى وهم مأخوذون ، واستولوا على قلوبهم رعب شديد إذ كانوا يقتربون من ذلك الكائن الذى يفوق البشر ، والذى كان يستطيع بكلمة تخرج

من بين شفتيه أن ينقذهم مما هم فيه .
ورأوا الشرفة التي يشرق منها جلالته من أفقه على شعبه ،
ولم يكن للمصريين عهد بمثل تلك الشرفات فهي منتشرة في سورية
وبلاد الكنعانيين ، وقد أدخلها ملوك الرعاة إلى البلاد فيما جاءوا به
من حضارة وخيل وعربات وأسلحة حربية . وتقدم رسل الكنعانيين
من المقصورة التي استوى الملك على عرشه فيها فخفقت قلوبهم
وارتعدت فرائصهم . وراح من سيتحدث منهم إلى جلالته
بجمع شتات فكره ليتذكر ما لقنه إياه رجال القصر من مديح يثلج
به صدر الإله الطيب الذي يرعى بلاده رعاية الوالد الحنون لابنه ،
ويمجده رعاياه ويخشاه أعداؤه ، وتوقره الكهنة كابن حقيقى لرع
إله الشمس العظيم .

ودخل رسل الكنعانيين قاعة العرش وما لاح لهم الملك حتى
خروا له ساجدين ، فلما أذن لهم أن يرفعوا رءوسهم تقدم الناطق
بلسانهم بين يديه ، وانحنى وقبل قدمه ، ثم وقف في خشوع .
وكان الملك يجلس على عرش الأحياء ، وهو مقعد مكعب
الشكل ظهره قليل الارتفاع وليس له مساند جانبية ، تزين
قواعده زخارف تحكى ريش الطيور ، وقد وضعت فوق المقعد
وسادة ، وحف بالملك الأمير الوراثى والوزراء ، ووقف عن يمين
الملك حامل المروحة ورئيس الرماة والمشرف على البلاد الأجنبية
ورئيس المازوى (جنود الشرطة فى الصحراء) والكاتب الملكى
والمشرف على الخيالة والكاهن الأول للإله ست .
وراح الرجل يلتقى بين يدى الملك خطبة طويلة كلها تملق

ورياه ، قال فيما قال :

— يا من أنت مولانا ، يا من نجرى كل شيء كما يشاء قلبك ويهوى ، أى شيء ذلك الذى لم نخط به خبرا ؟ فما من شأن أبرم دون علمك ، يا من إله الدوتى فى فمك . ويا من عرش لسانه فى معبد الحق . ويا من يستوى الإله فوق شفتيه . ويا من كلماته تطاع وتجلب السعادة والخير . وراح الرجل يكيل المديح للملك حتى انتفخت أوداجه فقال وهو يشمخ بأنفه :

— لقد سررنا جلالتنا سرورا كبيرا عما تقول لأنك تفهم كيف تقول ، فالتمس ما تشاء لئلا تمضى جلالتنا لك حاجتك .

وتهللت أسارير رسل الكنعانيين ونزل بقلوبهم الفرح فقد وعد ملك أواريس أن يستجيب لطلبهم . وقال رجل كنعان :

— لقد نزل بأرض عبيد مولاي قوم من البلى أطمعهم كرما فينا ، فلم يكتفوا بالرعى فى مراعيها ومزاحمة مواشيهم لمواشيها بل طعنوا فى آلهتنا وسفهاوا أحلامنا . وقالوا : ما بعل وعنت وآلهتنا الأخرى إلا أصنام لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا . وراحوا يسخرون بنا ومعتقداتنا وآلهتنا .

وقال الكاهن الأول للإله ست :

— وما هى دعواهم ؟

— دعواهم أن لا إله إلا الله ربهم ورب العالمين . فهم يريدون بهذه الدعوى أن يستولوا على الدنيا بأسرها . وأن تخضع لهم كل الدول والممالك وشعوب الأرض طرا .
وضحك الملك ملء شذقيه وقال :

— ٢٨٠ —

— أ جعلوا الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشيء عجاب !

وقال كاهن ست :

— لن يصبر مولانا المحبوب من ست ومن الآلهة جميعا على

هذا الفساد . إن إلها ست ، من صوته عظيم في الحرب ، ما شرع
الحروب وما بارك المحاربين إلا ليصون كلمة الآلهة ويجعلها هي
العليا في الأرض وفي السماء . إن إلها العظيم ست ابن « توت »
وصاحب القوة في سفينة الملايين . ومن طرح الثعبان المعادى لرع
أرضا : قد حمل سلاحه وخرج لقتال هؤلاء الذين عابوا الآلهة
وأغضبوا أرباب السموات .

قال كاهن ست كلمته وإنها لكلمة السماء . فكان على الملك

الإله الطيب أن يجيب دعوة إله أواريس ، فالتفت إلى رسل
الكتنعاين وقال :

— نصرتم ، ليقومن جنودى بتأديب المفسدين .

أوقد إبراهيم النيران في الليل يدعو الضيف إلى طعامه ،
وأست خيامه تغص بالناس الذين يأتون ليطعموا ويلقوا سمعهم
إلى الشيخ الحليل الذي يتحدث في إيمان عميق عن الله الواحد ،
رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين .
ودار بين إبراهيم والصابئين حوار طويل يدور حول الله
واليوم الآخر وملائكته ورسله ، وكان الصابئون في إيليا ، بيت إيل :
بيت الله ، قلة . وكانوا يؤمنون بالله قبل أن يدعوهم إبراهيم إليه ،
فهم الذين أطلقوا على بابل اسمها باب الله ، وهم الذين أطلقوا على
إيليا المدينة التي نزل بها إبراهيم ومن معه : بيت الله . إلا أن
شوائب علفت بعقائدهم ، فيجادلهم إبراهيم ليظهر دينهم مما يكاد
أن يفسده .

كانوا في مصر مذ كان إدريس عليه السلام في منف ، وتلقوا
على يديه عقيدة التوحيد ، ثم تلقوها على أيدي الأحبار الذين كانوا
يدبنون بدین إدريس . فلما طال على المصريين الأمد ونسجت
الأساطير حول إدريس وصورته في صورة أزريس الإله الذي
قتله أخوه ست ، ثم قطع أعضائه وبعثها في أنحاء البلاد وراحت
زوجته لإزيس . تجمع أعضائه المبعثرة لتعيد إليه الحياة ، وما كان
من أحداث حتى أصبح أزريس إله العالم السفلى الذي يقيم الميزان

لحساب البشر على أفعالهم - تحول المصريون عن الدين القويم إلى الديانات التي ابتدعها الكهنة ليثروا ويزدادوا غنى ، فهاجر الصابئون من مصر فرارا بدينهم ، ونزل بعضهم في سورية وحاران . واستأنف الباقون هجرتهم حتى استقروا في أرض بابل جنوب بلاد ما بين النهرين .

وكان الصابئون يعتقدون أن أول بيت بنى لعبادة الله بمكة ، وأن إدريس عليه السلام هو الذى بنى الكعبة ، وأنها بيت زحل أعلى الكواكب السيارة وأن الطوفان غمرها فيها غمر ، إلا أنهم كانوا يطوفون حول هياكلهم أسوة بطواف إدريس حول الكعبة . وكانوا يبنون هياكلهم من القصب كما تبنى الخيام ، وكانوا يخرجون من ملامسة غير الصابئين ويظهرون إذا لمسوا غريبا ، فى أثناء عباداتهم : وكانوا يصومون ثلاثين يوما متفرقة فى السنة ، وكانوا يصلون لله ويتوجهون فى صلاتهم إلى القطب الشمالى لأنه ثابت فى مكانه لا يختلف له فلك باختلاف الزمان .

وكانوا يبنون مساكنهم بالقرب من الأنهار لحاجتهم الدائمة إلى التطهر بالماء . ولذلك أطلق عليهم اسم الصابئين أى « السابحين » فإن ملامسة الغريب فى أثناء العبادة توجب عليهم الاغتسال والسبح فى الماء .

إنهم قلة ، قليل عددهم خطير شأنهم ، يكتبون كتابهم أشد الكتمان وسموه « كنزة » . وهم يباشرون شعائرهم فى الخفاء : ويتفاسمون الخبز المقدس علامة على الأخوة الروحية ، ويعتقدون أن الكون كونان وأن الخلق خلقان ، فالكون الظاهر غير الكون

الباطن . ولكل مخلوق في عالم الشهادة صورة معجوبة في عالم الغيب . حتى آدم وبنوه منهم أهل ظاهر وأهل باطن ، وأهل الباطن لا يراهم من يعيشون في الظاهر .

لأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويؤمنون بالحساب والعقاب ، وأن الأبرار يذهبون بعد الموت إلى عالم النور « آلمى دنهروا » . وأن المذنبين يذهبون إلى عالم الظلام « آلمى دهشوخا » . فيلبشون فيه زمنا على حسب ذنوبهم ثم يتقلون منه إلى عالم النور .

لأنهم ينزهون الله غاية التنزيه ، ويقولون إن الكواكب مائة نورة نورانية ، وأنه لا بد من مخلوق وسط بين الروحانية والمادية يهتدي الناس إلى الحق ، لأن الروحانيات مخلوقة من كلام الله جل وعلا دعاها بأسمائها فكانت . ولا يصل كلام الله إلى الناس إلا بواسطة مخلوق وسط بين النور والتراب ، ترفعه الرياضة والهداية وتؤثره نعمة الله .

ووجد الصابئون في إبراهيم ذلك المخلوق الذي يجمع بين التراب والنور ، رفعت الرياضة والهداية ونعمة الله إلى المرتبة السامية التي تؤهلها إلى تبليغ رسالات الله إلى الناس .

كان إبراهيم يدعو إلى وحدانية الله وكان يؤمنون بالله الواحد القهار . وكان إبراهيم يدعو إلى الصراط المستقيم وأن كل نفس تجزى بأعمالها ، وكانوا يؤمنون باليوم الآخر وبالحساب وبالجنة وبالنار ، وكان إبراهيم يدعو إلى نبذ الأصنام وقد صنعوا أوثانا للكواكب ، ومن هنا كان الاختلاف وحول أصنامهم دارت المناقشات ،

قالوا : خلق الله الروحانيات ؛ خلق الملائكة ثم تلبست هذه الروحانيات بالكواكب النورانية ، ولما احتاج الأمر إلى أمثلة لهذه الكواكب يراها العيان حين يشاءون صنعوا لها صورا من الأوثان .

قال إبراهيم : إن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله ، يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر ، وأن الأصنام التي يصنعونها لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، ونهاهم عن عبادة ذلك الإفك .

وقالوا لأنهم يتوجهون إلى القطب الشمالى وإلى الكواكب عامة ، ولكنهم لا يعبدونها بل يعدونها من مظاهر الروحانيات التي لا تبرز للعيان .

ودارت المناقشات ليالى وأياما بين إبراهيم والصابئين (١) حتى آمنوا بما يدعوهم إليه من نبذ الأصنام ، وشهدوا أن إبراهيم رسول الله ، وراخوا يدنون تعاليمه في كتابهم « كنزة » ..

وبدأ الدين الجديد بشرق بنوره على بيت إيل ، بيت الله ، وراح اسم الله يتردد في جنبات المدينة حتى كاد يقضى على بعل وعنت وعشتار والآلهة الأخرى ، وأحرق ذلك كهنة الآلهة فراحوا يتعجلون عودة الرسل الكنعانيين الذين فزعوا إلى ملك مصر .

وكان إبراهيم يقف في صحرايه يصلى لله ، وكان المؤمنون يصطفون خلفه ملائكة بررة ، ترق نفوسهم وتسمو أرواحهم

(١) يعجب الباحثون لتنويه القرآن بهذه الملة مع قلة عددها وخفاء أمرها .

حتى تكاد أن تتصل بنور الله : وكانت سارة تصل في خيمتها لله بصوت رخيم يأخذ بمجامع القلوب ويجعل الأعين تفيض بالدموع . كان وجهها الجميل غاية الجمال يشرق بنور الإيمان ، فيضي عليها جمال الروح جمالا فوق جمال .

وجاءتها في سكون الليل جارية وقالت لها إن امرأة من المؤمنات تضع وليدها ، فقامت سارة وسارت خلف الجارية إلى حيث تقودها . وسارتا بين الخيام تغوصان في الظلام . ولم يكن في السماء نجوم تتلألأ وقد غاب القمر : فأخذتا تتحسان طريقهما حتى إذا بلغتا خيمة في أقصى المعسكر غابتا فيها .

وكان في الخيمة امرأة تتلوى من الألم ، فلما وقعت عينها على سارة وهي تبسم لها مشجعة انبسطت أساريرها ورفرت على شفيتها بسمة والتمعت عينها بهريق الاطمئنان . وجلست سارة ترقب أعجب انفصال . انفصال روح من روح . وكانت لا تفتر عن التسبيح لله .

وتلقت سارة على يديها الوليد الجديد وشنت أذنيها صرخاته والنشوة تفيض على وجهها ، لقد شهدت ميلاد كل أطفال المؤمنين والعبيد مذخرجوا من أور وكانت تنهل بالبشر كلما ولد في قافلة الإيمان مولود : كانت تحس أن كل هؤلاء الأولاد الذين ولدوا في حاران وفي الطريق من حاران إلى دمشق وفي دمشق وفي بيت الله ، إنما هم ذريتها :

كانت سعيدة غاية السعادة بيد أن كدرا كان يشوب تلك السعادة كلما سمعت زوجها يدعو ربه وهو واقف في محرابه :

« رب هب لي من الصالحين » . كان في شوق إلى أن يكون له ذرية . وقد مرت السنون وعجزت عن أن تحتق له ما تنفو إليه نفسه الزكية . ليت الله يستمع لدعاء رسوله : دعاء خليله . إنها ترجو بكل خلجة من خلجاتها . بكل نبضة من نبضات قلبها أن يستجيب الله إلى دعاء حبيبه ، وإن كانت تلك الاستجابة تسيء إليها وتعذب روحها :

إن الله يعلم السر والنجوى ، وهو علام الغيوب ، وكان أمره قدرا مقدورا ، ولكن خلق الإنسان عجولا .

وخرجت سارة في عماية الصبح من الخيمة إلى خيمتها ولم تكن الحياة قد دبّت بعد في مساكن إبراهيم . وكان نور فضي يجاهد لينتشر في الأفق الشرقى ، ومس أذنى سارة صوت آت من بعيد ، صوت حوافر خيل ووقع أقدام ، فالتفت ناحية الصورت فإذا بأشباح تتقدم .

واستولى عليها الخوف وراحت تجاهد لتمييز تلك الأشباح . إنهم يقتربون ، إنهم رجال يضع كل منهم على رأسه ريشة أو ريشتين من ريش النعام ، ويلفون أعلى أجسامهم بشرائط ضيقة ، ويحملون في أيديهم أقواسا كبيرة وهراوات وفئوسا للقتال ، وبعضهم على ظهور الحياض .

ورأتهم سارة في وضوح ، إنهم جنود مصر ما جاءوا إلا للغارة عليهم : فصرخت صرخة أيقظت الرجال فهبوا من نومهم مفزوعين وخرجوا من خيامهم ينظرون .

ودبت الحياة في المكان فجأة ، فكان إبراهيم ومن معه

يجرون هنا وهناك ويتأهبون لصيد ذلك العدوان الذى داهمهم .
دون إنذار . وفرغ الرجال إلى أقواسهم وسهامهم وهراواتهم
وفئوس قناصلهم . وتراءى الجمعان وراحوا يترشقون بالسهم ،
وأخذ الجنود المصريون ينتشرون فى الأرض ويحاولون أن يضربوا
نطاقاً حول خيام إبراهيم .

ووصلت السهام إلى حيث كانت الأنعام . فهاجت الثيران
والإبل والأغنام على وجوهها وانتشرت فى ميدان القتال تثر النقع
وتشيع الفوضى وتقتلع الخيام وتجري وتلف وتدور دون أن تلوى
على شيء ؟

واشتبك الرجال بالرجال ، وخرج النسوة يعاونن المؤمنين
على صد العدوان . وحمى وطيس القتال . ومال الفرسان على
النساء وأخذوا يأسرون كل من تقع منهن فى أيديهم .
واحتدمت المعركة . وارتفعت الشمس فى السماء . وتفصد
العرق وسالت على الأرض الدماء . وانتثرت الحثث أشلاء .
ونال الجهد والتعب من الرجال ، فخف القتال ثم توقف . وقنع
المصريون بما أصابوا فعادوا أدراجهم يحملون معهم ما أسروا من
نساء ورجال وأطفال .

وراح إبراهيم يبحث عن سارة فى خيمتها فلم يجدها ، وانتشر
بين المؤمنين خبر اختفائها فأخذوا يبحثون عنها فى كل مكان
فلم يهتدوا إليها ولم يجدوا لها أثراً . فما كانت بين النساء وما كانت
بين الجرحى ولا بين القتلى . وقالت امرأة وقد غامت عيناها
بالدموع :

— لقد أسرت فيمن أسر ! حملها المصريون معهم يا حسرتاه !
ولم يجزع إبراهيم ولم يستسلم لحزنه . إنها إرادة الله والله فعال
لما يريد ، وكان أمر الله قلدا مقلدورا . فإن كانت سارة أسرت
وحملت إلى مصر فهذه مشيئة الله ولا راد لمشيئته . فمن يدري
فلعل البركة فيما أراده الله ، فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه
خيرا كثيرا .

والتفت إبراهيم إلى لوط وإليعازر الدمشقي وبعض المؤمنين
الذين التفوا حوله وقال :
— إلى مصر .

وامتطى الرجال رواحلهم وانطلقوا إلى مصر ، إلى حيث
أراد الله لتمام إرادته ، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون .

انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثاني

« هاجر المصرية أم العرب »

تذييل

كنت وأنا تلميذ بالمدارس الابتدائية أجلس مع والدي وأصدقائه كل مساء ، أصغى في انتباه إلى القارئ وهو يقرأ في « السيرة النبوية لابن هشام » . فقد كان أبي وأصدقائه يجتمعون كل ليلة في منظر الدار (السلامك) ليقرأوا كتباً في الأدب أو التاريخ ، وكانت أحاديثهم كلها تدور حول محمد - صلى الله عليه وسلم - وحقبة صدر الإسلام .

وكان تاريخ محمد - صلوات الله عليه - وما يدور حوله يستهويني ويأخذ بلبى ويستولى على كل انتباهي . وما انتهوا من قراءة السيرة النبوية لابن هشام حتى راحوا يقرءون « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين ، فأعجبني طريقة الدكتور في السرد ، وجعلني أعيش بكل جوارحي في ذلك العصر الذي استطاع الدكتور طه ببراعته أن يجعله ينبض بالحياة .

وشببت وأنا معجب بمحمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، فلما عرفت كيف أقرأ عكفت على قراءة كتب السيرة وما كتب عن الرسول الكريم فازداد إعجابي بشخصيته الفذة الفريدة .

وهويت الكتابة فكانت أمنيته مذلحت القلم أن يوفقني الله إلى كتابة السيرة النبوية في أسلوب قصصي يجذب القارئ ويجعله يعيش الأحداث التي عاشها ناس أعزاء علينا كانوا يملئون (إبراهيم أبو الأنبياء)

الأرض حياة من مئات السنين :

وهمت بكتابة السيرة العطرة أكثر من مرة ، ولكنني كنت في كل مرة أحجم ليقيني أني لم أصبح أهلا بعد لمعالجة مثل هذا العمل الشاق . ومرت الأيام وأنا بين الإقدام والإحجام ، وأخيرا توكلت على الله وبدأت في كتابة الجزء الأول من السيرة مبتدئا بأبي الأنبياء إبراهيم الخليل أبي المؤمنين جميعا وأنا ما أزال على يقين أني أعجز من أنهض بمثل هذا العمل .

أقدمت على الكتابة خشية أن يفرغ الأجل دون أن أحقق أعز أمنية راودتني في العشرين سنة الماضية ، فإن كنت أصبت فمن عند الله ، وإن كنت أخطأت فمن عندي وأرجو أن يغفر لي الله خطئي ، وشفيعي أني اجتهدت وبذلت ما في طاقتي ملتصبا بالحقيقة على قدر علمي واجتهادي .

اخترت أن أكتب السيرة بأسلوب قصصي ، وأنا على علم بما يعاينه كاتب التاريخ من مشقة إذا حاول أن ينهج في كتابته نهج القصة ، فانه سيشقى في سبيل دراسة أشخاص السيرة دراسة دقيقة ليرز ملاحظها وجوانبها . وسيبذل كل الجهد لتصوير الحياة اليومية والمعتقدات والديانات السائدة بأدق تفاصيلها ، وتفاعل الشخصيات مع البيئة ، والاعتماد على الخيال في سد الثغرات والفجوات التي تعترض التسلسل الزمني ، على أن يتناسق الخيال مع المادة التاريخية ليرز جوهر الحقيقة ويعين على استقراء الأحداث لتوفير التسلسل المنطقي . إنه جهد شاق ولكنه يهون في سبيل إتاحة الفرصة للقارئ ليأخذ الكتاب في يسر دون جهد أو تعب .

حاولت جهدى - وإن كنت أكتب قصة أو ما يشبه القصة - أن أحافظ على الحقيقة التاريخية ، فما من حادثة دونتها إلا ولها سند . وقد محصت الروايات المختلفة واخترت أقربها إلى المنطق وروح الدعوة ، وإن تعارضت مع ما ورد في التوراة أو بعض الأحاديث أو مع المتواتر بين المؤرخين .

وقد رأيت من الأمانة أن أشرح النهج الذى انتهجته فى هذا الجزء من السيرة ، وأكشف عن الأفكار التى دارت فى رأسى وتعدر سردها فى القصة بسبب السياق الفنى الذى اخترته .

كما عزمت أن أدون - بعون الله - فى نهاية كل جزء من أجزاء السيرة الأفكار التى تصارعت فى ذهنى قبل أن أطمئن إلى الرأى الذى دونته فى ثنايا الكتاب ، ليطلع القارئ على كل وجهات النظر ، لعل الله ينير بصيرته فيرى رأيا أصوب مما أطمأن إليه قلبى . وقبل أن أعرض مواضع الخلاف بين ما ورد فى التوراة وبعض الأحاديث النبوية المشكوك فى صحتها والمتواتر فى كتب التاريخ وبين كتابى هذا . سأعرض فى لمحة سريعة المنهج الذى اتبعته والمذهب الذى اتخذته نبراسا فى أثناء بحثى عن الحقيقة .

يقول المشتغلون بالعقائد والديانات بتطور الدين ، وأن الحضارة ظهرت على وجه الأرض منذ اليوم الذى ظهر فيه فجر الضمير ، وأن الإنسان سار فى طريق الرقى ودرج فى مدارج السمو منذ ذلك اليوم فعرف الآلهة والبعث بعد الموت والثواب والعقاب . وأكد المتحمسون لمبدأ التطور أن الديانات السماوية استمدت أصولها من ديانات قدماء المصريين والبابليين والآشوريين .

ورجعت إلى القرآن الكريم أبحث عن نشأة الدين فاهتديت إلى أن الإنسان منذ خلقه الله وهو على علم : « وعلم آدم الأسماء كلها » وأن هذا العلم انتقل من آدم إلى بنيه ، وأن الصلة بين آدم وبين الله لم تنقطع بهبوط آدم إلى الأرض : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » ، فمما لا شك فيه أن آدم وبنيه عرفوا الله الواحد القهار حق المعرفة ، فلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم وأشركوا بالله غيره وجعلوا له أندادا ونسجوا حول الحقيقة آلي بلغتهم أساطير ، فمن المقرر أنه لا يمكن خلق شيء من لا شيء ومن هذا جاءت اللامحات الصادقة في عقائد المؤمنين :

إن الله عدل وهو أحكم الحاكمين كتب على نفسه الرحمة ، وقضت سنته ألا يعذب الناس حتى يبعث فيهم رسولا ينذره ويبشرهم : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » « ولكل أمة رسول » « رسول من الله يتلو صحفا مطهرة » « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » .

فكلما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم وأشركوا بربهم بعث إليهم رسوله ، فقام إدريس في منف يدعو الناس إلى عبادة الله له ما في السموات والأرض ، وحدثهم عن البعث والحساب والميزان والجحيم والجنات التي أعدت للمتقين ، فأتمن المصريون بالله وبأن إدريس عبده ورسوله : « واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا » .

واعتنق الصابثون دين إدريس قبل أن يبعث الله نوحا وإبراهيم وقبل أن تقوم في مصر دولة .. عرف المصريون الله قبل أن يعرفوا

أمون وأزريس وآتون . وقد ربطت بين إدريس وعقيدة أزريس لأننى رأيت أن إدريس كان فى منف وأن أزريس كان فى منف وهو بعد على الأرض قبل أن ترفعه الأساطير إلى السماء ، ولأن كتب التاريخ تقول إن إدريس هو أول من علم الناس الزراعة وأن أزريس هو أول من علم الناس الزراعة ، وأن إدريس هو أول من خط بالقلم وأن أزريس هو الذى علم المصريين الكتابة ، وأن الله رفع إدريس مكانا عليا وأن الأسطورة رفعت أزريس إلى السماء .

وسواء أكانت أسطورة أزريس نسجت حول إدريس (١) أم نسجت حول حقيقة أخرى . فما لا شك فيه أن المصريين آمنوا بالبعث بعد الموت وبالحساب وبالثواب والعقاب بعد دعوة إدريس ، وأن الصابئين الذين كانوا فى مصر قبل أن يفسد دين القوم ثم هاجروا منها بعد أن فسد الدين إلى جنوب العراق يؤيد هذه الحقيقة ، حقيقة معرفة الله والبعث والحساب قبل عصر الأسرات . عرف المصريون من إدريس أن الله علم آدم الأسماء كلها فقالوا : إن بتاح (إله منف) نطق بأسماء كل الأشياء ، كما عرفوا التوحيد الصحيح قبل إخناتون بألاف السنين .

كان هذا هو المذهب الذى اتخذته نبراسا لى فى أثناء كتابة هذا الجزء من السيرة ، وسيكون هو نفسه نبراسى — إن شاء الله — فى الأجزاء التالية .

وكثيرا ما يسخر الذين يحسبون أنهم على شئ ، من الذين يؤمنون بالغيب فى عصر الذرة والمعمل وأنبوبة الاختبار . ويتخذون

(١) انظر تذييل الجزء الثانى عن أزريس وإدريس .

الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون هزوا، ويزعمون أن لن يجعل الله لهم موعدا كأن عندهم الغيب فهم يكتبون .

لن نعرض عن هؤلاء الساخرين . الهازئين وسنجاهلهم بالتى هى أحسن ، وسنذهب معهم طائعين إلى المعمل لنرى ما الذى تثبته أنبوبة الاختبار ، عسى أن يهدينا علام الغيوب جميعا سواء السبيل ؛ ولقد نجح المعمل فى أن يجعل تيارا يسرى فى سلكين أحدها سالب والآخر موجب وأن ينير السلكان مصباحا ، ونجح فى أن يولد الكهرباء ، وهذا بلا مرأء نجاح عظيم يباركه الله والمؤمنون . وينهض سؤال : ما هى الكهرباء ؟ لقد رأينا أثر الكهرباء وما تفعله الكهرباء من أعاجيب ، أما الكهرباء فهى شىء مجهول لم ندر كنهه . إنها غيب وسبحان علام الغيوب .

ونجح المعمل فى أن يمتص قطعة من الحديد وأن يجذب المغناطيس المسامير ، وتنوع استخدامات المغناطيسية وهذا بلا مرأء نجاح عظيم يباركه الله والمؤمنون ، وينهض سؤال : ما هو المغناطيس ؟ ولا جواب إلا أنه مجهول ، غيب ، وسبحان علام الغيوب .

ويقول العلم الحديث إن الضوء يتكون من تموجات تنتقل فى الأثير ، ويعرف الأثير بأنه ذلك الذى تنتقل فيه تموجات الضوء ، وهذه حقيقة يمكننا أن نسلم بها ونبارك الجهود الصادقة التى بذلت للوصول إليها ، بيد أننا فى نفس الوقت نجد أننا تسجل لغوا وتنهض أمامنا مشكلة : ما هو هذا الأثير ؟ وما هى خواصه الطبيعية ؟ غيب .. وسبحان علام الغيوب .

وكانت الذرة منذ عهد قريب أصغر وحدة فى الوجود ، ثم

حطمت الذرة وأصبحت إلكترونات ، واجتهد المعمل لينتج أزواج الإلكترونات بالجملة ، ونجح : وعرفنا أن تيارات في جسيمات ذات طاقة عالية تأتينا من الفضاء البعيد تولد أزواج الإلكترونات بالجملة ، وأطلقنا على هذه الظاهرة « رذاذ الأشعة الكونية » . وبحثنا عن منشأ هذه التيارات التي تجري في جميع الاتجاهات إلى رحاب الفضاء : فإذا بنا أمام لغز ، أمام المجهول ، أمام الغيب ، وسبحان علام الغيوب .

ووصل المعمل بعد تحطيم الذرة إلى وحدات أولية تتكون منها الذرة هي النويات والإلكترونات والنويات ، وهذا بلا مرأه نجاح عظيم يباركه الله والمؤمنون ، ولكن على أى أساس يحق لنا أن نفرض أن هذه الوحدات غير قابلة للتجزئة إلى أجزاء أصغر ؟ ألم يكن مفروضا منذ نصف قرن مضى أن الذرة غير قابلة للتجزئة ؟ إننا أمام غيب وسبحان علام الغيوب .

وركز المعمل جهوده لاكتشاف سر الخلية الحية لغز الحياة ، وراح العلماء يفرضون فروضا . إن الخلية تتكون من فيروسات ، وهذه مواد كيميائية معتدة ، ثم يتحدثون عن الحسيمات الفيروسية التي ينبغي أن تعتبر كجزيئات كيميائية عادية ، وفي نفس الوقت ككائنات حية ، فهي بذلك تمثل « الحلقة المفقودة » بين المادة الحية والمادة غير الحية .

ونجد أنفسنا مرة أخرى أمام فروض وحلقات مفقودة ولغز لا يعرف العلماء حله ، نجد أنفسنا أمام الغيب . ولو استطردنا في استقراء نتائج التجارب التي تجري في المعمل وأنبوبة الاختبار

لخرجنا بحقيقة واحدة مؤكدة هي أن الغيب هو الحقيقة العلمية الوحيدة الثابتة .

لقد سخر الذين يحسبون أنهم على شيء من الذين آمنوا بالغيب ، وسخر الله منهم ، وحق بالذين سخرُوا ما كانوا به يستهزئون ، « ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله » ، « فقل إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين » .

كان الإنسان على علم منذ خلقه الله ، وكان يؤمن أن الله عنده مفاتيح الغيب ، وكان يخشع قلبه لذكر الله ، فلما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم بعث الله رسوله ليقولوا : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ؟) .

إنها دعوة واحدة منذ آدم : إله واحد ، « إلهكم إله واحد » ، « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » . وأمة واحدة ، « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » . وبهذا الفهم جعلت إبراهيم ينطق بآيات جاءت فى القرآن الكريم على السنة رسل آخرين ، آيات جاءت لتوضيح الدعوة وللزام الكافرين الحجة ، آيات جرت على لسان أكثر من رسول لتأكيد أن الدعوة واحدة لم يطرأ عليها ذلك التطور المزعوم . « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ، دينا قىما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

وما أردت بكتابة هذه السيرة فى هذا العصر الذى طغت فيه المادية إلا أن أعرض حقبة مشرقة من تاريخ البشرية ارتفع فيها الإنسان حين أسلم وجهه لله ورفع عبادته من الطبيعة إلى ما فوق

الطبيعة ، حقبة تحرر فيها من العبودية ، من أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا ، من أن يكون عبدا للشهوات ورغبات الجسد . من أن ترتعد فرائضه خوفا من بطش الأقوياء وظلم الظالمين .

لقد أذلت الدنيا الإنسان قبل أن يعرف إلهه وإنها لتذله كلما أعرض عنه ، بيد أنه أذها يوم عرف أن إلهه له ما فى السموات وما فى الأرض بيده الأمر كله فعال لما يريد لا معقب لحكمه ، ولأنه لينها كلما توكل على الله رب العالمين .

أردت بهذه السيرة أن أفسر التاريخ تفسيراً روحياً ، وأن أظهر ضمير الإنسان من أدران المادية الطاغية ، وأن أعيد إليه رفاهته التى بلغت غايتها فى ظل الدين ، وأن أعيد إلى الإنسان كرامته التى تتألق وتركو كلما سما فوق مطالب الأبدان وضرورات الغرائز وما تهفو إليه النفوس .

وقد اعتمدت فى كتابة هذا الجزء من السيرة على القرآن الكريم ، وعلى الأحاديث والتوراة وكتب التاريخ فيما يتفق مع القرآن وطبيعة الدعوة وصفات خليل الرحمن عليه السلام الصديق الأواه الحليم الذى وفى ، فإذا ما وقع خلاف بين ما جاء فى القرآن وما جاء فى الأحاديث أو التوراة ، فقد كنت آخذ بما جاء فى القرآن الكريم .

وكان أول خلاف بين ما جاء فى القرآن وما جاء فى التوراة نسب إبراهيم واسم أبيه ، فقد جاء فى القرآن : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ... » وجاء فى التوراة أن إبراهيم بن تارح ، وحاول كثير من المفسرين المسلمين أن يقضوا على ذلك التناقض فقالوا

إن آثر بمعنى أخرج أو إنه اسم صنم ، ولكنى رأيت أن آخذ بما جاء في القرآن دون تلك المحاولات التى بذلت بحسن نية لأنى أومن بما يؤمن به اليهود السامريون بصحة الإصحاحات التى نزلت على موسى ، أما ما جاء بعد موسى فهو من قبيل تسجيل اليهود لتاريخهم ، ولأنى قرأت كذلك فى كتاب الله : « ... إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبلونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ، قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » .

وقد ذكر يوسفوس المؤرخ المسيحى اليونانى أن أبا إبراهيم الخليل يدعى آثر ، وزعم سنكلر تسديل أن للاسم أصلا فى الفارسية القديمة بمعنى النار .

واختلف اليهود والمفسرون والمسلمون فى قرابة سارة من إبراهيم فقال اليهود إنها أخت غير شقيقة لإبراهيم من أبيه تارح ، وجاء فى « المشنا » وهو من أهم المراجع الإسرائيلية بعد التوراة أن سارة هى بنت أخيه هاران . وروى الحافظ ابن كثير أن المشهور أنها ابنة عم لإبراهيم يسمى هاران . ويقول ابن إسحاق الثعلبي صاحب قصص الأنبياء إنها ابنة عمه ولا يذكر اسمه . وقد أخذت برواية المفسرين العرب لأن عادة تزوج الأخت لم تكن منتشرة بين العرب الذين خرجوا من جزيرة العرب وأسسوا مملكة بابل وآشور واستولوا على سورية ودلتا النيل ، هؤلاء العرب الذين أطلق عليهم أحد المؤرخين فى القرن الثامن

عشر اسم « الساميين » (١) لأنهم من نسل سام ، وجاريناه جميعا في تلك التسمية .

وقد أفاض الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه « أبوالأنبياء : الخليل إبراهيم » في نسب إبراهيم وقرابة سارة منه ، وفي أوجه الخلاف بين ما ورد في التوراة وما جاء في كتب اليهود .

ولم يذكر القرآن ولا الكتاب المقدس أن إبراهيم استولى على دمشق وإن ورد اسم إلعازر الدمشقي في التوراة وكان صاحب خزان بيت إبراهيم ، مما يدل على أن هناك علاقة بين إبراهيم الخليل ودمشق ، وقد اعتمدت على رواية المؤرخ اليهودي يوسفوس الذي ولد في القرن الأول للميلاد إذ ذكر أن إبراهيم كان ملكا على دمشق .

واعتمدت كذلك على يوسفوس عندما ذكرت أن سارة أخذت أسيرة إلى مصر ، وتركت ما ورد في التوراة من أنه « حدثت جماعة في الأرض فأنحدر إبراهيم إلى مصر ، وقال لسارى امرأته وهو على مقربة من مصر : إني علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فإذا رآك المصريون قالوا هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك ، قولى إنك أختى ليكون لى خير بسببك ونجيا نفسى من أجلك » .

« فلما دخل إبراهيم مصر رأى المصريون أن المرأة حسنة جدا ، ومدحها رؤساء فرعون لديه فأنخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى إبراهيم خيرا بسببها ، وصار له بقر وغنم وحمير وعبيد

(١) انظر تذييل الجزء الثانى عن الساميين *

وإماء وأتن وجمال» (١) .

أهملت هذه الرواية عن عمد لأنها لا تتفق مع خلق إبراهيم خليل الرحمن ، الرجل الذى وقف فى وجه الجبارين ولم يرهب الطغاة ، الرجل الذى ألقى فى النار وهو ثابت الحنان ، فكيف يرضى مثل هذا الرجل القوى الذى يعرف أن الله معه أن يبرز مفاتن زوجته ويدخلها على فرعون لينال خيرا بسببها ويصبح له بقر وغنم وحمبر وعبيد وإماء وأتن وجمال ؟ !

قد يحتج بأن هناك حديثا نبويا يؤيد رواية التوراة ، وعندى أن هذا الحديث هو من الأحاديث التى افترت على رسول الله ، فمحمد - صلى الله عليه وسلم - أكيس من أن يتهم إبراهيم بالكذب ، ولا يقبل المنطق السليم صدور مثل هذا الحديث عن محمد - صلى الله عليه وسلم - الذى يدعو المسلمون فى صلواتهم أن يصلى الله على محمد وآل محمد كما صلى على إبراهيم وآل إبراهيم ، ويبارك على محمد وآل محمد كما بارك على إبراهيم وآل إبراهيم .

والحديث يختلف عليه بين الفقهاء وعلماء الأصول وهو يقول : حدث أبو هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لم يكذب إبراهيم النبى عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات : اثنتين فى ذات الله : قوله إني سقيم ، وقوله بل فعله كبيرهم هذا ، وواحدة فى شأن سارة ، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس ، فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك . فان سألك فأخبريه أنك أختى فإنك أختى فى الإسلام ،

(١) انظر تنذيل الجزء الثانى *

فإنى لا أعلم في الأرض مسلماً غيرى وغيرك ، فلما دخل أرضه رآها
بعض أهل الجبار فأتاه فقال له :
لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي أن تكون إلا لك ، فأرسل
إليها فاتى بها ... » .

ويستمر الحديث مطابقاً لما جاء في التوراة .

وأرى أن بعض من أسلم من اليهود قد اختلق هذا الحديث
وهو يحسب أنه يؤدي خدمة للإسلام ولرسول المسلمين ، فقد
كان في الأرض في ذلك الوقت مسلمون كثيرون غير إبراهيم
وسارة . فقد جاء في القرآن : « وآمن له لوط » ، وكان إيمان
لوط قبل الهجرة من أور ؛ وقد آمن إليعازر الممشتى وخلق كثير ،
فكيف يعقل أن يقول محمد - صلى الله عليه وسلم - الذى نزل عليه
القرآن وفيه أن لوطاً آمن لإبراهيم أن يقول على لسان إبراهيم :
« فإنى لا أعلم في الأرض مسلماً غيرى وغيرك » ؟ !

وكل ما جاء في القرآن عن إبراهيم ينفي إمكان وقوع مثل
هذه السقطة التى يترفع عنها أناس لا هم رسل ولا هم أحباء الله ،
كما أن الكذب صفة مذمومة لا يمكن نسبتها إلى الأنبياء . « واتخذ الله
إبراهيم خليلاً » ، « إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً » ، « واذكر
في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً » ، « واذكر عبادنا إبراهيم
وإسحاق ويعقوب أولى الأيادى والأبصار » ، « وإبراهيم الذى وفى » ،
« لقد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه » .

كان إبراهيم أسوة حسنة وإنه لمن الكذب عليه أن تنسب إليه
مثل هذه السقطة : ومما يدل على كذبها أنها ذكرت مرة أخرى

في التوراة بالفاظها عندما انتقل إبراهيم من سلوم إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار : « وقال إبراهيم عن سارة امرأته هي أختي ، فأرسل « أبيالك » ملك جرار وأخذ سارة ... » .

وذكرت أن سارة أخذت أسيرة إلى مصر في عهد الهكسوس وقد ذكر ذلك مؤرخو العرب ، فهم يرون أن الهكسوس هم العماليق أخرجوا من تهامة بأرض ب الحجاز واستولوا على بلاد ما بين النهرين وأسسوا ملك بابل وآشور ونزلوا بسورية ومنها هبطوا إلى دلتا النيل .

وإن علماء الآثار حديثا يؤيدون هذا الرأي ، يقول الأستاذ ألبرايت : « إن مسألة الهكسوس لا تزال على عسرها ، لكنها أخذت في الكشف والإبانة من الحوادث التالية بعد البحوث التي تناولها وتلوك وستوك وكاتب هذه السطور ، فنحن نعلم اليوم أنها لا بد أن ترجع إلى الفترة بين سنتي ١٧٢٠ و ١٥٥٠ قبل الميلاد ، وأن قيادة الهكسوس في يد الساميين ولم تكن حورية أو هندية آرية كما كان بعض العلماء يقدررون إلى زمن قريب ... » .

فما دامت الكشوف الحديثة تؤيد أن الهكسوس عرب ، فلا جرم إن اعتمدنا على روايات مؤرخي العرب الذين قالوا إن سنان بن الأشل بن عبيد هو ملك مصر في عصر إبراهيم .

إنى على يقين من أن ملك مصر في عهد يوسف من ملوك الهكسوس ، فقد كان المصريون يعتبرون ملوك الهكسوس حكاما للبلاد الأجنبية « حتاوخاسوت » ولم ينظروا إليهم أبدا على أنهم

— ٣٠٣ —

فراعين . وجاء يقيني من أن القرآن الكريم أكد هذه الحقيقة ، فعندما كان يتكلم عن موسى كان يذكر فرعون صراحة : « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق » ، « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان » ، « ونادى فرعون في قومه قال : يا قوم أليس لى ملك مصر » ، أما عندما كان يقص قصة يوسف فى مصر فلم يذكر فرعون أبدا ، كان يتحدث عن الملك ، عن الحاكم الذى لم يكن أبدا من الفراعين : « وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف » ، « وقال الملك اثنوى به أستخلصه لنفسى » .

كان يوسف فى عهد الهكسوس ، الحكام الذين لم يكونوا من الفراعين : فإن كان يوسف فى ذلك العهد فمن المحتمل جدا أن يكون إبراهيم فى نفس ذلك العصر . وقد ذكر بعض شراح التوراة أن ملك إبراهيم وملك يوسف كان واحدا ولم آخذ بذلك الرأى ، بل أخذت برأى مؤرخى العرب الذين قالوا : إن ملك إبراهيم كان سنان بن الأشل بن عبيد ، وقوى ذلك الرأى عندى أنه وجد تماثيل من عهد الهكسوس لملك أطلق على نفسه « سنحى » بمعنى العبد وهذا الاسم ترجمة لعبيد اسم جد سنان .

هذه هى جملة الاختلافات بين ما فى كتابى وبين ما فى التوراة أو الأحاديث النبوية المشكوك فى صحتها ، وجدت من الأمانة أن أضعها أمام القراء ليأخذوا ما يشاءون .

وفقنا الله وإياكم إلى الصواب .

القاهرة فى ١٩٦٥/٣/٣

المراجع

- القرآن الكريم
الكتاب المقدس
صحيح البخارى
بلاد ما بين النهرين
من الواح سومر
تاريخ الامم والملوك
تاريخ ابن خلدون
مصر القديمة
فجر الضمير
أبو الانبياء
مصر والحياة المصرية
فى العصور القديمة
دراسات فى تاريخ الشرق
القديم
خليل الله فى اليهودية
والمسيحية والاسلام
حياة ابراهيم
شرح الكتاب
واحد ، اثنان ، ثلاثة ..
لا نهاية
قصص الانبياء
- تأليف : ل. ديلاپورنت
ترجمة : محرم كمال
تأليف : صمويل كريم
ترجمة : طه باقر
تأليف : الطبرى
تأليف : الدكتور سليم حسن
تأليف : جيمس هنرى برستيد
ترجمة : الدكتور سليم حسن
تأليف : عباس محمود العقاد
تأليف : أدولف أرمان وهرمان رامكه
ترجمة : الدكتور عبد المنعم أبو بكر
ومحرم كمال
تأليف : الدكتور أحمد فخرى
تأليف : حبيب سعيد
تأليف : الدكتور ف. ب. ماير
ترجمة : القس مرقس داود
تأليف : تشارلس ماكنوتش
تأليف : جورج جاموف
ترجمة : اسماعيل حقى
تأليف : ابن اسحاق الثعلبى

مكتبة مصر
٣ شارع كامل متقى - البهالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه